أعلام الأدب الروسي

ايفان بونين

الدروب الظليلة

مجموعة أقاصيص

دار «رادوغا»
موسكو

ترجمة عبد الله حبه

И. А. Бунин

РАССКАЗЫ

Из книги «Темные аллеи»

На арабском языке

© الترجمة الى اللغة العربية – دار «رادوغا» ، ١٩٨٧

طبع فى الاتحاد السوفيتى

ISBN 5-05-001191-4

ايفان بونين وكتابه «الدروب الظليلة»

عاش الكاتب الروسى الشهير ايفان الكسييفيتش بونين حياة مديدة : فقد ولد فى عام ١٨٧٠ ، وتوفى فى عام ١٩٥٣ . وتواصل ابداعه فترة تربو على الستين عاما . عاصر حربين عالميتين وثلاث ثورات روسية . ولم تكن حياته بالبسيطة بل كانت زاخرة بالاحداث الدرامية . عرف المرض ، وسنوات العوز الطويلة ، ثم دلف الى الشيخوخة وقد تدهورت صحته . . بالمناسبة ان الشيخوخة وبونين – نقيضان . لقد حافظ ايفان بونين حتى أيامه الأخيرة ، بصورة مدهشة ، على حيوية وتوقد الشخصية ، وحدة وصفاء الذهن ، والارادة فى الابداع . وظل الى الابد وفيا لذاته ، ولموهبته ، ورسالته ، مقدما الخدمات الى الادب الروسى العظيم ، الذى كانت اثمن سماته العمق والجد والبساطة وعدم التكلف والنبل والصدق (هذه – اقواله نفسه) .

بونين سليل اسرة من النبلاء احاق بها الضرّ والعوز ، فامضى طفولته فى ضيعة شبه خربة ، مرتبطا اشد الارتباط بالريف . لهذا ظل حتى

نهاية حياته شديد الاهتمام بالفلاح الروسى . وكانت تشغله دائما فطرة الانسان الروسى ، والتشابك المتميز بين جوانبه المضيئة والقاتمة ، وكذلك معيشة ونمط حياة القرية الروسية ، التى كان يفتخر عن حق بمعرفتها . حظى بونين فى اعوام شبابه بالشهرة الواسعة لقصصه «فى الدسكرة» و«فى القرية» و«تفاحات انطونوفكا» (١٨٩٢–١٩٠٠) ، وفى اعوام النضوج لروايتيه القصيرتين «القرية» و«الوادى القاحل» (١٩١٠–١٩١٢) ، وكذلك للمقالات الادبية «ظل الطير» ، المستوحاة من رحلاته الى الشرق الاوسط . وكان الكاتب شديد الولع بالاسفار . بيد ان بونين ولج الادب الروسى منذ شبابه بصفته شاعرا ايضا : ففى عام ١٨٩٦ ابدع فى ترجمة «انشودة غايافاتا» للشاعر لونغفيللو (١٨٠٧–١٨٨٢) ، واصدر فى العقد الاول من القرن العشرين عدة مجموعات من الشعر الوجدانى ، جلبت له الشهرة . وكان بونين يعتبر نفسه شاعرا قبل كل شىء دوما . ولربما كان على حق ، لان الامر لا يتوقف على عدد مؤلفاته النثرية والشعرية (كتب بونين بضعة مجلدات من النثر ، اما اشعاره فتضم قرابة مجلد كبير واحد) ، بل كان جوهر المسألة ينحصر فى الطبيعة الشعرية لموهبة بونين .

ومن الخصال المميزة الاساسية لشخصية بونين وموهبته الادبية الاحساس المرهف والرقيق بالحياة .

وكان الكاتب يتمتع بحب فطرى «من الاعماق» لكل ما هو «ارضى» ، وبالقدرة على تحسس الطبيعة ، وتحسس نفسه جسديا بمعنى الكلمة الحرفى كجزء منها ، وكجزء من الكل الموحد الكامل ، والرائع والغامض ، والسرمدى فى الزمان والمكان ، اللذين لا يدركهما العقل البشرى . وكتب يقول «ان حياتى اندماج مختلج وجذل مع كل ما هو خالد وعابر ، وقريب وبعيد ، مع جميع الازمان والامصار ، وحياة كل ما وجد ويوجد على هذه الارض ، الاثيرة الى نفسى بكل هذا القدر» .

وبقدر تعلّق بونين بالحياة ، وبمن يفعل الخير على الارض ، كان يبغض كل ما ينتهك الانسجام الطبيعى ، الذى كان يؤمن ايمانا راسخا به .

كان موقفه من العالم المصدر الشاعرى لابداعه : اذ ان جميع اعماله مترعة به .

ان خيرة اعمال بونين فى سنوات نضجه التى كتبها فى الوطن – هى ، باستثناء ما ذكرناه آنفا ، «زاخار فوروبيوف» و«كاس الحياة» ، و«الاشقاء» و«سيد من سان فرانسيسكو» و«احلام تشانغ» و«قواعد الحب» و«الابن» – تمثل جزءا من الكشف الطويل للنثر الروسى البديع : عن الحب والموت ، وعن ترهات الواقع الروسى وروح الفلاح الرائعة ، والتغيرات المتصلة ، و«تقلبات» (حسب تعبير ليف تولستوى) المشاعر والمعاناة الانسانية . . .

حين اندلعت فى عام ١٩١٤ الحرب العالمية

الاولى ، التى طال امدها ، وقامت فى عام ١٩١٧ الثورتان الروسيتان ، الواحدة تلو الاخرى ، – ثورة فبراير وثورة اكتوبر – صار بونين يوغل شهرا بعد شهر ويوما بعد يوم فى المأزق ، الابداعى والروحى . ثم اتخذ قرارا مهلكا كالقدر المحتوم : بان يغادر الوطن . وفى يناير عام ١٩٢٠ سافر الى الخارج وقلبه يطفح بشعور من الكآبة البالغة . وامضى بقية حياته كلها فى فرنسا .

لقد حكم على نفسه بمعاناة الوحدة الابداعية والانسانية والحنين المبرح الى الوطن . «الموهبة هى الموهبة ، ومع ذلك فان «لكل صنوبرة غابتها التى تشخشخ فيها ولها» . فاين غابتى أنا ؟ ومع من ولمن يجب ان اشخشخ ؟» – كتب هذا فى الغربة حيث بقى منعزلا وغريبا عن المهاجرين الروس . ولم يكن حتى ليفكر بالكتابة باللغة الفرنسية لقناعته بان الانسان ليس بوسعه ابدا اتقان لغتين فى آن واحد لحد الكمال ، وبكل ما فيهما من دقائق وتفاصيل ، وان الكاتب لا يستطيع الابداع ابداعا حقيقيا الا باللغة التى ولد وشب معها .

وهكذا واصل بونين حتى اواخر ايام حياته خدمته المتفانية للادب الروسى فاغناه باكثر من عمل بديع .

ان خيرة ما ابدعه يراع بونين في المهجر هي الروايات القصيرة والقصص التي تتضمن فكرة قيمة عن الحب

الخالد ، ومباهج الحياة الدنيا ، وبغض التحلل وكل ما هو مشوه وعليل . ومنها «وردة أريحا» و«الحاصدون» و«غرام ميتيا» و«ضربة شمس» و«الليل» ورواية «حياة ارسينييف» التى تعد ترجمة لحياته ، وكتاب «تحرير تولستوى» . كما لم يكف بونين عن نظم الشعر . وكتب يقول «اننى اتعطش الى الحياة واحيا ليس بحاضرى فقط بل وبحياتى الماضية وبالاف من الحيوات الاخرى غيرها ، بالازمان المعاصرة لى والماضية ، وبكل تاريخ البشرية فى كافة الامصار . وما برحت اتعطش الى جنى ما هو غريب وتوظيفه فى ذاتى» .

عمل بونين فى خلال الفترة من ١٩٣٧ الى ١٩٤٥ فى تاليف القصص التى يأتلف منها كتابه «الدروب الظليلة» .

كانت هذه السنوات ، من الناحية المعيشية ، سنوات عسيرة للغاية بالنسبة اليه . ففى البداية – العوز ، بل ومجرد الفاقة ، بعد ان نضبت قيمة جائزة نوبل التى حصل عليها فى عام ١٩٣٣ لقاء روايته «حياة ارسينييف» . ثم اعقبت ذلك الاعوام العصيبة للاحتلال الفاشى . وقد رفض بونين بشكل قاطع التعاون مع الهتلريين ، وكذلك السفر الى امريكا ، واعتكف عدة سنوات «حبيسا» فى غراس ، حيث عاش فى عسر شديد دون ان يغادرها ، وتدهورت صحته ، وبدت علائم الشيخوخة عليه . كما لازمت الكاتب وحدة فظيعة خانقة ، – وتدل على

هذا مذكرات ايفان اليكسييفيتش الباقية . واليكم بعضها (فى فترة ١٩٤٠- ١٩٤١) :

«اليوم يوم رائع على الاخص . تطلعت عبر نوافذ مشربيتى . فوجدت السهول والجبال حوالى كلها متلفعة بدخان ازرق تتخلله اشعة الشمس . . . من اليمين ، وبمحاذاة سلمنا الحجرى بدت شجيرتا دفلة ذواتا اوراق دقيقة حادة ، تتالقان بزهور وردية صغيرة . والوحدة ، الوحدة . كما هى الحال ابدا !»

«. . . ما اكثر ما عانيته ! . . وها هى ذا الشيخوخة - مرة اخرى الاملاق والوحدة الفظيعة - فماذا امامى !»

«كآبة خاوية وساكنة ، وحدة ، ويأس ...»

كان العمل فى تاليف كتاب «الدروب الظليلة» يمثل طوال تلك الاعوام مصدر البهجة الرئيسية فى حياة بونين . وما كان ليعول عليه كثيرا من الناحية المادية ، وراح يعمل من اجل حب الفن حصرا ، فتجده يعود الى هذا الكتاب دائما فى رسائله ومذكراته .

لكن من اين جاءت تسمية : «الدروب الظليلة» ؟ لقد اورد الكاتب نفسه فى ذكرياته انه فى يوم من الايام وقعت بين يديه مجموعة اشعار للشاعر الروسى نيكولاى اوغاريوف ، ووقع بصره فى قصيدة «رواية عادية» على البيتين التاليين :

العليق الارجوانى يزهر حول المكان ،

ودرب ظليل يلفه قتام الزيزفون . . .

فبعث هذان البيتان فى ذاكرته صورة الخريف بروسيا ، والجو الملبد بالغيوم ، وطريق واسعة وعسكرى عجوز يستقل عربة . فلاحت امامه صورة ، وفى اعقاب الصورة - مولد موضوع قصة استعار تسميتها من كلمات القصيدة : «الدروب الظليلة» ، - وحين اعد الكتاب للطبع - اطلقت التسمية على الكتاب كله . . .

عم يروى هذا الكتاب ؟ وما هى الفكرة الموحدة ، والموضوع الرابط فيه ، وما هو الاحساس الغامر الذى يتخلله ؟

لقد اورد بونين فى كتابه «تحرير تولستوى» اقوال الكاتب الروسى العظيم ، التى قالها فى زمن ما ، مخاطبا اياه حين كان فتى (كان بونين فى سنوات شبابه يكن بالغ الاعجاب بتولستوى والتقى به) :

«لا توجد سعادة فى الحياة ، بل توجد ومضات لها فقط ، . . فثمنها ، ولتحيا بها» .

ويعتبر بونين ان الحب يمثل «ومضات» السعادة تلك التى تنير حياة الانسان . ويورد بونين اقوال ليف تولستوى من روايته «الحرب والسلام» التى يقول فيها : «ان الحب لا يفهم الموت . الحب هو الحياة» ، ويمكن اعتماد هذه الكلمات لتكون العبارات التى تتصدر قصص بونين «الدروب الظليلة» .

يمكن وصف هذا الكتاب عن حق بانه موسوعة

الحب . فيثير اهتمام الكاتب شتى لحظات وتنوع المشاعر التى تنشأ لدى الرجل والمرأة . وهو يتفرس ويصغى ويحدس ويحاول تخيل كل «تلاوين» العلاقات بين الاثنين . المعاناة السامية الشاعرية فى قصة «روسا» ، والمشاعر المتناقضة وغير المتوقعة ، واحيانا ، القاسية (فى قصة «موزا») ، والاهواء والعواطف البدائية جدا (فى قصتى «كوما» و«البداية») — لحد ظهور المشاعر الخسيسة . صفوة القول ، ان كل نطاقات العشق من المعاناة الرفيعة ، والاحلام الرومانتيكية ، الى الاهواء والميول الجنسية — يبحثها الكاتب جميعا ، يحدوه السعى الى استكناه الغاز طبيعة الانسان .

لكن لا مراء فى ان ما يجذب بونين بالدرجة الاولى واساسا هو الحب الدنيوى الصميم باعتباره اندغام وترابط ما هو «دنيوى» و«سماوى» ، والوحدة الروحية والجسدية ، والانسجام بين عنصريها المتناقضين ، — الانسجام الذى يبحث عنه جميع الشعراء الاصائل فى العالم دوما لكنهم لا يجدونه دائما .

ومثل هذا الحب لم يبتدعه خيال البشر ، بل هو موجود ، ولربما ليس فى احوال نادرة كما يظن المرء . وهو سعادة عظيمة ، بيد انها قصيرة الامد ، وتمضى احيانا فى لحظة خاطفة — مثل الومضة بالذات : فتندلع — وتخبو . فهل ان ذاك هو السبب فى كون هذا الاحساس ، كما يصوره

بونين ، لا يرتبط بالزواج ؟ ان قصص بونين لا تتناول عادة حياة الازواج . وكتب بونين فى قصة «قضية الضابط يلاغين» : «هل من المعقول الا يعرف بوجود سمة غريبة لكل حب قوى وعموما لكل حب غير مألوف حتى وكأنه يتهرب من الزواج ؟» . والحب فى كتاب «الدروب الظليلة» قصير العمر عادة . بله ذلك تجده محكوما عليه بالزوال السريع كلما كان اقوى واكمل . واقول بالزوال وليس بالهلاك . فتراه يضيىء كل ذاكرة وحياة الانسان . وهكذا احتفظت ناديجدا ، صاحبة النزل ، طوال حياتها كلها بذكرى الحب نحو «السيد» الذى اغواها فى وقت ما . فتقول : «الشباب يمضى لدى الجميع ، اما الحب فامره مختلف» . اما في قصة «روسا» فـ«هو» لا يستطيع على مدى عشرين عاما ان ينسى روسا التى كان فى زمن ما يعمل مدرسا فى اسرتها . وبطلة قصة «خريف بارد» ، التى ودعت خطيبها الى الحرب (قتل بعد شهر) ، لم تحتفظ فى قلبها طوال ثلاثين عاما بحبها له فقط ، بل وترى انه لم يوجد فى حياتها سوى «تلك الامسية الباردة فى الخريف وحدها» ، اما الباقى فهو مجرد «حلم نافل» .

ويبدو كما لو ان بونين لايهتم بالحب السعيد ، المديد ، الذى يجمع ما بين البشر ، — لذا نجده لا يكتب عنه ابدا . لم لا يهتم بونين بالجمع ما بين المحبين ، فهى علاقات مغايرة تماما ، حيث لا توجد الالام ، والانفعالات والقلق ، ولا النشوة المضنية

والموجعة . «ليكن فقط ، ما لدينا . . . ليس ثمة شيء افضل من هذا» – هذا ما تقوله الفتاة فى قصة «الارجوحة» ، مجددة فكرة احتمال الزواج بالانسان الذى تعشقه . وبطل قصة «تانيا» يساوره الرعب لدى التفكير بما سيفعله ان تزوج تانيا ، الفتاة القروية ، التى تعمل وصيفة لدى اقاربه ، – بينما يحبها وحدها بالذات حبا حقيقيا : «. . انها حتى لا تحدس مدى حبي لها ! وماذا بوسعى عمله ؟ هل آخذها معي ؟ الى أين ؟ والى اى حياة ؟ وماذا ستكون النتيجة ؟ ان اقيد نفسي واقضى عليها الى الابد ؟» انه يقضى على نفسه ليس البتة لكون تانيا «غير جديرة» به . ان الفكرة الاساسية لدى الكاتب تكمن فى ان «تقييد النفس الى ابد الابدين» حتى بالمرأة المحبوبة يعنى بالنسبة الى بطل بونين القضاء على الحب نفسه ، وتحويل الشعور – الى عادة ، والعيد – الى يوم عادى ، والانفعال – الى هدوء البال . ولئن كان ابطال بونين تهفو نفوسهم مع هذا الى ربط حياتهم بحياة من يحبون ، فانه فى آخر لحظة محتومة ، حين يبدو ان كل شيء يمضى الى الخاتمة السعيدة ، تقع حتما كارثة مباغتة ، او تنبجس ظروف طارئة ، لحد موت الابطال ، – من اجل «ابقاء الومضة» فى اسمى ذرى المشاعر . فتقضى بطلة قصة «هنريخ» صريعة برصاصة العشيق الغيور ، وهى المرأة الوحيدة التى احبها البطل «الشاعر» حبا حقيقيا . كما ان الظهور المباغت لام روسا المجنونة فى اثناء اللقاء الغرامى

مع الحبيب يفرق ما بين البطلين الى الابد . وحتى اذا ما سارت الامور جميعا على ما يرام لحد الصفحة الاخيرة فان بونين يعمد فى خاتمة القصة فى كل مرة فجأة وحتى فى آن واحد الى ابلاغ القارئ : «فى اليوم الثالث لعيد الفصح توفى فى عربة المترو ، – فبينما كان يطالع جريدة ألقى رأسه بغتة على ظهر المقعد ، وأرخى جفنيه . . .» («فى باريس») ، و«فى ديسمبر انتقلت روحها الى بارئها على ضفاف بحيرة جنيف ابان معاناة الام الوضع قبل الاوان» . («ناتالى») .

ان قوة تأثير اسلوب بونين لا تضارع حقا . فهو يجيد التحدث بغاية الصراحة وباسهاب عن ادق العلاقات الانسانية الخاصة ، – لكنه يبقى دائما عند ذلك الحد الرقيق للغاية ، العسير على الادراك ، حيث لا يهبط الفن الاصيل قيد انملة الى مستوى التلميح بالنزعة الطبيعية . بيد ان هذه «المعجزة» تتحقق بثمن الام الابداع العظيمة – بالمناسبة ، تلكم حال كل ماكتبه بونين . واليكم ، ضمنا ، مقتطفات تدل على ما كان يعانيه من لواعج النفس : «لم يصف أحد ذلك السحر ، وتلك الملاحة الخلابة ، وذلك الظرف المتميز فى كل ما هو دنيوى ، اى جسد المرأة . وليس جسدها فقط . تجب ، تجب محاولة ذلك . لقد حاولت – فحصلت على فحش وابتذال . لابد من ايجاد كلمات ما مختلفة اخرى» (٣ فبراير ١٩٤١) . وكان بونين يستطيع دوما العثور على هذه الكلمات

المختلفة – اللازمة والضرورية الوحيدة وجعلهـــا كالوحي . وفعلا ، فقبل بونين لم «يكتب اى احـــد ابدا» في الادب الروسى المعاصر له عن الحـــب والصبابة ، بالصورة التى افلح هو فيها . ان الجراة الحديثة ، أو كما كانوا يكتبون انذاك ، «المودرنزم» ، قد اقترنا بما تتسم به لغة بونين من صرامـــة وكلاسيكية ، لم ترضخ ولو مرة لموضة عابرة ، – لقد كان اقتران التجدد بالنزعة التقليدية اكتشافا ادبيا حقيقيا ، بدأ قبل هذا فى رواية «غرام ميتيا» وقصة «ضربة شمس» . ذلكم هو بمثابة تصريح عن «عقيدة» الكاتب الادبية . ولدى الحديث فى قصـــة «هنريخ» عن المشاعر التى تستثيرهـــا المراة فى الرجل بصفتهـــا حسب التعبير الوارد فى الكتاب المقدس «مصيدة الانسان» نجـــد بونين يعرب على لسان بطله – الشاعر عن فكرتـــــه نفسه ، فى الاخلاقيات والجماليات ، بصدد كيف تجب الكتابة عن الحب بقوله : «ان هذه المصيدة شيء لا يمكن تفسيره وادراكه حقا ، انها ربانية وشيطانية فى آن واحد ، وحين اكتب عن ذلك ، واحاول التعبير عنـــه ، يلومونني متهمين اياي بالفسق ، وبالدوافع الخسيسة . . . اية نفوس دنيئة ! جميل مـــا جاء فى احد الكتب القديمة : «يحق للمؤلف ان يكون جريئا فى تصويره للعشق والعشاق بالكلمات ، كما يحق هذا فى كافة الازمان للرسامين والنحاتين : ان النفوس الدنيئـة وحدها تجد الدناءة حتى فى الشيء الجميل او القبيح» .

حقا ان بونين يعمد ، مثل الرسام والنحات ، الى رسم ونحت الجمال المتجسد فى المراة ، بكل حسن وانسجام الاشكال والخطوط والالوان التى وهبتها الطبيعة اياها . فمثلا ، تنعدم الاحداث تمامـــا فى الاقصوصتين «كامارغ» و«مائة روبية» : فهما بمثابة صورتين لامراتين بكل جمالهما الاصيل والمتوحش – بصفتهما من ظواهر الطبيعة .

وعموما تضطلـــع النساء بالدور الرئيسى فى «الدروب الظيلة» . اما الرجال فهم فقط الخلفية التى تتراءى عليها شخصيات وافعال البطلات . ولا توجد شخصيات رجالية ، بل ثمة مشاعر ومعاناة فقط ، اكسبت حدة بالغة وامتناعا . ويجرى التركيز دائما على سعيه (هو) – اليها (هى) ، وسعيه الشديد الى بلوغ سر وسحر «الطبيعة» الانثوية الجذابة . ويورد بونين اقوال الكاتب الفرنسى غوستاف فلوبير التى بوسعه ان ينسبها لنفسه ايضا : «تبدو لي النساء كسر غامض . وكلما اوغل فى دراستهن يقل ادراكى لهن» .

ان كل واحدة من الشخصيات النسائية الكثيرة فى كتاب «الدروب الظليلة» – شخصية حيوية ، وذات خصال روسية غاية فى الاصالة . كما ان الاحداث تدور دوما تقريبا فى روسيا القديمة ، وان دارت خارجها ، كما فى قصتى «فى باريس» و«ثار» ، مثلا ، فان الوطن يبقى مع ذلك فى قلوب الابطال . واكد بونين «لقـــد حملنا معنـا روسيا ، وفطرتنـــا

الروسية ، واينمـــا حللنا لا نملـــك سوى ان نشعر بها» .

لقد كان العمل فى تاليف كتاب «الدروب الظليلة» ، الذى يمكن القول بانه كان عاشقا له ، بمثابة انقاذ له لحد ما من الاهوال المقترفة فى العالم (فيومياته مليئة بوصف اهوال الحرب العالمية الثانية) . علاوة على ذلك فان ابداعه كان تجسيدا **لمقاومة** الاديب الى هذا الكابوس وشاهدا على ارادته الابداعيـــة ، الخاضعة لسلطتـــه وحده ، ومعنى ذلك على جرأة الكاتب . وعموما فقد حافظ بونين على شجاعته . واعتمادا على ذكريات احد معاصريه فقد حدث مرة فى احدى مقاهى نيس (نادرا ما كان بونين يسافر اليها) ان رد على سؤال تافه لاحد معارفه عن صحته بالقول على رؤوس الملأ ، وبصوت عال ، انه لا يستطيع العيش حين يزمع «هذان الخادمان الحقيران (اى هتلر وموسولينى – ملاحظة ا . س .) حكـــم العالم» .

غالبا ما ترد فى يوميات الكاتب ملاحظات عن عمله فى تاليف الكتاب ، والذي كان يجرى احيانا «بنشوة» واستمرار . واليكم بعضها :

«اواصل الكتابة منذ شهر دون توقف ، واحيانا فى وقت متاخر من الليل وقبيل النوم» (٣٠ اكتوبر ١٩٤٠)» ، كما نقرأ فى يوميات العام نفسه :

«بدأت «روسا» (٢٠ سبتمبر) . . . «اكملت كتابة «روسا» (٢٧ سبتمبر) ، «كتبت «انتيجونـــا»

(٢ اكتوبر) ، «كتبـــت يوم امس واليوم «بطاقات زيارة» (٥ اكتوبر) ، «بدأت وانهيت . . . «زويكا وفاليريا» (١٠–١٣ اكتوبر) ، وكتبت وانهيت «تانيا» (من ١٤ الى ٢٢ اكتوبر) – وهكذا دواليك .

وثمة اشارة اخرى – عام ١٩٤١ – بشأن كتابة قصة «ناتالى» وهى مؤرخة فى ١٩ مارس :

«فى الامس . . . بدأت بكتابـــة «ناتـــالى ستانكيفيتش» ، وواصلت الكتابة بعد الغداء ايضا حتى الساعة الواحدة ليلا ، وكنت فى الوقت ذاته اشرب الكونياك ، ولم انل قسطا كافيا من النوم ، ولم اغادر البيت هذا اليوم (الان حوالى الساعـــة الخامسة تقريبا) ، كنت اكتب طوال الوقت» . ٢٤ مارس : «جلست خلال هذه الايام كلها دون ان اغادر مكتبى ، انشغلت بكتابـــة «ناتالى» . ٤ ابريل : «الجمعة . فى الساعة السادسة مساء انهيت كتابـــة «ناتالى» . واخيرا ، ١١ ابريل : «مرة اخرى (لربما نهائيا) اعدت قراءة (فى النهار) «ناتالى» ، اجريت بعض التعديلات ، غيرت نهاية الفصل الاخير» .

وفى نهاية المطاف نورد ملاحظة اخرى دونها ليلة ٨ على ٩ مايو ١٩٤٤ فى اثناء كتابـــة قصة «يوم السجدة» ، التى احبها بونين نفسه حبا جما :

«الواحدة ليلا . نهضت من المكتب – تبقـــى لى اكمال كتابة عدة صفحات من «يوم السجدة» . اطفات النور ، وفتحت النافذة لتهويـــة الغرفة – لم تهب نسمة هواء واحدة . البدر كامـــل ، الضباب الخفيف

يغلف السهل كله ، ويلوح فى الافق البعيد الوميض الوردى الرقيق للبحر ، سكون ، الطراوة الناعمة لخضرة الاشجار النضرة ، وفى مكان ما تغرد اولى العنادل . . . ألهى ، امنحنى القوة مـــن اجل اطالة حياتى المتوحدة البائسة فى هذا الجمال والعمل !» .

هكذا كان يجترح هذا الاديب الروسى ، فى اواخر ايامه ، مأثرته وحيدا . . . امـــا كتابه «الدروب الظليلة» فقد اضحى جزءا لا يتجزأ من الادب الروسى والعالمى ، يلون بشتى التلاوين «نشيد انشاد» القلب الانسانى ما دام البشر باقي احياء على وجه الارض .

انا ساكيانتس

الدروب الظليلة

فى جو خريفي ملبّد بارد ، وفـــى احدى الطرق الكبرى بمحافظة تولا ، التـــى غمرتها مياه الامطار وشقتها خطوط سوداء مـــن آثار العجلات الكثيرة ، اقتربت من بيت ريفى طويل تشغل قسما منه دائرة البريد الحكومية والقسم الآخر حجرة ضيافة يمكـن فيها نيل قسط من الراحة او المبيـــت ، وتناول الغداء او احتساء شاى السماور ، اقتربت بسرعـة عربة ملطخة بالاوساخ ، وغطاؤها نصـف مرفوع ، تجرها ثلاثة خيول غير أصيلة ربطـت ذيولها لاتقاء الاوحال . وجلس فى مقعد الحوذي رجل قوى البنية يرتدى معطفا ربّط عليـــه الحزام بشدة ، عبوس قاتم الوجه ، بلحية سوداء غير كثّة ، يشبه قطاع الطرق فى الايام الغابرة ، بينما جلس فى العربـة عسكرى عجوز منتصب القامـــة يرتدى قبعة كبيرة ومعطفا عسكريا رمادى اللون من طراز عهد القيصر نيقولاي بياقة عالية من فرو القندس ، وحاجباه ما برحا اسودين ، لكنه بشاربين ابيضين التحما مـع فودين مثلهما . وذقنه حليق وكل هيئته تنم عـــن شبه بالقيصر الكسندر الثانى ، وهى الموضة التى

شاعت فى اوساط العسكريين فى عهده . ونظراته كانت متسائلة ايضا وصارمة وفى الوقت ذاتـــه كليلة .

حين توقفت الخيول مد من العربة ساقا بجزمة عسكرية ملساء وهرول نحو سطحة البيت ماسكـا طرفى معطفه بيديه ذواتى القفازين المصنوعين من جلد الغزال .

وصرخ الحوذى بفظاظة من مقعده :

– يساراً ، يا صاحب السعادة .

اما هو فدلف الى المدخل ، مطاطئ الراس قليلا عند العتبة بسبـــب طول قامته ، ثم دخل حجرة الضيافة فى الجهة اليسرى .

كان الجو فى الحجرة دافئا وجافا ونظيفا : ثمة ايقونة مذهبة حديثة الصنع فـــى الركن الايسر ، وتحتها مائدة عليها غطاء نظيف من قماش كتانـــى خشن ، وحول المائدة مصطبـــات مغسولة نظيفة . وبدا موقد المطبخ ، الذى يشغل الركن الايمـــن البعيد ، ناصع البياض بطلائه الطباشيري . وفـى مكان اقرب من الباب ثمة ما يشبه التخت تغطيـه الحفة رمادية ، يستند ظهره عـــلى جانب الموقد . وفاحت من كوة الموقد الرائحـــة الحلوة لحساء الملفوف – حيث كان يغلى الملفوف ولحم البقـــر وورق الغار .

رمى الرجل القادم معطفـــه فوق المصطبة وبدا ممشوق القوام اكثر ببزته لوحدها وبالجزمتين ، ثم

نزع قفازيه والقبعة ومسد راسه تعبا بيد معروقة شاحبة اللون – كان شعره الأشيب المنسدل عـلى الفودين نحو طرفى عينيه مجعدا قليلا ، وبانت هنا وهناك على وجهـــه الطويل الوسيم ذى العينيـــن السوداوين آثار دقيقة للاصابة بالجدرى . ولم يكن هناك احد فى حجرة الضيافة ، فصاح بتقزز فاتحـا الباب المؤدى الى المدخل :

– هيه ، من هناك !

وعلى الفور دلفت الى حجرة الضيافة امرأة سوداء الشعر ، وسوداء الحاجبيـــن ايضا ، وجميلة ايضا بجمال لا يناسب عمرها ، تشبه غجرية كهلة ، وثمة زغب أسود على شفتها العليا وعلى امتـداد خديها ، وكانت خفيفة الحركة ، رغم انها بدينـــة ، بصدر ناهد يبرز تحت قميصها الأحمر ، وبطن مثلث كما لدى الاوزة يتدلى وراء تنورتها الصوفية السوداء .

فقالت :

– اهلا وسهلا ، يـــا صاحب السعادة . هل تتناولون الغداء ام تأمرون باعداد السماور ؟

ألقى الرجل القـــادم نظرة خاطفة الى كتفيهـا المدورتين وقدميها الخفيفتين ذواتى الخفين التتريين العتيقين ، وردّ بصورة مقتضبة وبلا اكتراث :

– السماور . هل انت ربة البيت ام خادمة ؟

– ربة البيت ، يا صاحب السعادة .

– اذن ، تتولين بنفسك تدبير شئون النزل .

– بالضبط . انا نفسى .

– ولماذا ؟ هل انت ارملة لكى تدبرين شئونه لوحدك ؟

– لست ارملة يا صاحب السعادة ، لكن ينبغى ان يكون لى مورد للرزق . كمـــا اننى احب ادارة الاعمال .

– طيب ، طيب . هذا حســـن . المكان عندك نظيف وأنيق .

كانت المرأة ترنو اليـــه طوال الوقت بنظرات ثاقبة مضيقة عينيها قليلا .

فردت قائلة :

– اننى احب النظافة . فقد شببت فى بيـــت للسادة ، وكان لا بـــد وان اتعلم آداب اللياقة والسلوك يا نيكولاى اليكسييفيتش .

استقام بسرعة ، وجحظـــت عيناه واصطبـــغ بالحمرة . وقال بعجلة :

– ناديجدا ! أنت ؟

فاجابت : – انا ، يا نيكولاى اليكسييفيتش .

وقال وهو يجلس على المصطبة محدقا فيهـــا بامعان :

– يا الهى ، يا الهى ! مـــا كان أحد ليتصور ! كم عدد السنين التى مضت دون ان نلتقى ؟ أظنها خمسا وثلاثين سنة ؟

– ثلاثين ، يا نيكولاى اليكسييفيتش . انا الآن فى الثامنة والأربعين وانتَ فى الستيـن او نحوه ، كما أظن ؟

– شىء من هذا . . . يا الهى ، يا للعجب !

– ما العجب ، يا سيدي ؟

– كل شىء ، كـــل شىء . . . كيف لا تفهمين ذلك !

وفارقه التعب وشرود الفكـــر ، وصار يذرع الحجرة بحزم ، متفرسا فى ارضيتها . ثم توقـــف واخذ يقول وقـــد توردت بشرته عبر الشعـــر الأشيب .

– اننى لا أعرف عنك شيئا منذ ذلـك الحين . وكيف جئتِ الى هنا ؟ ولِمَ لمْ تبقيْ هناك عنـــد السادة ؟

– لقد اعتقنى السادة بعدك بقليل .

– واين عشت فيما بعد ؟

– الحديث ذو شجون ، يا سيدى .

– تقولين انك ما تزوجت ؟

– لا ، لم اتزوج .

– لماذا ؟ وبما كنتِ عليه من جمال ؟

– لم أقدر على الزواج .

– ولماذا ؟ ما الذى تلمحين اليه ؟

– وهل هناك ما يتطلب الايضاح ؟ لا بد وانك تذكر كم احببتك ؟

فاحمرّ وجهـــه حتـــى تخضلـت عينـــاه بالدموع ، ثم أخذ يذرع الغرفـــة ، عابساً ، مرة أخرى .

وجمجم :

– كل شيء زائل ، يـــا صديقتى . الغرام ، الشباب – كل شيء ، كل شيء . انها قصة مبتذلة وعادية . وكـــل شيء يمضى مع السنين . ما هو المكتوب فى سفر أيوب ؟ «كيـــف تستعيد ذكرى المياه الجارية» .

– لكل انسان ما قدّر له اللـــه ، يا نيكولاى اليكسييفيتش . الشباب يمضى لدى الجميع ، امـــا الحب فأمره مختلف .

ورفع رأسه ، متوقفا ، وضحك ساخرا وبألم :

– لكنْ ما كـــان بوسعـــك ان تحبينى طوال الدهر !

– اذن ، كان بوسعى . ومهمـــا توالت الايام ، كان يملأ حياتى شيء واحد . كنت أعرف انك تبدلت منذ أمد بعيد ، وبالنسبة لك كمـــا لو لم يحدث شيء ، وها انت . . . لقد فات الأوان للوم والعتاب الآن ، لكنك ، وهذا حق ، هجرتنى بكل قسوة ، – وما أكثر المرات التى ازمعت فيها الانتحار بسبب القهر وحده ، ناهيك الحديث عن الأمور الأخرى . اذ جاء وقـــت كنت أدعـــوك فيه ، يـــا نيكولاى اليكسييفيتش ، باســـم نيكولينكا * ، وأنت – أتذكر كيف كنت تدعونى ؟ وكنت تتلو علىّ الأشعار عن «الدروب الظليلة» ، – أضافـــت هذه العبارة بابتسامة خبيثة .

* اسم التحبب لنيكولاى . **المعرب** .

فقال هازّا رأسه :

– آه ، لكم كنت حلوة آنذاك ! ويا لهيامـــك وعنفوانك ويالفتنتك ! اى قـــدّ ، واية لواحظ ! اتذكرين كيف كان يرمقك الجميع ؟

– أتذكر يا سيدى . وانـت كنتَ وسيماً جداً ايضا . وانا وهبتكَ انت كل جمالى وهيامى . كيف يمكن نسيان هذا كله .

– آه ! كل شيء يمضى . وكل شيء ينسى .

– كل شيء يمضى ، لكـــن لا ينسى كـــل شيء .

فقال شائحاً عنهـــا بوجهه ومقتربا مـــن النافذة :

– انصرفي . انصرفي أرجوك .

ثم أخرج منديله وضغط به على عينيه ، واردف مغمغما :

– لو يسامحنى الرب فقط . اما أنت فيبدو انك غفرت لى ذلك .

ودنت من الباب ثم توقفت :

– لا ، يـــا نيكولاى اليكسييفيتش ، لم أغفرْ لكَ . وما دام الحديـث قد مسّ مشاعرنا ، فاننى أقول بصراحة : ما كان بوسعى ان أغفر لك ذلك ابداً . وكما لم يكن لديّ ايامئذ أحد أعزّ فى الدنيـــا منك ، بقيت هكذا فيما بعد . ولهذا لا يجوز لى ان أصفح عنك . وما نفع الذكرى فالأموات لا ينبشون من القبور .

فاجاب مبتعدا عن النافذة وقد لاحت على وجهه الصرامة :

– نعم ، نعم ، لا فائدة ، اعطى الامر باعداد الخيول . بيد اننى اقول لك : لم اكن سعيدا فى حياتى ابدا ، ولا تتصوري ، رجاء . واعذرينى ان كنت اسيئ الى عزّة نفسك ، لكنى اقول بصراحة . لقد كلفت بزوجتى الى حد الجنون . الا انها خانتنى ، وهجرتنى مهاناً اكثر مما جلبت لك من اهانة . واحببتُ ابني لحد العبادة حتى شبّ ، وما اكثر ما علّقت عليه من آمال ! فاذا به سافل ومبذّر وصلف وبلا شرف وبلا ضمير . . . على اية حال ، انها ايضا قصة عادية جدا ومبتذلة . مع السلامة ، يا صديقتى الطيبة . اظن اننى فقدت فيك اعزّ شيء فى الحياة .

ودنت منه ولثمت يده ، بينما لثم هو يدها .

– اعطى الامر . . .

حين ابتعدت العربة عن المكان صار يفكر بتجهم : «نعم ، يا لجمالها آنذاك ! ويا لسحرها !» . واستعاد بشعور من الخزى عباراته الاخيرة وكيف لثم يدها ، وعلى الفور اصابه الخزى لخزيه . «وهل جافيت الحقيقة ، او لمْ تهبنى خيرة لحظات العمر ؟»

مالت الشمس الشاحبة الى المغيب . وكان الحوذى يستحث الخيول ، وما برح يغير الخطوط السوداء

لآثار العربات ، منتقياً الطريق الاقل قذارة ، وقد غاص أيضا فى افكاره .

– انها يا صاحب السعادة كانت تراقبنا طوال الوقت من النافذة عندما غادرنا . هل عرفتموها منذ زمن بعيد ؟

– نعم ، يا كليم .

– انها امرأة ذكية . ويقال انها تزداد ثراءا . وتقرض المال بالربا .

– هذا لا يعنى شيئا .

– كيف لا يعنى شيئا ! فمن لا يود العيش افضل ! لو حكّمنا الضمير ، فلا ضير فى هذا . ويقال انها منصفة من هذه الناحية . الا انها صارمة ! فلئن لا تستطيع الدفع فى الوقت المطلوب فانتَ المُلام .

– بلى ، بلى ، انتَ المُلام . . . اسرع ، رجاءً ، لكى لا نتأخر على القطار . . .

كانت الشمس الصفراء الجانحة للمغيب تنير فوق الحقول الجرداء ، والخيول تغوص متخبطة فى برك الاوحال . وتطلع الى الحدوات ذات الوميض ، ورفع حاجبيه السوداوين ، واستغرق فى التفكير :

«نعم ، انتَ المُلام . نعم ، طبعا ، خيرة اللحظات . وليست افضلها فقط ، بل انها كانت

ساحرة حقا ! «ازهار الورد البرى متفتحة حواليك ، وتمتد الدروب الظليلة لاشجار الزيزفون . . .» . لكن ، إلهى ، ما كان سيحدث لاحقا ؟ ماذا لو لـم اهجرها ؟ اية سخافة ! ان تصبـح ناديجدا هذه ، صاحبة النـزل ، زوجتى ، وربـة بيتى فـى بطرسبورج ، وأم ابنائى ؟» .

واغمض عنييه ، وهزّ رأسه .

٢٠ اكتوبر ١٩٣٨

القوقاز

بعد ان وصلت الى موسكو نزلـت كاللص في غرفة بأحد الفنادق الرخيصة في زقاق بالقرب من شارع اربات ، وعشت حيـاة ممضة ، معتكفاً في غرفتي لا أغادرها – من لقاء الى لقاء معها . وقـد زارتني خلال هذه الايام ثلاث مرات فحسب ، وفي كل مرة كانت تدخل في عجلة مرددة الكلمات التالية :

– جئت للحظة فقط . . .

كانت شاحبة الوجه ذلك الشحوب الرائع لامرأة عاشقة مترعة بالهواجس ، وصوتها متهدج ، وكانت الطريقة التي ترمي بها المظلة كيفما اتفق ، وعجلتها في رفع الحجاب الشفاف واحتضاني ، تهزّني حنانا وغبطة .

فتقول :

– اظنه يشتبه في أمر ما ، وحتى انه يعـرف شيئا ما ، – لربما قرأ احدى رسائلك ، وانتقـى مفتاحا لدرج مكتبي . . . أعتقد انه قادر على القيام باي شيء ، لما يتسم به من طبع قاس وانفـة . واتفق مرة ان قال بلهجة قاطعة : «أنا لا أتوانى عن اي فعلة دفاعا عن شرفي ، شرفى كزوج وضابط !» .

والآن غدا يراقب لسبب ما كل خطوة أخطـــوها ، وبغية ان تنجح خطتنا يتعين عليّ التزام غايـــة الحذر . لقد وافق على اخلاء سبيلي ، وأنا أوحيت له بأنني سأموت ان لم أسافر الى الجنوب والبحر ، لكن بحق الرب ، تجمّل بالصبر !

كانت خطتنا جسورة : ان نسافر في القطار ذاته الى ساحل القوقاز ، وقضاء فترة ثلاثة او اربعـــة اسابيع هناك ، في مكان ما متوحش تماما . وكنت أعرف هذا الساحل ، فقد عشت حقبة من الزمـــن بالقرب من سوتشي شابا وحيدا ، وبقيت في ذاكرتي على مدى الحياة تلك الامسيات الخريفيـــة وسط أشجار السرو السوداء ، بالقرب من الامواج الرمادية الباردة . . . وغلبها الشحوب حين قلت : «والآن سأكون معك هناك ، في الادغال الجبلية ، عند البحر الاستوائي» . ولم نكن نصدق فكرة تحقيق خطتنا حتى آخر لحظة – فقد بدا هذا لنا سعادة ما بعدها سعادة .

هطلت أمطار باردة في موسكو وبدا كما لو ان الصيف قد ولّى ولن يرجع ، وسادت الاوحـــال والعتمة ، وتألقتْ الشوارع بمظلات المارة المفتوحة المبللة والسوداء ، والسقائف المرفوعة لعربـــات الاجرة والتي تتأرجح في السير . كان المساء قاتما كريها حين توجهتُ الى محطة القطار ، وجمدتْ كـل أحشائي من القلق والبرد . جريت في المحطة وعلى

الرصيف جريا ، وأنزلت القبعة على عيني وأخفيت وجهي في ياقة معطفي .

في المقصورة الصغيرة لعربة الدرجة الاولى ، التي حجزتها مسبقـــا ، سمعت المطر ينهال صاخبـــا على السقف . فأنزلت على الفور ستارة النافـذة ، وحالما تناول الحمال البخشيش ماسحا يده المبللة بمريلته البيضاء وانصرف ، أغلقت الباب بالرتاج . ومن ثم أزحتُ الستارة قليلا وجمدتُ في مكاني دون ان أبعد بصري عن الحشد المتنوع من النـــاس ، المارقين جيئة وذهابا ، حاملين امتعتهم بمحـــاذاة العربة ، في النور الخابي لفوانيس المحطة . كنا قد اتفقنا بأن آتي الى المحطة في وقت مبكر قدر الامكان ، بينما تأتي هي في وقت لاحق قدر الامكان ، بغيـة الا التقي صدفة بها وبه على رصيف المحطة . وقد حان وقت مجيئهما . ونظرت بتوتر متزايد أكثـــر فأكثر اذ طال غيابهما . رنّ الجـــرس الثاني – فاقشعر بدني رعبا : لربما تأخرتْ او منعها هو من الخروج ، فجأة ، وفي اللحظة الاخيرة ! وفور ذلك ذهلت لدى رؤية قامته الطويلة وقبعته العسكرية ومعطفه الرسمي الضيق واليد في القفاز الجلـــدي الشامواه التي كان يتأبط بها يدها ، ماشياً بخطوات واسعة . ابتعدت عن النافذة بحدة ، وهويت في ركن من الاريكة . وكانت الى جانبي عربة الدرجة الثانية – وتصورت بخيالي كيف دخلها الضابط بأبهة سوية معها ، وتفحّص المكان – للتأكد من ان الحمـــال

رتّب متاعها بصورة جيدة – وكيف نزع القفاز ونزع القبعة ، متبادلا معها القبلات وراسما عليها علامة الصليب . . . جعلني رنين الجرس الثالث مصعوقا ، وأصابني تململ القطار بالذهول . . . ومضى القطار منطلقا بسرعة متزايدة مهتزّا ومتأرجحاً ، ثم مرق منسابا بكل سرعته . . . ودسست بيد باردة كالثلج ورقة من فئة عشرة روبلات الى الكمساري الذي اقتادها اليّ ونقل متاعها . . .

حين دَلَفتُ الى المقصورة حتى لم تقبّلني ، بل ابتسمت فقط بحنان وهي تجلس على الاريكة وتنزع وتخلص القبعة من الشعر العالق بها .

وقالت :

– لم أستطع البتة تناول الغداء . كان يدور في خلدي بأنني لن أتحمل هذا الدور الفظيع حتى النهاية . أحس بعطش شديد . هات مياه معدنية – قالت هذا مخاطبة اياي بصيغة المفرد لأول مرة – أنا على يقين من انه سيتبعني . لقد أعطيته عنوانين : جيلنجيك وجاجرا . وأنا واثقة من مجيئه الى جيلنجيك بعد ثلاثة او أربعة أيام . . . لكن الله معه ، الموت خير من هذا العذاب . . .

في الصباح حين خرجتُ الى الطرقة ، كانت مشمسة وخانقة وتفوح من المغاسل رائحة صابون وماء كولونيا وكل ما تتميز به من روائح عربة مزدحمة بالناس صباحا . وانداحت السهوب المنبسطة

المحروقة وراء النوافذ المغطاة بالغبار والساخنة ، وتراءت دروب متربة وعريضة وعربات تجرها ثيران ، ومضت اكشاك عمال السكك الحديدية التي تبدو في الحدائق الملحقة بها أقراص أزهار عباد الشمس الصفراء ، وأزهار الخبازى الحمراء . . . وبعدها امتدت رحاب السهول الجرداء التي لا نهاية لها ذات الكثبان والتلال ، والشمس الجافة المحرقة التي لا تطاق ، والسماء مثل سحابة غبار ، ومن ثم لاحت أشباح أولى الجبال في الأفق . . .

بعثتُ اليه ببطاقتيْ بريد من جيلنجيك وجاجرا ، وكتبت له انها لم تقرر بعد أين ستبقى .

ثم انحدرنا بمحاذاة الساحل نحو الجنوب .

وجدنا مكانا موحشا بدائيا ، تغطيه أحراج أشجار الدلب والادغال المزهرة ، وأشجار الماهوجيني والمانوليا والرمّان التي تنتصب وسطها أشجار النخيل المروحية وأشجار السرو المائلة للسواد . . .

كنت أستيقظ مبكرا ، وبينما تكون هي نائمة ، وحتى موعد شرب الشاي ، الذي كنا نتناوله في نحو السابعة ، أعمد الى التجوال في التلال الملتفعة بالغابات . وتغدو الشمس الساخنة وقتئذ محرقة وصافية وبهيجة . وفي الغابات يومض الضباب ذو الأريج الحلو بلون زمردي ويتبدد ثم يذوب ، ووراء

الذرى البعيدة الكثيفة الغابات يتألق البياض السرمدي للجبال الملتحفة بالثلوج . . . ولدى عودتي أمضي ماشيا عبر سوق قريتنا القائظة التي تغمرها رائحة دخان الروث المحترق المنبعثة من المداخن : كان البيع والشراء يجريان على قدم وساق ، والمكان مزدحما بالناس وبجياد الركوب وبالحمير – اذ يأتي الى هناك صباحا الكثير من أهل الجبال ، ابناء شتى القبائل . وتمشي بانسياب النساء الشركسيات بملابس سوداء طويلة تبلغ الأرض ، وباخفاف حمراء ، وبرؤوس ملتفعة بشيء أسود ، وبنظرات شاردة سريعة تومض أحيانا من وراء هذه اللفات الشبيهة بثياب .

ومن ثم كنا نذهب الى الساحل الخاوي دائما ، ونسبح ونستلقي تحت أشعة الشمس حتى موعد الفطور . وبعد الفطور – المؤلف دائما من السمك المشوي والنبيذ الأبيض والجوز والفواكه – كانت تتمدد خطوط أشعة الشمس الساخنة والجذلة في العتمة القائظة لكوخنا ، تحت السقف القرميدي .

حين تخف حدة القيظ ونفتح النافذة ، كان جزء البحر ، المتراءى بين أشجار السرو المنتصبة تحتنا على منحدر الجبل ، يتسم بلون أزهار البنفسج ، وينبسط هادئا ووادعا ، مما بدا لنا انه ليس ثمة نهاية أبدا لهذه الطمأنينة والجمال .

وعند الغسق غالبا ما كانت تتلبد وراء البحر سحائب عجيبة ، ولونها ملتهب بغاية الروعة ، مما

جعلها تستلقي أحيانا فوق الاريكة مغطية وجهها بمنديل شفاف وتنتحب : لن يمر أسبوعين أو ثلاثة أسابيع حتى يحل موعد الرجوع الى موسكو مرة اخرى !

كانت الليالي دافئة وداجية . وتسبح في فحمة الظلام وتومض وتضيء ذبابات اليراع بلون الياقوت الأصفر وتجلجل الضفادع التي تعيش على الأشجار برنين أجراس بلورية . وحين يعتاد البصر على العتمة تنبجس في الاعالي النجوم وقمم الجبال ، وتتراءى فوق القرية أشباح الأشجار التي لم نكن نلاحظها آناء النهار . وطوال الليل ترد من هناك ، من المقهى ، دقات طبل صماء وصوت عويل حاد شاك سعيد أقصى آيات السعادة ، كما لو ان صاحبه يردد الاغنية ذاتها الى الأبد .

وبالقرب منا وفي الوهدة المنحدرة من الغابة الى ساحل البحر كان يجري جدول رقراق ضحل بسرعة فوق الشرج الصخري . ما أروع ما كان يتراقص البدر المتأخر ويفور تألقه في تلك الساعة الساحرة حين يبصّ ، بنظرات متفحصة من وراء الجبال والغابات ، كما لو كان كائنا عجيبا !

في بعض الأحايين كانت تزحف سحائب رهيبة من وراء الجبال ، وتتقدم عاصفة غاضبة ، وفي الجهامة الشديدة الصاخبة للغابات تنكشف بين الفينة والفينة في ضوء الوميض الخاطف هاوية ساحرة خضراء لا قرار لها ، ويجلجل السحاب وتهدر الرعود

في اعالى السماء كشأنها منذ ما قبل عهد الطوفان . وساعتئذ تستيقظ وتوصوص فراخ النسور في أعشاشها ، ويخرخر نمر أرقط ، وترغو الضبع . . .

ومرة جاء قطيع كامل منها الى نافذتنا المضاءة ، وهي تأتي دائما الى المساكن فى مثل هذه الليالي ، ففتحنا النافذة وتطلعنا اليها من الأعلى ، بينما كانت تقف تحت سيل المطر المنهمر ، وترغو متوسلة لادخالها الى البيت . . . اما «هي» فكانت تبكي بفرح لدى التطلع اليها .

طفق يبحث عنها في جيلنجيك وجاجرا وسوتشي . فى اليوم التالي لوصوله الى سوتشي نزل للسباحة في البحر ، ثم حلق ذقنه ، وارتدى ملابس داخلية نظيفة ، وسترة عسكرية ناصعة البياض وتناول فطوره في فندقه على سطحة المطعم ، وشرب قنينة شمبانيا ، واحتسى القهوة مع نبيذ شارتريز ، ودخن سيجارا على مهل . ولدى عودته الى غرفته استلقى على الاريكة واطلق على صدغيه النار من مسدسين .

١٢ نوفمبر ١٩٣٧

قصة شعرية

كان البيت الخشبي يُدفأ دوما غداة الاعياد الشتوية الكبرى فيغدو كالحمام ، ويتخذ صورة غريبة اذ كان يأتلف من غرف فسيحة واطئة السقوف وابوابها كلها مفتوحة على مصراعيها ، — من غرفة المدخل الى غرفة الجلوس الكائنة في أقصى طرف البيت ، — وتومض الشموع والفوانيس امام الايقونات في الاركان المزينة من الغرف .

وعشية هذه الاعياد تغسل فى كافة ارجاء البيت الارضية الملساء المصنوعة من خشب البلوط ، التي سرعان ما تجفّ بفعل التدفئة ، ثم تفرش عليها الابسطة النظيفة ، وترتب خير ترتيب قطع الاثاث التي ازيحت من مكانها أبان التنظيف ، بينما تضاء الفوانيس والشموع في الاركان امام الايقونات ذات الاطر المذهبة والمفضضة ، وتُطفأ جميع الانوار الاخرى . وساعتئذ تبدو وراء النوافذ الزرقة الدهماء لليالي الشتاء ، وينصرف الجميع الى غرف نومهم . وآنذاك يسود البيت صمت مطبق ، وترين سكينة وقورة كما لو انها تنتظر شيئا ما ، الامر الذي يتوافق كل التوافق مع مسحة القدسية للايقونات في الليل ، والتي يضيئها نور ينم عن الكآبة والنشوة الالهية .

في الشتاء كانت الناسكة الجوّالة ماشينكا تاتي في بعض الاحايين لتحل ضيفة على العزبة . كانت بيضاء الشعر وعجفاء وجذوة من نشاط كصبية . وفي تلك الليالي كانت الوحيدة ، من اهل البيت كله ، التي لا تخلد الى النوم : فتدلف بعد العشاء الى غرفة المدخل آتية من غرفة الخدم ، وتنزع حذاءى اللباد من قدميها الصغيرتين المتلفعتين بأجربة صوفية ، وتمضي دون ان يسمع لها صوت فوق الابسطة الناعمة في ارجاء كافة تلك الغرف الدافئة ، ذات الانارة السحرية ، وتركع في كل مكان وترسم على صدرها علامة الصليب ، وتنحني ساجدة امام الايقونات ، ثم تقفل راجعة الى غرفة المدخل ، وتجلس على صندوق أسود ، يقوم فيه منذ الازل وتردد الصلوات والمزامير بصوت خافت او تتحدث مع نفسها فحسب . وهكذا حدث ان عرفتُ مرّة بأمر «ذاك الوحش الرباني ، ذئب الخالق» ، وعرفت بأمره حين كانت ماشينكا تصلي اليه .

أصابني الأرق وجافاني الوسن فدلفت في الهزيع الاخير من الليل الى الصالة لكي أمرّ عبرها الى غرفة الجلوس لأجد هناك ما اقراه في خزانات الكتب . ولم تسمعني ماشينكا . كانت تردد قولا ما ، جالسة في المدخل المظلم . فتوقفتُ واصختُ السمع . كانت تتلو المزامير عن ظهر قلب .

وسمعتها تقول بلا اي تعبير :

— اسمع ، يا رب ، صلواتي ، واستجب لدعائي .

واصغ الى ابتهالاتي ودموعي ، انا الناسك الجوّال في ملكوتك والطارئُ الدخيل على الدنيا الفانية ، شأني شأن آبائي جميعا . . .

— قل للرب : لكم انت رهيب في افعالك !

— يا من تعيش تحت رحمة رب العالمين ، وتتظلل بفيء القادر على كل شيء قدير . . . لتسحق الثعبان والبعلزبول ، ولتقهر السبع والتنين . . .

وتفوهت العبارات الاخيرة بصوت هادئٍ لكن اشد وبثبات ، وتلفظتها بقناعة : لتقهر السبع والتنين . ثم التزمت الصمت ، وتنهدت ببطء ، وقالت كما لو كانت تخاطب احدا ما :

— هو ملك وحوش الغاب والحيوان في كل الاصقاع والانحاء قاطبة . . .

ونوت الى غرفة المدخل : كانت جالسة على الصندوق وقد تدلت باستقامة قدماها الصغيرتان في الاجربة الصوفية ، ويداها متصالبتان على صدرها . وعيناها تتطلعان الى الامام دون ان تراني . ثم رفعت بصرها نحو السماء ، ورددت بكلمات دقيقة واضحة :

— ايها الوحش الرباني ، ذئب الخالق ، ابتهل من اجلنا الى العذراء .

دنوت منها وقلت بصوت خافت :

— ماشينكا ، لا تخافي ، هذا أنا .

فأسقطتْ يديها ، ووقفتْ ، وانحنتْ بشدة :

— سلاما ، يا سيدي . لا ، انا لستُ خائفة . وما

الذي اخافه الآن ؟ في ايام شبابي كنتُ حمقاء اخاف كل شيء . وكان ابليس يفزعني بعينيه الفاحمتين . وقلت :

– اجلسي ، رجاء .

فردّت :

– لا ، ابداً ، ساظل واقفة .

ووضعتُ راحة يدي على كتفها البارزة العظام ذات عظم الترقوة الكبير ، واجبرتها على الجلوس واخذتُ مكاني الى جانبها .

– اجلسي ، والا فسانصرف . خبريني ، لِمَنْ كنتِ تصلين . وهـــل يوجدُ قديسٌ باسم «ذئب الخالق» ؟

ارادتْ النهوض مرة اخرى . فاجلستها مجددا . .

– آه ، ويحك . وانت تقولين انـــك لا تخافين شيئا . انا اسالك هل يوجد حقا مثل هذا القديس ؟

فاستغرقتْ في التأمل ، ثم ردّتْ بجدّ :

– طبعا ، هو موجود ، يا سيدي . ان يوجد وحش «دجلة والفرات» مثلا . وما دامت صورته منقوشة في الكنيسة فمعنى ذلك انه موجود . وانا رأيتهـــا نفسي .

– كيف رأيتها ؟ اين ؟ ومتى ؟

– منذ أمد بعيد يا سيدي ، منذ غابر الزمن . اما اين فليس بوسعي ان اقول : واذكرُ أمراً واحداً – فقد امضينا في السفر ثلاثة ايام بلياليها . وثمة قرية اسمها «كروتيه غوري» . انا نفسي لستُ من هذه

الانحاء بل من ريازان ، لعلك سمعت عنها ، – وتلك الاصقاع انأى باتجاه الجنوب ، ما وراء نهر الدون . والمنطقة هناك قفراء ومـــا عساي أجد الكلمات لوصفها . وتقوم هناك قرية نائية لم يكن يرتادها امراؤنا ، بينما احبها جدهم – وكانت كبيرة ربما تضم الف كوخ طيني تقـــوم فوق الروابي والمنحدرات الجرداء العارية . وكان يقوم فوق اعلاهـــا ، وعلى ذروتها المطلة على نهر كامينايا بيت من ثلاثـــة طوابق ، اجرد ايضا كله ، هو بيت السادة ، وكنيسة صفراء ، ذات اعمدة ، ويوجد في تلك الكنيسة ذاك الذئب الرباني : ففي وسط الكنيسة ثمة شاهد من الحديد يعلو قبر الامير الذي صرعه الذئب ، بينما تبدو على العقد الايمن صورته هو – ذاك الذئب ، بكل قيافته وهيئته : وتراه جاثما بفروته الغبراء وذيله الكثّ وشامخا بجسده كله ، ومرتكزاً بقائمتيه الاماميتين على الارض – وعيناه تحدقان متفرستين بامعان : وتبدو رقبته بيضاء شيباء ، كثة الشعر ، غليظه ، ورأسه كبير بأذنين منتصبتين ، وبانياب مكشرة ، وعينين تشعان نورا ساطعـــا ، وتحيط برأسه هالة ذهبية كالتي تحيط برؤوس القديسين والاحبار . ويصيبني الرعب حتى لدى تذكر مثل هذا المشهد العجيب ! كان يجثم ويتفرّس مثل ذئب حيّ يوشك ان ينقضّ عليك بعد لحظة .

وقلت لها :

– على رسلك ، يا ماشينكا ، انا لا افقه شيئا :

لاي غرض ومَنْ الذي رسم صورة هذا الذئب المخيف في الكنيسة ؟ انت تقولين انه فتنك بالامير : فلِمَ اذن هو قديس ولِمَ صُوِّر فوق قبر الامير ؟ وكيف القت بِكِ المقادير الى هذه القرية الفظيعة ؟ حدثيني عن كل شيء باسهاب وبالتفصيل .

فشرعت ماشينكا تروي قائلة :

– اتفق ان ذهبت الى هناك يا سيدي لأنني كنت آنذاك فتاة من الاقنان اؤدي الخدمة في بيت أمرائنا . كنتُ يتيمة ، ويقال ان والدى عابر سبيل ما ، – واغلب الظن انه أحد الهاربين من وجه العدالة ، أغوى امي فاثمت معه ، ثم اختفى هاربا الى حيث لا يعلم سوى الله ، اما امي فقد ذهبت الى بارئها بعد ولادتي بفترة قصيرة . واشفق عليَّ أسيادي ، وآووني في بيتهم بعد ان كنت اعيش مع الخدم حالما بلغت سن الثالثة عشرة ، وكلفت بخدمة السيدة الشابة ، ولأمر ما احبتني كثيرا ولم تدعني اغيبُ عنها لحظة واحدة . وكان ان اصطحبتني في الرحلة حين اراد الامير الشاب التوجه معها لرؤية العزبة التي خلفها الجد ، في تلك القرية النائية «كروتيه غوري» . وكانت الضيعة مهملة وخاوية منذ امد بعيد ، – اذ بقي البيت مغلقا ومهجورا منذ وفاة الجد ، ولذلك اراد السادة الشباب رؤيتها . وعلمنا بأمر الميتة البشعة للجد من روايات الناس . . .

طقطقَ شيء ما في الصالة ثم هوى على الارض ، وسُمعَ صوت ارتطام خفيف . فانزلت ماشينكا

ساقيها من الصندوق وهرولت الى الصالة . وفاحت من هناك رائحة احتراق شمعة سقطت . وعمدتْ الى برم الفتيل الذي ما انفك الدخان يتصاعد منه ، وداست على وبر البساط المحترق ، واعتلت كرسيا واضاءت الشمعة مجددا من لهيب الشموع المضاءة الاخرى المنتصبة في التجاويف الفضية في اسفل الايقونة ، وثبتتها في التجويف الذي سقطت منه : بان قلبتها وطرفها المشتعل نحو الاسفل وقطرَت في التجويف شيئا من الشمع الذائب وكأنه العسل الساخن ، ومن ثم ثبتتها في التجويف ، وشرعت بازالة نهايات الفتائل المحترقة الاخرى بحركات خفيفة من اصابعها الرفيعة ، ونزلت قافزة الى الارض مرة ثانية .

قالت ، وهي ترسم علامة الصليب ، ومتطلعة الى البريق الذهبي الساطع لانوار الشموع :

– انظر كيف صارت تتالق متراقصة بابتهاج ! واي عبير كنسي يفوح منها !

وغمرت المكان رائحة دخان حلو ، واخذت الانوار ترتعش ، وتطلعت صورة الايقونة من ورائها بوقار القرون العتيدة عبر الدائرة الخاوية للاطار الفضي . وبدا ليل ساج في زجاج النوافذ العلوى النظيف ، الذي تجمّد فيه بكثافة من الاسفل وغطاه الندى الرمادي ، بينما تراءى قريبا بياض اذرع الاغصان في الحديقة الكائنة امام البيت ، والتي تنوء بثقل طبقات الثلج . وتطلعت ماشينكا اليها ايضا ،

ورسمت علامة الصليب مرة أخرى ثم ولجت غرفة المدخل مجددا .

– حان الوقت لكي ترقد يا سيدي .

قالت ذلك وهي تجلس على الصندوق وتغالب التثاؤب ، واضعة يدها العجفاء على فمها ، واضافت تقول :

– لقد غدا الليل مرعبا .

– لِمَ ، مرعب ؟

– لانه مستور الجناب ، وحينئذ يمكن الا ينام فقط «اليكتور» * اي الديك بلغتنا ، وكذلك غراب الليل ، البوم . وفي هذه الساعة يصغي الرب نفسه الى الارض ، وتأخذ اكبر النجوم بالوميض ، وتتجمد الثغرات المائية في البحار والانهار المتجمدة .

– وانتِ لِمَ لا تنامين في الليالي ؟

– أنا ، يا سيدي ، انام قدر حاجتي . وهل يحتاج الانسان العجوز الى النوم كثيرا ؟ هو يحتاج بقدر ما يحتاجه الطير فوق الغصن .

– لترقدي اذن . لكن حدّثيني عن ذلك الذئب .

– انها قضية غامضة ، قديمة ، – ولربما قصة شعرية .

– ماذا قلتِ ؟

– قصة شعرية يا سيدي . هذا ما كان يقوله جميع الاسياد عندنا ، ويحبون مطالعة هذه القصائد

* باليونانية . المعرب .

الشعرية . ولدى سماعها احيانا – كنت احس بالقشعريرة تدبّ في رأسي :

الغابة الجهمة تعوي خلف الروابي ،
وعاصفة القرّ في الفيافي البيضاء دائمة الهبوب ،
وتعالت الريح تحمل الثلج في هرج ووثوب ،
فضاعت امامي الآثار والدروب . .

الهي ، ما أجمل هذا الكلام !

– وبم يكمن جماله ، ماشينكا ؟

– ان جماله يكمن في عدم معرفة مغزاه . شيء فظيع !

– في الايام الخوالي ، ماشينكا ، كان كل شيء تقشعر له الابدان .

– هل تعتقد ذلك ؟ لربما ، حقا ما تقول ، وكان كل شيء رهيبا ، بيد ان الامور كلها تبدو الآن ظريفة . فمتى جرى ذلك ؟ منذ امد بعيد جدا ، – زالت الممالك والدول ، وتناثرت اشجار البلوط لقدمها ، وسويت القبور كلها مع الارض . وكذلك شأن هذه الحكاية – فقد رواها الخدم كلمة بكلمة ، ولكن هل كانت حقيقة ؟ يقال ان الاحداث وقعت في عهد القيصرة الكبرى * وزعم ان الامير اعتكف في «كروتيه غوري» لانها غضبت عليه لأمر ما ، ونفته

* لربما يقصد بها الكاتب القيصرة يكاترينا الثانية . المعرب .

بعيدا عنها ، فصار قاسيا جداً – وتجلى ذلك بأكبر قدر فى معاقبته لاقنانه وفي فسقه وفجوره . وكان ما يزال رجلا فحلا ووسيما جدا من حيث المظهر ، ويزعم انه لم تفلت اية فتاة سواء في عزبته ام في قراه من مطالبته بقضاء ليلة زواجها الاولى في مخدعه بقصره . ومن ثم اقترف افظع الآثام : اذ راودته نفسه في امتلاك حتى عروس ابنه نفسه . وكان هذا يخدم في جيش القيصر في بطرسبورج ، ووجد لنفسه عروسا وحصل على موافقة ابيه للزواج ، ثم تزوج ، وقدم الى «كروتيه غوري» هذه مع عروسه لكي يباركه الأب . لكن الأب افتتن بها . ليس عبثا ، يا سيدي ، ان ينشد في الاغاني عن الحب :

نشوة الحب طاغية باقية بقاء الدهر ،
وكل ما في الدنيا لديه عن الحب خبر .

وما عساه يكون من إثم ان يفكر الرجل وليكن شيخا بمحبوبته ، ويشتاق اليها ؟ بيد ان المسألة تختلف هنا تماما ، اذ كانت العروس بمثابة ابنته ، بينما عقد نواياه الجشعة للتطاول على شرفها وممارسة الفسق .

– وماذا بعد ؟

– ما جرى بعد هذا ، يا سيدي ، ان الامير الشاب قرر الهرب سرا ، حين ادرك مقصد ابيه . وتآمر مع السائسين ، ومنحهم شتى الهبات ، وامر ان تهيئ في منتصف الليل عربة ترويكا ذات جياد

سريعة ، وخرج من بيت اسلافه متسللا حالما اخلد الامير العجوز الى النوم ، فاقتاد زوجته الشابة – ثم ولىّ هاربا . لكن الامير العجوز ما كان حتى ليفكر في النوم : اذ عرف كل شيء منذ المساء عن طريق مخبريه وانطلق على الفور لمطاردتهما . كان الوقت ليلا ، والزمهرير شديدا ، وثمة هالات تطوق البدر ، والثلوج في السهب تعلو قامة الانسان ، اما هو فلم يلق بالا لهذا كله : فانطلق على صهوة جواده ، متمنطقا بالسيوف والغدارات ، والى جانبه ياوره الاثير ، ولاحت أمامه عربة الترويكا التي يستقلها ابنه امامه . وصاح كالنسر : قف . . . والا سأطلق النار ! لكن صراخه لم يسمع ، وطفق يلهب جياد العربة بالسوط لتنطلق بأقصى سرعتها . واخذ الامير العجوز وهو على صهوة جواده يطلق النار على الجياد وصرع بادئ ذي بدء الجواد الايمن ، ومن ثم الآخر ، الايسر ، وحين اراد ان يجندل الحصان الاوسط التفت جانبا ورأى ذئباً ينطلق نحوه فوق الثلج ، تحت نور القمر ، وكان ضخما لم ير له مثيلا ، وعيناه حمراوان كالجمر وتحيط برأسه هالة ! وشرع الامير يطلق عليه النار ايضا ، لكن الذئب حتى لم يرف له جفن . وانقضّ على الامير كالاعصار ووثب على صدره – وفي لحظة خاطفة مزق بلعومه بأنيابه .

قلت :

– آه ، يا لها من قصة مثيرة . . قصة شعرية حقا .

فردّت :

– لا تضحك ، يا سيدي ، هذا إثم . ان شئون الرب لا تُعد ولا تُحصى .

– لا جدال في ذلك ، يا ماشينكا . لكن مع هذا فمن الغريب ان ترسم صورة هذا الذئب عند قبر الامير الذي قتله بنفسه .

– لقد رسمت صورته ، يا سيدي ، تلبية لرغبة الامير نفسه : اذ نقل الى بيته قبل ان يفارق الحياة ، واسعده الحظ ليعترف الى الكاهن وطلب المغفرة ، وفي النزع الاخير امر برسم صورة الذئب في الكنيسة فوق قبره من اجل ان يكون ذلك عبرة لجميع افراد سلالته من الامراء . فمن كان ليتجرا ايامذاك على عصيان امره ؟ كما ان الكنيسة كانت ملحقة بمنزله ، واقامها نفسه .

٣ فبراير ١٩٣٨

ستيوبا •

قبيل الغسق وبينما كان التاجر الشاب كراسيلشيكوف فى طريقه الى تشيرن فاجأه وابل من المطر مصحوبا بعاصفة رعدية .

كان يرتدى معطفا قصيرا من الجوخ ، وقد رفع ياقته وأمال قبعته على جبهته بشدة ، والسيول تنساب منها ، وينطلق بسرعة فى عربة خفيفة ، جالساً بالقرب من ترسها مباشرة ، دافعا ساقيه بقوة فى جزمتيه العاليتين على المحور الامامى للعربة ، شادا بيديه المبللتين الباردتين عنانين جلديين لزقين ، ومستحثاً الحصان الركوض اصلا . والى يساره ، وبجانب العجلة الامامية الدائرة فى نافورة حقيقية من الاوحال القذرة ، كان يعدو باستقامة كلب صيد بنى ، مدليا لسانه بطوله .

فى بادئ الامر انطلق فوق التربة السوداء المحاذية للطريق العام ، ومن ثم وعندما تحولت هذه الى سيل رمادى كثيف تغطيه الفقاعات عرج على الطريق وصار يقرقع على الحصباء الدقيقة فيه . ومنذ أمد بعيد ما كان يرى وراء هذا الطوفان الذى

• اسم التصغير للاسم ستيبانيدا . **المعرب** .

تفوح منه رائحة نضارة القثاء والفوسفور لا أطراف الحقول ولا السماء ، بينما يومض امام ناظريه بين الفينة والفينة برق حاد متفرع يعشى الابصار بضوئه الأحمر الساطع ، وكانه النذير بيوم الحشر ، ملتويا من الاعلى الى الاسفل على خلفية سور السحب العظيم ، اما ذيل البرق فينطلق فوق رأسه بفرقعة مزمزمـا قريبا من الارض ، ثم تقطعه ضربات غير عادية فـى شدتها . وكان الحصان يختلج فى كل مرة مندفعا الى الامام اثر هذه الفرقعات ، ضامًا اذنيه ، بينما يعدو الكلـب حينئذ قافـزا . . . لقد شـب كراسيلشيكوف وتعلم بموسكو ، وانهى الجامعـة هناك ، الا انه حين جاء صيفا الى ضيعته فى ضواحى تولا ، الشبيهة ببيت ريفى غنى ، راق لـه الشعور بأن يكون مالكا عقاريا وتاجرا ، ينحدر من أصـل فلاحى ؛ وكان يشرب نبيذ اللافيت ويدخن من علبة سجاير ذهبية ، ويلبـس جزمتين مدهونتيـن بالقطران ، وقميصـا روسيا وصدارا ، ويعتـز بهيئته الروسيـة الممشوقة ، وحتى الآن ، وسط وابل المطر وهزيم الرعد ، حيـن تحسس الماء البارد الذى يسيل من طرف قبعته ومن انفه ، غمره شعور اللذة المترعة بالنشاط لحياة الريف . وفى هذا الصيف كان غالبا ما يستعيد فى ذاكرته احداث صيف العام المنصرم ، حين كابد الامرين لعلاقتـه بممثلة معروفة فى موسكو حتى حل شهـر يوليو ، ولحين سفرها الى كيسلوفودسك : التبطل والقيظ

والرائحة الكريهة الساخنة والدخان الاخضر المتصاعد من الاسفلت الفائر داخل الدنان الحديدية فـى الشوارع المحفـورة ومآدب الافطار فى قبـو ترويتسكى مع ممثـلى مسرح مالي • ، الذين كانوا ايضا يشدون الرحال الى القوقاز ، ومن ثم الجلوس فى مقهى ترامبليه ، وفى المساء الانتظار الممض فى شقته مع الآثاث المغلف بأغطية تقيه من الغبار ، ومع الثريات واللوحات المزينـة اطرها بقماش التل ، ومع رائحة النفثالين . . ان امسيات موسكو الصيفية لا نهاية لها ، ولا يدلهم الظلام الا فـى الحادية عشرة ، وعليك ان تنتظر وتنتظر – بينما هى غائبة . وفى نهاية المطاف يـدق الجرس – فتبدو بكامل اناقتها الصيفية ، وبصوتها المتهدج : «ارجو المعذرة ، لقد رقـدت اليوم كله بلا حراك لصداع فى رأسى ، ان وردتك الرقيقة قد ذبلـت تماما ، وكنت فى عجلة من امرى فأخذت عربـة سريعة ، انا جائعة للغاية . . .»

حين بدأ وابل المطر والهمهمة المجلجلة للرعـد بالخمود والانكفاء ، وأخـذ الصحو يغمر المكان ، ظهر امامه ، الى يسار الطريق ، النزل الصغيـر المالوف الذى يديره الشيخ – الارمل ، البرجوازى الصغير بروتين . كانت امامه مسافة عشرين فرسخا اخرى لبلوغ المدينـة ، – وجال فى خاطـر كراسيلشيكوف ان من الضرورى التوقف ، فالحصان

• احد مسارح موسكو العريقة . **المعرب** .

يغطيه الزبد ، ومن يدرى ما يمكن ان يحدث مرة اخرى ، بعد ان اشتدت العتمة فى ذلك الجانب ، والبرق ما برح يومض . . . وعندما بلغ المنعطف المؤدى الى النزل مضى خببا وتوقف بحدة امام الشرفة الخشبية .

صاح بصوت عال :

– ايها الجد ، استقبل الضيف !

بيد ان نوافذ البيت المبنى من جذوع الاشجار ذى السقف الحديدى الصدىء كانت مظلمة ، ولم يرد احد على الصيحة . وشد كراسيلشيكوف العنانين على الترس ، واعتلى الشرفة فى اعقاب الكلب القذر والمبلل ، – بدا مظهره كالمسعور ، وعيناه تلمعان متألقتين وبنظرات لا معنى لها ، – ازاح القبعة عن جبهته المعروقة ، ونزع المعطف الذى صار ثقيلا بسبب البلل ، والقاه على حاجز الشرفة ، وبعد ان بقي بالصدار وحده والحزام الجلدى المزين بالزخارف الفضية ، مسح وجهه المرقش برذاذ الوحل وصار يزيل بمقبض الكرباج الاوساخ عن ساقى جزمتيه . كان باب غرفة المدخل مفتوحا ، لكن راوده احساس بأن البيت خاوٍ . وفكر فى دخيلة نفسه لا بد وانهم يسوقون الماشية الى الحظيرة ، وبعد ان عدل قامته تطلع الى الحقول : ربما بوسعه مواصلة السفر ؟ كان هواء ذاك المساء ساكنا ورطبا ، وتتردد قطقطة السمانى النشيطة من كافة أنحاء حقول الحبوب التى اثقلتها الرطوبة ،

وكف المطر ، لكن زحف الليل ، واكفهرت السماء والارض بعبوس ، ووراء الطريق العام ، وخلف حاجز الغابة القاتم الواطئ ، بدت السحب اكثر تلبداً واكفهراراً ، وتوهجت شعلة حمراء واسعة ومنذرة بالشئوم – خطا كراسيلشيكوف الى غرفة المدخل وتلمس فى العتمة باب غرفة الاستقبال . بيد انها كانت مظلمة وساكنة ، سوى ان ساعة رخيصة كانت تتكتك على الجدار . صفق الباب ، واستدار الى اليسار ، وتلمس طريقه وفتح بابا آخر يقود الى داخل البيت : مرة أخرى لم يجد أحدا غير الذباب الذى كان يطن ناعساً ومتبرما فى العتمة الساخنة على السقف .

وقال بصوت عال :

– هل نفقوا جميعا ؟

وعلى الفور سمع الصوت الحثيث والعذب وشبه الطفولى لابنة صاحب النزل ستيوبا التى انزلقت هابطة من المصطبة الخشبية وسط الظلام :

– أهذا أنت فاسيلى اليكسيفيتش ؟ انا هنا لوحدى ، فقد تشاجرت الطباخة مع أبى وغادرت البيت ، اما أبى فقد ذهب مع العامل الى المدينة لبعض شئونه ، ومن المستبعد ان يعودا اليوم . . . لقد مت رعبا من العاصفة الرعدية ، واذا بى أسمع أحدهم يقترب بعربته ، فازداد رعبى أكثر . . مرحباً ، اعذرنى ، تفضل . . .

شخط كراسيلشيكوف عـــود ثقاب ، فاضاء لاحظتيها السوداوين ووجهها الأسمر :

– مرحبا ، يا بنية . أنا ذاهب الى المدينـــة أيضا ، لكنك ترين الاحوال ، فعرجت لأتريث حتى ينتهى المطر . . اذن أنتِ تصورت أن قطاع طرق قد جاءوا ؟

اوشك عود الثقاب ان ينطفئ ، لكن ما زال يرى المحيا الذى ارتسمت عليه ابتسامة مرتبكة ، والعقد المرجانى على جيدها ، والنهدان الصغيران تحـــت الفستان الشيت الأصفر . . . كانت أصغر منه قامة بنحو مرتين وبدت كصبية صغيرة تماما .

وعاجلت بالقول ، وقـــد غمرها الارتباك اكثر بسبب نظرات كراسيلشيكوف النفاذة :

– سأشعل المصباح الآن .

ثم اندفعت نحو المصباح المعلق فوق الطاولة .

– ان الرب نفسه قد أرسلك ، فمـاذا بوسعى العمل وانا وحيدة هنا . .

قالت ذلك بعذوبة ، وقد انتصبت على اصابـــع قدميها واستخرجت الزجاجـــة بحركات خرقاء من الشبكة المسننة للمصباح ، ومن حلقته المصنوعة من الصفيح .

أشعل كراسيلشيكوف عود ثقاب آخر ، محدقـا فى جسدها المنتصب والملتوى .

وبغتة قال بعد أن رمى عود الثقاب واحتضنها من خصرها :

– مهلا ، لا حاجـــة . رويدك ، التفتي نحوى للحظة . . .

نظرت اليه عبر كتفها فزعة ، وارخت ذراعيهـا والتفتت نحوه . وسحبها اليه ، فلم تمانع بل القت برأسها الى الوراء فى فزع وذهول . ورنا من الاعلى بنظرات مباشرة ثابتة الى لاحظتيها عبر الظلمـــة وانفجر ضاحكا :

– هل ارتعبت أكثر ؟

فجمجمت متوسلة اليه :

– فاسيلى أليكسييتش . . .

وحاولت ان تتخلص من ذراعيه .

– صبرك . هل أنا لا أعجبك ؟ فانا أعرف انك سعيدة دائماً بمقدمى .

فقالت بصوت خافت وبحمية :

– ليس هناك من هو أفضل منك فى الدنيا . .

– ها أنت تعترفين . . .

وطبع قبلة طويلة على شفتيها وامتدت يـداه الى الاسفل .

– فاسيلي أليكسييتش . . . بحق المسيح . . انت نسيـــت حصانك ، لقد بقي هنـــاك عند الشرفة . . . وسياتى أبـــى . . . آه ، كف عـــن هذا !

بعد نصف ساعة غادر البيت ، وقاد الحصان الى الفناء ، واوقفه تحت السقيفة ، ونزع عنه اللجام ، واعطاه الحشيش المحصود المبلل من عربة تقـــف

بوسط الفناء ، وعاد متفرسا في النجوم الوادعة فى السماء التى تقشعت . كانت ومضات خفيفة بعيدة ما برحت تتسلل الى العتمة الدافئة للبيت الصامت من شتى الانحاء . ووجدها راقدة على المصطبة الخشبية وقد تقوقعت واخفت رأسها فى صدرها ، وانخرطت فى البكاء بحرقة من الهول والجذل والمباغتة فى كل ما حدث . ولثم خدها المبلل المالح بسبب الدموع ، وتمدد على ظهره ووضع رأسها على كتفه وقد امسك بسيجارة فى يده اليمنى . كانت ترقد بسكون ، صامتة ، بينما كان يدخن ويمسد بيده اليسرى بحنان وشرود خصلات شعرها التى كانت تدغدغ ذقنه . . . ثم استسلمت للكرى دفعة واحدة . اما هو فكان مستلقياً محدقاً فى الظلام ، مبتسما بسخرية وخيلاء : «لقد ذهب أبى الى المدينة . . .» . هاكم ، وانظروا اليه كيف ذهب ! يا للشناعة ، انه سيدرك الامر فورا — ذلك الشيخ النحيف والحشيش ذو الصدار الرمادى ، واللحية الناصعة البياض ، بينما الحاجبان الكثان ما زالا أسودين ، ونظراته تنم عن حيوية غير عادية ، وحين يكون ثملا يواصل الكلام بلا توقف ، ولا تفوته شاردة او واردة .

ظل مستلقيا بلا نوم حتى الساعة التى بدأ فيها الظلام يتبدد فى وسط الغرفة بين السقف والارضية . وادار رأسه فرأى جهة الشرق وقد بدت

وراء النوافذ بلون ابيض مائل للاخضرار ، وصار عندئذ يميز فى الركن القاتم فوق المائدة ايقونة كبيرة لقديس بكسوة كنسية ، ويده المرفوعة المباركة ونظراته الحازمة المتوعدة . ورنا اليها فوجدها راقدة وقد طويت جسدها ، ولملمت ساقيها ، ونسيت كل شىء فى احضان الكرى ! يالها من صبية ظريفة وبائسة . . .

وعندما غدت السماء نيّرة تماما وتعالى صياح الديك ، بشتى الاصوات ، وراء الجدار تململ للنهوض . فهبتْ وتفرستْ فيه بعينين حائرتين زائغتين ، شبه جالسة ، وبصدر مكشوف ، وشعر منفوش .

فقال باحتراس :

— ستيوبا . . علىّ الذهاب .

وهمست بلا وعى :

— هل ستذهب ؟

وثابت فجأة الى رشدها وصارت تلطم صدرها بيديها بحركات متصالبة :

— الى أين أنت ذاهب ؟ وماذا سافعل الآن بدونك ؟ ما الذى ينبغى ان افعله الآن ؟

— ستيوبا ، سأعود قريبا مرة أخرى . . .

— لكن بابا سيكون فى البيت — فكيف ساختلى بك ! لربما يمكننى المجيء الى الغابة وراء الطريق العام ، ولكن كيف ساخرج من البيت ؟

اما هو فقد اطبق على اسنانه بشدة والقاها على ظهرها . فلوحت بذراعيها على سعتهما ، وهتفت بياس حلو ، كما لو كانت في النزع الاخير : «آه !» .

ثم وقف قبالة المصطبة الخشبية بعد ان ارتدى الصدار والقبعة وامسك بالكرباج بيده ، وظهره الى النوافذ ، والى الالق الشديد للشمس التى طلعت لتوه ، بينما انتصبت هى فوق المصطبة على ركبتيها ، وصارت تولول ، وتفتح فاها كالطفل وبسماجة ، وتردد بصوت متهدج :

– فاسيلى اليكسييتش . . . بحق المسيح . . بحق ملكوت السماء ، تزوجني ! سأكون لك عبدة طائعة ! سأنام عند عتبة بيتك – تزوجنى ! اننى كنت سآتى اليك بدون زواج ، لكن من سيسمح لي بهذا ! فاسيلى اليكسييتش . . .

فقال كراسيلشيكوف بصرامة :

– اصمتي . بعد عدة ايام سآتى الى أبيك وابلغه بأننى سأتزوجك . هل سمعت ؟

جلست القرفصاء وتوقفت عن النحيب فورا ، وفتحت ببلاهة عينيها الدامعتين والمشرقتين :

– حقا ؟

– طبعا ، حقا .

وعاجلت بالقول :

– لقد بلغت الخامسة عشرة فى عيد الغطاس .

– اذن يمكن عقد القران بعد نصف سنة . . .

لدى رجوعه الى البيت بدأ على الفور فى اعداد حقائبه ، وفى المساء استقل عربة «ترويكا» • متجها الى محطة السكك الحديدية . وبعد يومين كان فى مدينة كيسلوفودسك .

٥ اكتوبر ١٩٣٨

• عربة تجرها ثلاثة جياد . **المعرب** .

موزا •

كنت أيامذاك قد تجاوزت سن الفتوة ، لكنني عزمت على تعلّم فن التصوير الزيتي ، – اذ شغفت به دوما – فتركت ضيعتي في مقاطعة تامبوف ، وامضيت ذلك الشتاء بموسكو : بدأت بتلقي الدورس على يد رسام عديم الموهبة ، بيد انه مشهور جدا ، بدين قذر ومهمل الهندام ، كان يدرك كل الادراك ما ينبغي ان يكون عليه مظهر الرسام : الشعر طريل وخصلاته الوسخة المجعدة منسدلة الى الخلف ، والغليون في فمه ، والجاكتة قرمزية صنعت من القطيفة ، والحذاءان مغطيان بغيترين •• رماديين قذرين – كنت امقتهما اشد المقت – ومعاملة الناس باستهانة ، والنظرات المتسامحة التي يلقيها على اعمال مريديه ، مضيّقا عينيه ، بينما يردد بهمهمة ، كما لو كان يحدث نفسه :

– ظريف ، ظريف . . . نجاحات لا مراء فيها . . .

• الموزا – الالاهات التسع الشقيقات اللواتي يحمين الغناء والشعر والفنون والعلوم فى الميثولوجيا الاغريقية اليونانية القديمة . وترد هنا كاسم علم . **المعرب** .

•• الغيتر – وقاء قماشي يلبس فوق الحذاء . **المعرب**.

استقر بي المقام في شارع اربات بالقرب من مطعم «براغ» ، في احدى غرف نزل «العاصمة» . وكنت اناء النهار اعمل في محترف هذا الرسام وكذلك في غرفتي . اما امسياتي فغالباً ما كنت اقضيها في المطاعم الرخيصة مع شتى المعارف الجدد من البوهيميين ، الشباب والكهول الذين حطمتهم الحياة ، الا انهم جميعا مولعون بالقدر نفسه بلعبة البليارد وبتناول السرطان مع البيرة . . . كانت حياتي كريهة بائسة ومملة ! وهذا الرسام ذو القسمات النسائية والقذر ، ومحترفه المهمل «على طريقة الفنانين» المليء بشتى الحاجيات التي علاها الغبار ، وهذه «العاصمة» الكئيبة القاتمة . . . لقد بقيت في ذاكرتي صورة : الثلج المتساقط باستمرار وراء النوافذ ، والهدير الاصمّ لعربات الترام التي تجرها الخيول في شارع اربات ، وحين يقبل المساء تفوح رائحة البيرة والغاز المشوبة بالحموضة في المطعم المضاء بنور خاب . . . لا ادري الامر الذي دعاني الى ممارسة هذه العيشة البائسة – فلم اكن آنذاك فقير الحال ابدا .

لكن حدث مرة في أحد ايام مارس حين اعتكفت في البيت ، ممارسا الرسم بالاقلام ، وتسربت من النافذة الصغيرة المفتوحة الرطوبة اللاشتوية بثلجها المختلط بالمطر ، وطقطقت سنابك الخيل فوق ارضية الشارع لا كما في الشتاء ، وبدا كما لو ان عربات الترام اخذت ترنّ بترجيعة رخيمة اكثر ،

ان قرع احدهم باب مدخل جناحي في الفندق . فصحت :

– من هناك ؟ – لكن لم يرد جواب . تلبثت ثم صحت مرة اخرى : وران الصمت مرة أخرى . ثم قرع الباب من جديد . فنهضت وفتحت الباب : كانت تقف عند العتبة فتاة كاعب فارعة ذات قبعة شتوية رمادية ، ومعطف رمادى مستقيم ، وجزمتين رماديتين ، متطلعة نحوي وجهاً لوجه ، بعينين لوزيتين ، ولمعت قطرات المطر والثلج فوق اهدابها الطويلة ووجهها وشعرها المنسدل من تحت القبعة . رنت اليّ وقالت :

– انا طالبة في الكونسرفتوار واسمي موزا جراف . وقد تناهي الى سمعي انك انسان ظريف ، فجئت للتعرف عليك . هل لديك اعتراض ؟

أجبت ، وقد غلبتني الدهشة ، مجاملاً طبعا :

– يسرني كلامك كثيرا . تفضلي ، رجاء . لكن عليّ تحذيرك من ان الاشاعات التي بلغتك من المستبعد ان تكون صحيحة . فلا يوجد في شخصي ، على ما يبدو ، اي شيء يثير الاهتمام .

– على اية حال دعني أدخل . لا تبقني وراء الباب .

قالت هذا وهي ترمقني مباشرة ووجها لوجه بالصورة نفسها . – وما دمتَ مسرورا فتقبّل زيارتي .

بعد ان دخلت طفقت كما لو كانت في بيتها تنزع القبعة امام مرآتي الفضية الرمادية التي اسودت في

بعض المواضع ، وتعدّل خصلات شعرها ذات اللون الصديء ، ونضت المعطف ورمته على الكرسي ، وبدت في فستان فانيلا بمربعات ، وجلست على الكنبة ، متنشقة بأنفها المبتل بسبب المطر والثلج ، وقالت بلهجة آمرة :

– إنزعْ عني الجزمتين ، وهات المنديل من المعطف .

ناولتها المنديل فمسحت وجهها ومدّت ساقيها نحوي .

– لقد رأيتك أمس في الحفلة الموسيقية للعازف شور – قالت هذا بلا اكتراث .

كنت احبس الابتسامة البلهاء التي أثارتها الغبطة والحيرة ، – ما لهذه الزائرة الغريبة ! – ونزعتُ عنها طائعاً جزمتيها الواحدة تلو الأخرى . وما انفكت تفوح منها رائحة الهواء النقي ، فاثارت هذه الرائحة القلق في نفسي ، واقلقتني جسارتها بالاقتران مع كل ملامح الفتوة الانثوية المرتسمة على وجهها ، ذي العينين الصريحتين ، واليدين الكبيرتين الجميلتين ، وكل ما رأيته واحسسته حين كنت انتزع الجزمتين من تحت فستانها ، الذي بدت وراءه ركبتاها المتكورتان المكتنزتان ولدى رؤية سمانتي رجليها الممتلئتين في الجوارب الرمادية الرقيقة ، وباطني قدميها الطويلتين في الحذاءين المكشوفين المطليين باللّك .

ثم جلستُ فوق الكنبة بوضعية مريحة غير

معتزمة الانصراف عاجلاً . ودون ان أعرف مـــا ينبغي قوله أخذت استفسر ممـــن وماذا سمعت عني ، ومن هي ، ومع من واين تعيش . فردت :

– لا يهم ممن وماذا سمعتُ . جئت اليك عـلى الاكثر لأنني رأيتك في الحفلة الموسيقية . انـت وسيم لحد ما . وانا ابنة طبيب . اعيش قريبـا منك ، في بولفار برتشيستينسكي .

كانت تتحـدث بصورة مفاجئة نوعا مـا وباقتضاب . وسألتها ، مرة اخرى ، دون ان أدري ما يجب قوله :

– أتريدين شاياً ؟

قالت : – نعم . وأمـر إنْ وجد لديك المال بشراء تفاح «رانيت» مـن محل بيلوف – هنا في شارع اربات . لكني أرجو استحثاث خادم الفندق ، فأنا قليلة الصبر .

– بينما اعتقدت انك هادئة جدا .

– لا يهم ما يعتقده المرء . . .

حين جلب الخادم السماور وكيساً مـن التفاح ، اعدت الشـاي ومسحـت بامعان القدحيـن والملعقتين . . . وبعد تناول تفاحة واحتساء قدح الشاي ، اتكأت على ظهر الكنبة اعمق وطبطبت عـلى الكنبة الى جانبها :

– تعال الآن واجلس معي .

جلست . فاحتضنتني وقبلتني في الشفتين بلا عجلة ، ابتعدت وتطلعت اليَّ ثم ، كما لـو اقتنعت بأنني

جدير بهذا ، عاودت تقبيلي مغمضة العينين – بهمّة ومثابرة ولفترة طويلة .

قالت كما لو كانت تتنفس الصعداء :

– تلك خاتمة الامر . . هذا يكفي الآن . الى ما بعد غد .

خيمت العتمة على الغرفة تماما ، – ولاح بصيص نور كئيب فحسب من مصابيح الشارع . من اليسير ان تتصور أحاسيسي آنذاك . ومن اين انصبـت عليَّ فجأة مثل تلك السعادة ! شابة ، قوية ، ومذاق وشكل الشفتين غير اعتياديين . . . كنـت كما في الحلم اصغي الى رنين حافلات الترام وطقطقة حوافر الخيل .

قالت :

– أريد بعد غد ان اتناول معك طعام الغداء في «براغ» . لم اكن هناك ابداً ، وعموما فانني قليلة الخبرة جداً . انا أتصور ما تعتقده بشأني . اما في واقع الحال فانت حبي الأول .

– الحب ؟

– والا فكيف تسمي ذلك ؟

انني سرعان ما تركـت دروسي طبعا ، بينما واصلت هي دراستها بشكل ما . ما كنـا نفترق ، وعشنا كعروسين ، فكنـا نرتاد متاحـف الصور والمعارض ، والحفلات الموسيقية وحتى ، لسبـب ما ، المحاضرات العامة . . . وفي مايو غيّرت محل سكناي فانتقلت تلبيـة لرغبتها الى عزبة قديمة في

ضواحي موسكو بنيت فيها بيوت صغيرة للايجار ، واخذت تأتي الي ثم تقفل راجعة الى موسكو في الساعة الواحدة ليلا . ولم اكن انا لاتوقع هذا البتة – بيت ريفي في ضواحي موسكو . اذ لم أحيا أبدا من قبل في بيت ريفي بلا عمل ، في عزبة ، لا تشبه البتة عزباتنا في السهوب ، وفي مثل هذا الطقس .

كانت الامطار تهطل بلا توقف ، وحوالينا غابات الصنوبر ، وبين الفينة والفينة تتلبد فوقها ، في زرقة السماء الساطعة ، سحائب بيضاء ، ومن بعيد يهدر الرعد عاليا ، ثم ينهمر سيل لامع من الامطار عبر اشعة الشمس ، متحولا بسرعة ، في القيظ ، الى بخار يفوح منه عبير الصنوبر . . . ويغدو كل شيء رطبا ومزيتاً ولامعا . . . وفي منتزه العزبة تنتصب اشجار عظيمة مما يجعل البيوت الريفية المتناثرة هناك تبدو ضئيلة الحجم ، مثل الاكواخ القائمة تحت الاشجار في البلدان الاستوائية . أما الغدير فيبدو كمرآة سوداء هائلة ، وتغطي الطحالب الخضراء نصفه . . . كنت اعيش على طرف المنتزه وسط الغابة ، ولم يكن قد انجز بعد بناء بيتي المشيد من جذوع الاشجار . فلم تسد الشقوق في الجدران ولم تسحج ألواح الارضية ، والمواقد بدون سدادات لاحتجاز الدفء ، والاثاث معدوم تقريبا . وادت الرطوبة الدائمة الى اكساء جزمتي الراقدتين تحت السرير بطبقة من العفونة الناعمة كالقطيفة .

في الامسيات ما كان الظلام يلف المكان بحجبه الا عند منتصف الليل : فيتلبث ويتلبث ذاك النور الخابي الآتي من الغرب فوق الغابات الصامتة الساكنة . وفي الليالي المقمرة كان هذا النور يمتزج امتزاجا غريبا بضوء البدر ، المسحور والساكن ايضا . وفي ظل تلك الطمأنينة التي تسود المكان ، وصفاء السماء والهواء ، يتراءى وكأن المطر لن يهطل بعد هذا . لكن حالما كنت أودعها في المحطة واخلد الى النوم حتى أسمع مجددا وعلى حين غرة طرقات المطر العنيفة المنهالة على السقف مصحوبة بهمهمة الرعد ، والقتام يلف المكان ، والبرق يمرق في خطوط مائلة . . . حين ينبلج الصباح تبدو زاهية اشباح الظلال وبقع الشمس الساطعة فوق الارض البنفسجية القاتمة في الطرقات الندية ، وتشقشق الطيور المسماة بصائدة الذباب ، وتغرد الشحارير بصوت مبحوح . وعندما يبلغ النهار نصفه يغدو الجو حارا ورطبا مرة ثانية ، وتتلبد السحب ، ويأخذ المطر بالانهمار . وقبيل المغيب تصفو السماء ، وتتراقص خيوط شبكة اشعة الشمس البلورية الذهبية الجانحة فوق جدران بيتي الخشبية ، متساقطة على النوافذ عبر أوراق الاشجار . وآنذاك كنت اتوجه الى المحطة للقائها . فيقترب القطار ، وينصب على الرصيف سيل لا حصر له من ساكني البيوت الريفية ، وتنتشر رائحة الفحم الحجري المنبعثة من القاطرة وعبير نضارة الغابة

الندية ، وتبدو هـــي وسط الحشد حاملة حقيبة تنوء بأكياس المقبلات والفواكه وقنينة من نبيـذ «مادیرا» . . . كنـــا نتناول طعام الغداء بألفـة لوحدنا ، وقبيل سفرها في وقت متأخر مـن المساء كنا نتجول في المنتزه . كنت تجدها ماشية كالسائر في نومه ، واضعة رأسها على كتفي . الغدير أسود كالح ، والاشجار العتيقـة تشمخ الى اعالي السماء المرصعة بالنجوم . . . والليـــل وضاء مسحور ، وصامت ابدا ، وظـــلال الاشجار السامقة الى ما لا نهاية تتساقط عـــلى الفسحات الفضية للغابـة والشبيهة بالبحيرات .

في يونيو سافرتْ معـــي الى قريتي ، – صارت تعيش في كنفي ، هكذا بلا عقد قران ، وتدبر شئون المنزل . وامضت الخريف الطويل بلا ضجر منشغلة في الامور اليومية ومطالعة الكتب . وكان اكثر مـــن يزورنا من الجيران احدهم المدعو زافيستوفسكي ، مالك الاطيان الفقير ، وكان يعيش وحيدا في مكان يبعد نحو فرسخين عنا ، وهو نحيـف الجسم احمر الشعر وجل وهيّاب ، لم يوهب قدرا كبيرا مـــن الذكاء – وموسيقي لا بأس بـــه . طفق يزورنا في الشتاء كل مساء تقريبا . وقد عرفته منذ الطفولة ، اما الآن فقد اعتدت عليه كثيرا لحد ان تزجيـة المساء بدونه كانت تتراءى لي أمرا غريباً . كنـــا نلعب سوية لعبة الدامة او ينهمك في العزف معهـــا على البيانو بالأيدي الاربع .

حدث قبيل عيد الميلاد ان توجهت الى المدينة . ورجعت حين اوشك نور البدر ان يغمـــر الكون . ولما دلفت الى البيت لـــــم أجدها في اي مكان . فجلست الى السماور وحيدا .

– أين السيدة يا دونيا ، هل ذهبت للتنزه ؟

– لا أعرف . انها غادرت البيت منذ الفطور .

وقالت مربيتي العجوز بعبوس ماشية عبر غرفة الطعام دون ان ترفع رأسها :

– ارتدت ملابسها وخرجت .

جال في خاطـــري «لا بـــد انها ذهبـــت الى زافيستوفسكي ، واظنها ستعـــود قريبا بصحبته . فالوقت قد جاوز السابعة» . توجهتْ الى غرفـــة المكتب ورقـــدت ، وغفوت فجأة – فقد امضيت النهار كلـــه في الطريق اعاني مـــن شدة القر . واستيقظت فجأة ايضا بعد مرور ساعة – وخامرتني فكرة واضحة فظيعة : «لقد هجرتنـي ! استأجرتْ عربة من احد الفلاحين وتوجهت الى المحطة ، سافرت الى موسكو – كل شيء متوقع منها ! لكن ربمـــا رجعت ؟» . تجولتْ في انحاء البيت – لا ، انها لـــم ترجع . شيء مخجل امام الخدم . . .

في الساعة العاشرة ، لـم أعـد أعرف ما أفعل ، فارتديت معطفي القصير ، وتناولت لسبب مـــا بندقية الصيد ، ومضيت في الطريـــق العام باتجاه بيت زافيستوفسكي ، غارقا في التأمل : «هو ايضا لم يزرني اليوم ، كما لو كان عن قصد . بينمـــا

علي قضاء ليلة رهيبة بكاملها ! أحقا انها سافرت وهجرتني ؟ لا ، هذا غير ممكن !» كنت اغذ الخطى صارفا بأقدامي في الدرب المطروق وسط الثلوج ، ولاحت من جهة اليسار القفار الثلجية المتألقة تحت نور القمر الكئيب الواطئ . . . انعطفت عن الطريق العام وتوجهت نحو عزبة زافيستوفسكي : ثمة ممشى تحف به الاشجار العارية ، والبوابة المؤدية الى الفناء ، ويقوم من الناحية اليسرى بيت عتيق بائس المظهر ، تلفه العتمة . . . صعدت الى السطحة الصاقعة ، وفتحت بعسر الباب الثقيل المغلف بقماش مخرق ، — فبدت في غرفة المدخل الحمرة القانية لجمرات الموقد المكشوف ، وغمر المكان الدفء والعتمة . . . لكن الصالة معتمة ايضا .

— فيكينتي فيكينتيتش !

ظهر هو عند عتبة غرفة المكتب بلا ضجة ، منتعلا جزمتين من اللباد ، ولم يكن ينيرها ايضا سوى ضوء القمر الآتي عبر النافذة المؤلفة من ثلاثة اطر :

— آه ، هذا أنت . . ادخل ، ادخل ، رجاء . . انا كما ترى أجلس في الظلام ، ازجي المساء بلا نور . . .

ولجت المكان وجلست على الكنبة الكثيرة النتوءات .

— تصور ان موزا اختفت في مكان ما . . .

فصمت ، ثم قال بصوت لا يكاد يسمع :

— نعم ، نعم ، أنا أفهمك . . .

— ما تعني . . ماذا تفهم ؟

وعلى الفور خرجت موزا من غرفة النوم المجاورة للمكتب ، بلا ضجيج ايضا ، وعلى كتفيها شال وفي قدميها جزمتان من اللباد ايضا ، وقالت :

— انت * تحمل سلاحا . ان أردت اطلاق النار ، فلا تطلقه عليه ، بل علي أنا .

وجلست على الكنبة الاخرى في الجهة المقابلة .

تطلعت الى جزمتيها ، والى ركبتيها البارزتين من تحت التنورة الرمادية ، — كان كل شيء يُرى جيدا في النور الذهبي الساقط من النافذة ، — وأردت الصراخ : «أنا لا أستطيع العيش بدونك ، ومستعد للتضحية بحياتي كلها من اجل هاتين الركبتين والتنورة وجزمتي اللباد !»

قالت :

— المسألة واضحة ومنتهية . ولا فائدة من اثارة فضيحة .

وبدرت مني بعد لأى عبارة :

— أنت في منتهى القساوة !

قالت مخاطبة زافيستوفسكي :

— هات سيجارة .

---

* تخاطبه هنا بصيغة الجمع التي تستخدم في العلاقات الرسمية . **المعرب** .

ودنا منها بجبن ، ومدّ علبة السجاير ، وصار يبحث عن الثقاب في جيوبه . . .

قلت متنهدا :

– ها انت تخاطبينني انا بصيغة الجمع ، وكان بوسعك على الاقل في حضوري الا تخاطبيه بصيغة المفرد .

فسالتْ رافعة حاجبيها وماسكة السيجارة بيد ممدودة :

– لماذا ؟

أخذ قلبي يضطرب حتى بلغ اضطرابه حلقومي ، واحسست بدقات عنيفة في الصدغين ، فنهضت وخرجت مترنحا .

١٧ اكتوبر ١٩٣٨

فى الهزيع الاخير

قلت لنفسي كم من الوقت مضى دون ان اسافر الى هناك . . . منذ سن التاسعة عشرة . كنت آنذاك اعيش فى روسيا ، واشعر بانها لي ، وامتلك حرية التنقل التامة في اي مكان ، ولم يكن عسيرا السفر لمسافة نحو ثلثمائة فرسخ . بيد انني لم افعل هذا ، كنت اؤجل ذلك دوما . وانصرمت ومضت الاعوام ، عشرات الاعوام . لكن حل ذلك الوقت حين لم يعد بوسعي تأجيل ذلك . فاما الآن واما الى الابد . فلا بد من انتهاز الفرصة الوحيدة والاخيرة . وانه لشيء جميل ان الساعة متأخرة ، ولن يصادفني احد .

مضيت على الجسر عبر النهر ، مشاهدا كل شيء حوالي بعيدا في ضوء القمر أبان ليلة يوليو تلك .

كان الجسر مألوفا كحاله سابقا ، كما لو انني رأيته يوم امس : قديم العهد خشن المظهر ، محدودب ، وكما لو لم يكن من الحجر بل اصابه التحجر بفعل الزمن ، كالاثار القديمة الخالدة الراسخة على مر العصور . حين كنت تلميذا فكرت

انه وجد منذ عهد باطي * . لكن لم تشهد على قدم المدينة سوى بعض آثار سورها الممتد على المنحدر الكائن تحت الكاتدرائية وكذلك هذا الجسر . اما ما عدا هذا فهو كله من الاشياء العتيقة التى تلقاها فى الاطراف لا غير . وثمة أمر غريب ، فهناك ما يشير الى ان امورا معينة قد تغيرت في هذه الدنيا ، منذ ان كنت صبيا وفتيا : اذ كان النهر سابقا غير صالح للملاحة ، اما الآن فيبدو انهم عمّقوه وطهّروا مجراه . وكان الهلال الى يساري ، بعيدا وراء النهر ، وبدت سفينة بيضاء بدواليب في ضوئه الخابي ووميض المياه المترجرجة المهزوزة ، وتراءى لي انها خالية ، – فقد كانت صامتة غاية الصمت ، بالرغم من الانوار المضاءة في جميع نوافذها ، مثل عيون ذهبية جامدة ، انعكست جميعا في المياه كأعمدة ذهبية مهزوزة : بدا وكأن السفينة تنتصب فوقها . هذا يحدث في ياروسلافل ، وفي قناة السويس ، وفي النيل . والليالي في باريس رطبة ومعتمة ، ويتوهج شفق وردي في السماء السوداء ، والسين يجري تحت الجسور كالقار الاسود . لكن تبدو تحتها ايضا اعمدة مهزوزة ناجمة عن انعكاس المصابيح المنتصبة فوق الجسور . غير انها ذات الوان ثلاثة . ابيض وازرق

* حفيد جنكيزخان (١٢٠٨ – ١٢٥٥) ، قاد الحملات على شرق ووسط اوربا (١٢٣٦ – ١٢٤٣) واخضع روسيا القديمة لنير المغول – التتر . **المعرب** .

واحمر . انها اعلام روسيا . ولم تكن هناك مصابيح فوق الجسر هذا . انه جسر يابس وعلاه الغبار .

امامي فوق الرابية الحدائق المظلمة للمدينة ، وانتصب فوق الحدائق برج ادارة المطافئ . الهي ، اية سعادة لا توصف ! لقد كانت اول مرة لمست فيها اناملك ابان حريق شب في الليل . بينما ضغطت انت يدي ردا على ذلك . وانا لن أنسى ابدا تلك الموافقة الخفية . كان الشارع كله قد امتلأ بحشد أسود من الناس في وهج النار الفظيع والغريب . لقد جئتكم يومذاك زائرا حين انطلق فجاة رنين الاجراس منذراً ، واندفع الجميع الى النوافذ ثم الى خارج بوابة حديقة البيت . كان الحريق قد نشب بعيدا وراء النهر لكن السنته امتدت بحرارة فظيعة وبسرعة وبنهم . تعالت هناك سحب متموجة كثيفة من الدخان الاسود الاحمر ، وانقذفت منها عاليا السنة قرمزية كالرايات ، صارت تنعكس على مقربة منا بلون نحاسي متأرجحة على قبب كنيسة كبير الملائكة ميكائيل . في الزحام وحشد الجمهور ووسط لغط عامة الناس المشوب بالقلق الآسف تارة والجذل تارة اخرى تشممت رائحة خصلات شعرك العذراء وجيدك وفستانك الكتاني – وفجاة قرّ عزمي ، فامسكت بيدك منحبس الانفاس .. .

وراء الجسر صعدت الرابية ، وتوجهت نحو المدينة في درب مرصوف بالحجارة .

لم يكن ثمة اي نور في المدينة ، اي كائن حي ، اذ

خيّم السكون والرحابة ، والهدوء والكآبة – كآبة الليل في سهوب روسيا ، والمدينة النائمة في السهب . البساتين وحدها ترتجف باوراق اشجارها بصوت لا يكاد يسمع ، وبحذر ، بفعل أنسام يوليو الخفيفة المنتظمة ، التي كانت تهبّ من مكان ما في الحقول ، تهب عليّ برقة وحنان . مشيت – ومشى القمر الكبير ايضا ، متدحرجا متلألئا كأنه دائرة مرآوية ، بين الاغصان السوداء . وخيّم الظل على الشوارع العريضة – في البيوت الكائنة في الجهة اليمنى فقط التي لم يكن ظل الاغصان ليصل اليها بدت الجدران البيضاء مضاءة وتحول الزجاج الى صفحة صقيلة سوداء . بينما مشيت انا في الظل وسعيت اخطو فوق الرصيف المبقع ، – كان مفروشا بالزخارف المخرمة كالدنتلا الحريرية السوداء . لديها فستان سهرة اسود شبيه بهذه الدنتلا ، كان انيقا وطويلا يبرز اكثر نحافتها ورشاقتها . ويلائم بصورة عجيبة قامتها الممشوقة وعينيها السوداوين اليافعتين . وبدت فيه غامضة ساحرة ، ولم تكن تلقى بالاً اليّ حتى المهانة . اين حدث هذا ؟ لدى زيارة من ؟

كان مبتغاي هو الوصول الى شارع ستاريا ، وكان بوسعي بلوغه بطريق آخر أقصر . بيد انني انعطفت الى هذه الشوارع الفسيحة وسط الحدائق من اجل القاء نظرة على المدرسة الثانوية . وحين بلغتها دهشت مرة أخرى . فهناك ايضا بقي كل شيء على حاله كما كان قبل نصف قرن مضى . حاجز حجري وفناء

حجري ، ومبنى حجري كبير وسط الفناء ، كل شيء رسمي ومضجر ، كما هي الحال في زماني . اخذت اسير بخطى وئيدة عند البوابة ، فقد اردت ان ابعث في قرارة نفسي كآبة وحنان الذكريات – لكنني لم افلح : نعم ، دخلت عبر هذه البوابة لاول مرة كتلميذ صف اول حليق الرأس بقبعة زرقاء جديدة مزينة بنخلات فضية فوق مقدمتها ، وبمعطف جديد بازرار فضية ، ثم دخلتها وانا فتى نحيف الجسم بحاكتة قصيرة رمادية وبسراويل مهندمة انيقة جدا ذات شريطين من الاسفل : هل يعقل بان هذا كان انا ؟

لكن شارع ستاريا بدا اضيق قليلا من السابق . وكل ما عدا هذا بقي بلا تغيير . فهو وعر وتتوسطه الحفر ، ويخلو من اية شجرة ، وتقوم على الجانبين بيوت التجار التي يعلوها الغبار ، والارصفة وعرة أيضا ، وبشكل يفضل فيه المرء السير في وسط الشارع حيث نور القمر الكامل . كانت الليلة شبيهة تقريبا بهذه الليلة . سوى انها كانت في نهاية أغسطس حين يفوح من المدينة كلها عبير التفاح ، الذي يعرض باكوام في الاسواق والجو دافيء جدا مما يجعل المرء يشعر باللذة في التمشي مرتديا القميص الروسي بدون ياقة ومتمنطقا حزاما قوقازيا . . . هل من الممكن تذكر تلك الليلة في مكان ما كما لو كنت في السماء ؟

مع ذلك لم يقر عزمي على بلوغ بيتكم . لربما هو ايضا لم يتغير ، لكن هذا يجعل رؤيته أمرا رهيبا اكثر . ثمة غرباء جدد يعيشون فيه الآن . اما والدك وامك وشقيقك – فكلهم عاشوا من بعدك انت الشابة ، بيد انهم ماتوا في وقتهم ايضا . واهلي ماتوا جميعا كذلك . وليس الاهل فقط بل والكثير والكثير ممن بدات معهم حياتي كاصدقاء او معارف . وهل كان بعيدا ذلك الوقت حين بدأوا حياتهم واثقين ان لا نهاية لها . بينما بدأ كل شيء وجرى واختتم امام سمعي وبصري ، – بمثل هذه السرعة وامام سمعي وبصري ! جلست على ركيزة بالقرب من بيت احد التجار من العسير اقتحامه لما فيه من اقفال وابواب . صرت افكر ، كيف كانت هيئتها في أيامنا البعيدة تلك : مجرد شعر قاتم بتسريحة ملمومة بسيطة ، نظرة صافية ، سمرة خفيفة في وجهها الفتي ، فستانها الصيفي الخفيف ، ووراءه تكمن عذرة وعنفوان وانطلاق الجسد اليافع . . . كان ذلك بداية غرامنا . زمن السعادة التي لم يعكرها بعد شيء ، زمن التقارب ، الثقة ، الرقة الجذلة ، الفرحة . . .

ثمة شيء خاص تماما في الليالي الدافئة والمضيئة لمدن الاقاليم الروسية في اواخر الصيف . اية طمأنينة ، اي رفاه ! يجوب في المدينة الليلية المرحة عجوز حاملا دقاقة ، لكن من أجل تسلية نفسه فحسب : لا حاجة للحراسة ، فناموا هانئين

ايها الناس الطيبون ، اذ تحرسكم مباركة واكرام الرب ، هذه السماء العالية المرصعة بالنجوم ، التي يحدق فيها العجوز بلا هموم لدى تجواله في وسط الشارع الذي تسخن خلال النهار ، وفي احوال نادرة فقط كان يدق بالدقاقة للهو ، فتتراقص الكرة الصغيرة داخلها بطقطقة . في مثل هذه الليلة ، في ذلك الهزيع الاخير من الليل ، حين لم يكن ساهرا في المدينة أحد غيره ، كنت تنتظرينني في حديقتكم التي يغمرها الذبول في فصل الخريف . بينما كنت الج فيها خفية : فافتح البوابة في سكينة ، البوابة التى ترفعين مزلاجها مسبقا ، وامضي دون ضوضاء وبسرعة الى الفناء ، وادلف الى ما وراء العنبر في اعماق الفناء لاختفي وسط ظلام الحديقة المبقع ، حيث يبدو بعيدا شبح فستانك الابيض عند المصطبة تحت شجرة التفاح . أدنو بسرعة والتقي بفزع بهيج مع بريق عينيك المنتظرتين .

كنا نجلس ونجلس في سعادة ما حائرة . كنت احتضنك بيد ، مصغيا الى دقات قلبك ، وبالاخرى كنت امسك يدك ، متحسسا عبرها كيانك باجمعه . والوقت متأخر جدا حتى لم يكن يسمع صوت الدقاقة ، – فقد رقد العجوز في مكان ما على مصطبة والغليون في فمه ، متدفئا بنور القمر . حين تطلعت نحو اليمين ، رأيت كيف ينير القمر عاليا ببراءة فوق الفناء ، ويلمع سقف البيت بتألق كحراشف

السمك . وحين تطلعت الى اليسار رأيت الدرب المفروش باعشاب يابسة واذا باثره يضيع تحت اشجار تفاح أخرى . وتتراءى خلفها على ارتفاع واطئ نجمة خضراء وحيدة ، من وراء حديقة أخرى ، تنير بلا مبالاة ، وفي الوقت نفسه منتظرة ، متحدثة عن شيء بلا صوت . لكنني لم أر الفناء والنجمة الا في لحظة خاطفة – فلدي شيء واحد في العالم : العتمة الخفيفة ووميض عينيك المشع في العتمة .

من ثم ودعتني حتى بوابة الحديقة وقلت لك :

– لئن وجدت حياة أخرى في العالم الآخر والتقينا فيها فسأقف هناك امامك راكعا واقبّل قدميك لقاء كل ما وهبتني في الارض .

خرجت الى وسط الشارع المضاء ومضيت الى بيتي . وعندما التفت رأيت شيئا ما برج يتراءى ابيض في بوابة الحديقة . لحظتئذ نهضت من الركيزة وقفلت راجعا في الطريق التي جئت فيها . لا ، كان لديّ بالاضافة الى شارع ستاريا هدف آخر ، كان يرهبني ان اعترف بنفسي ، لكنني كنت اعرف بان تحقيقه امر لا مناص منه . مشيت – لالقاء نظرة ثم الانصراف الى الابد .

كانت الطريق مألوفة لي مجددا . يجب عليّ السير الى الامام ثم الانحراف الى اليسار والسير عبر السوق ، ومن السوق يجب السير في شارع موناستيرسكايا نحو المخرج من المدينة .

تبدو السوق وكأنها مدينة اخرى داخل المدينة .

وتنطلق من سقائف الدكاكين فيها روائح نفاذة جدا . والعتمة تسود سقيفة بيع المأكولات فتخيم على المائدة والدكاك الطويلة ، وفي سقيفة بيع الخردوات واللوازم البيتية ثمة ايقونة يطل منها وجه المسيح بعينين واسعتين ، ذات اطار علاه الصدأ معلقة بواسطة سلاسل في وسط الممر . وفي سقيفة بيع الدقيق والحبوب تتراكض دائما منذ الصباح اسراب الحمام وتنقر في وسط الشارع . حين يسير المرء الى المدرسة الثانوية ما أكثر ما يلقى في طريقه من الحمام . جميعها سمينة ذات صدور زاهية الالوان – انها تنقر وتركض بانوثة مؤرجحة ذيولها مترنحة ، هازّة رؤوسها بصورة رتيبة ، كما لو أنها لا تلاحظك : انها لا تطير مطلقة الصفير من اجنحتها الا عندما توشك ان تدوس على واحدة منها . وفي الليل تمرق هناك بسرعة وبهمة جرذان كبيرة قاتمة كريهة ورهيبة .

شارع موناستيرسكايا – المعبر المؤدي الى الحقول ، والطريق التي تقود البعض من المدينة الى بيوتهم في القرية ، والبعض الآخر الى مدينة الاموات . اما في باريس فيتميز من بين كل البيوت بيت برقم كذا في شارع كذا ، طوال يومين بلوازم الحداد الموضوعة عند مدخله ، المؤطر بالسواد المشوب بالفضة علامة الحزن . وتبقى طوال اليومين ورقة ذات اطار اسود فوق طاولة مغطاة بالسواد عند المدخل – يوقع عليها الزائرون المؤدبون تعبيرا عن

المواساة ؛ ثم تتوقف في موعد معين اخير عربة ضخمة مزودة بمظلة الحداد طلي خشبها بلون اسود فاحم مثل تابوت الميت ضحية الطاعون ، وتزين المظلة الدائرية الحواشي نجوم بيضاء كبيرة تجسد جنات النعيم . اما زوايا الغطاء فتزينها ذؤابات سوداء مجعدة من ريش النعام تجسد نار جهنم ، وربطت الى العربة كائنات رهيبة ضخمة ، عليها اجلال سوداء فاحمة تنبجس منها قرون وفي مواضع العيون رسمت حلقات بيضاء مطوقة اياها ؛ ويجلس في مقعد الحوذي العالي جدا سكير عجوز منتظرا حمل النعش ، انه يرتدي ايضا بزة حداد معدة خصيصا للعرض تذكر بالآخرة ، وقبعة ثلاثية الاركان مماثلة لها كذلك . لا بد انه في قرارة نفسه يهزأ دائما بترديد هذه العبارات الفخمة *Requiem aeternam dona eis, Domine, et lux perpetua luceat eis. . .

اما هنا فالامر يختلف تماما . الرياح تهب من الحقول عبر شارع موناستيرسكايا ، ويحمل للقائه فوق المناشف نعش مكشوف ، ويتأرجح فيه الوجه الشاحب بلون الرز ، الملفوف جبينه بشريط مطرز ، فوق الجفنين المتورمين المنغلقين . هكذا حملت هي ايضا .

في الطريق المؤدية الى خارج المدينة ينتصب دير

---

* امنحه الراحة الابدية يا رب ، وليرافقه النور الى الابد . (باللاتينية) .

يعود الى ايام اليكسي ميخايلوفيتش * ، وهو حصن بوابته مغلقة دائما ، ووراء اسواره تتألق القبب المذهبة للكاتدرائية . وتلي ذلك في الحقل تماما اسوار اخرى مترامية لكن غير شاهقة وتكمن في داخلها احراش واسعة ، مقسمة بدروب طويلة ، وعلى جوانبها تنتشر شتى انواع الصلبان وشواهد القبور وسط أشجار الدردار والزيزفون والبتولا العتيقة . ان البوابة هناك مفتوحة على مصراعيها ، ورأيت الدرب الرئيسي المستقيم الذي لا نهاية له . نزعت قبعتي بوجل ودخلت . لكم الوقت متأخر ، ولكم السكون مطبق . تراءى القمر واطئا وراء الاشجار ، بيد ان كل ما حولي بدا بوضوح قدر ما يستطيع البصر تبيانه . بدت بتلاوين مزخرفة كل هذه الفسحة من الاحراش حيث الاموات والصلبان والشواهد في وسط الظلال الشفافة . هدأت الرياح قبيل وقت الشروق – وسكنت البقع المضيئة والمعتمة التي كانت ما فتئت تتراقص تحت الاشجار . بعيدا في اعماق الحرش ومض فجأة شيء ما من وراء كنيسة المقبرة ، وانطلقت كرة سوداء قاتمة بسرعة مجنونة نحوي فابتعدت جانبا وقد طار صوابي . اقشعر رأسي كله واصابه الحذر وقفز قلبي وجمد . ماذا كان هذا ؟ انطلق ثم اختفى . لكن قلبي توقف

---

* قيصر روسي . **المعرب** .

عن الخفقان في صدري . هكذا مضيت في طريقي بقلب واجف حاملا اياه بين جوانحي كحمل ثقيل . كنت اعرف الى اين يتعين على الذهاب . مضيت نحو الامام في الدرب الرئيسي ، وتوقفت في نهايته على بعد عدة خطوات من السور الخلفي : فقد ظهر امامي وحيدا في موضع منبسط وسط الاعشاب الجافة حجر طويل وضيق نوعا ما ، ويمتد رأسه من السور . تطلعت من وراء السور نجمة خضراء كجوهرة فذة ، غير عالية ، ذات اشعاع مثل سابقتها تلك ، لكنها خرساء ساكنة .

١٩ اكتوبر ١٩٣٨

روسا

فى الساعة الحادية عشرة مساء توقف القطار السريع موسكو – سيفاستوبول فى محطة صغيرة أعقبت بودولسك * ، حيث ما كان ينبغى له ان يتوقف ، وصار ينتظر أمراً ما فى الخط الثانى . فدنا سيد وسيدة من النافذة المفتوحة لعربة الدرجة الاولى فى القطار . وعبر الكمسارى قضبان السكة حاملا فانوساً بضوء أحمر فى يده المتدلية ، وسألته السيدة :

– خبّرنى رجاء . لِمَ نقف ؟

فأجاب الكمسارى ان القطار «الاكسبريس» القادم من الجهة المعاكسة يتأخر عن موعده .

كانت تخيّم على المحطة العتمة والكآبة . وقد دمس الظلام منذ أمد بعيد ، بيد ان شفق موسكو الصيفى الطويل ما انفك يومض بنوره الخابى فى الغرب ، وراء المحطة ، ووراء الحقول المائلة للسواد التى تتخللها الغابات . وفاحت فى النافذة رائحة المستنقعات الرطبة . وترددت وسط السكون لقلقة

* بودولسك – مدينة صغيرة غير بعيدة من موسكو . المعرب .

الكركى البرى المنتظمة فى مكان ما ، وبدت كما لو انها رطبة ايضا .

اتكأ الرجل بمرفقه على النافذة ، بينما أسندتْ المرأة رأسها الى كتفه .

وقال : – حدث وان عشتُ فى هذه الانحاء أيام العطلة . فقد عملت معلما معيدا فى احدى الضياع الريفية التى تبعد خمسة فراسخ عـن هذا المكان . انها منطقة كئيبة . غابـــة صغيرة وعقاعق وبعوض وصقر الناموس . وليس هناك ما يسرّ العين . ولا يمكن التمتع برؤية الافق فى البيت الا من الطابق العلوى . والبيت من طراز البيوت الريفية الروسية ، طبعا ، غير انه مُهمل جدا ، – فاصحابه من الذين اضاعوا ثروتهم ، – ووراء البيت ثمة ما يشبـــه الحديقة ، ووراء الحديقة هناك ما يشبه البحيرة أو المستنقع ، نمت فيه احراش قصب اليراع وزنابق الماء ، وثمة زورق حتما عند الضفة الموحلة .

– وطبعا ، فتاة من اهل البيت الريفى تملّكها السأم ، كنت تتنزه معها فى الزورق بهذا المستنقع .

– نعم ، كل شىء كما يجب . بيد ان الفتاة لم تكن البتة فريسة للسأم . وكنت اتنزه معهـــا فى اكثر الاوقات آناء الليل ، وبدا ذلك حتى شاعريـــاً . والسماء فى الغرب مشوبة بالخضرة وشفافة طوال الليل . وهناك وراء الافق ، كما هى الحال الآن ، شىء ما يتلظى ويتلظى . . ولم يكن لديّ سوى مجذاف واحد وبدا وكانه مجرفة ، كنت اجذف به كالمتوحش

– ذات اليمين ، وذات اليسار . وكانت العتمـــة تلف الضفة الأخرى بسبب الغابة الصغيرة ، الا ان تلك الجذوة الغريبة تبقى تتلظى وراءها طوال الليل . ويخيم فى كل مكان سكون عسير على الادراك – فثمة بعوض يطنطن وصقر الناموس يطير فحسب . وما كنت اعتقد أبدا انه يطير ليلا ، – وتبين انه يطير لأمر ما . شىء رهيب حقا .

فى نهاية المطاف انبعث هدير القطار القادم من الجهة المعاكسة ، فانطلق مصحوبا بجلجلة وبدفقات هواء ، شريطا ذهبيا اندمجت فيه أضواء النوافذ ، ومضى مبتعداً . وفور ذلك تململت العربة . ودلف الكمسارى الى المقصورة ، واشعل النور فيها وصار يهيء الفراش .

– وبعد . . ماذا جرى لك مع هذه الفتاة ؟ غرام حقيقى ؟ انك لسبب ما لم تحدثنى عنها أبدا . وما كان مظهرها ؟

– نحيفة ، طويلـــة القامة . ترتدى سارافانا * قطنيا أصفر وخفّين بسيطين فى قدميها العاريتين ، تمت حياكتهما من الصوف المتباين الالوان .

– أي من الطراز الروسى أيضا ؟

– اظن هذا ، على الاغلب من طراز يمليه الاملاق . لم يكن لديها رداء آخر فلا بد من لبس السارافان . علاوة على ذلك كانت رسامة ، وتدرس فى معهـــد

* السارافان – رداء طويل بدون اكمام هو لبـاس الفلاحات الروسيات . **المعرب** .

ستروجانوف لفن التصوير . كما انها نفسها بدت كما لو كانت خارجة من لوحة زيتية ، وحتى من ايقونة . فتتدلى على ظهرها ضفيرة سوداء طويلة ، ووجهها أسمر تزينه شامات دقيقة قاتمة ، وانفها مستقيم رفيع ، وعيناها سوداوان ، وحاجباها اسودان . . . وشعرها جاف وقاس ، ومجعّد قليلا . وبدا هذا كله مع الرداء الأصفر ، واكمام القميص البيضاء الرقيقة ، جميلا جدا . الكاحلان والقدمان فى الخفين — كلها عجفاء ، مع العظام البارزة من تحت البشرة السمراء الرقيقة .

— انا أعرف هذا الطراز . كانت لي صديقة كهذه ايام الدراسة . لا بد وانها ذات طبع هستيرى .

— ربما . لا سيما وان محياها كان شبيها بأمها ، والأم ، وأصلها أميرة ما تسرى فى عروقهـــا الدماء الشرقية ، كانت تعانى من داء مثل السوداء . وكانت لا تحضر سوى الى المائدة . فتخرج من غرفتهـــا وتجلس وتصمت ، وتسعل ، دون ان ترفع بصرها ، وهى لا تنى تنقل السكين او الشوكة من موضع الى آخر . ولئن تحدثت بغتة ، فيجرى هذا بصورة غير متوقعة وبصوت عال جدا ، مما يجعلنى أجفل .

— والأب ؟

— صموت وجاف ايضا ، وطويل القامة . عسكرى متقاعد . ولم يتسم بالبساطة والظرافة سوى ابنهما الصبى الذى كنت اذاكر معه الدروس .

طلع الكمسارى من المقصورة ، وقال ان الفراش جاهز ، وتمنى لنا ليلة طيبة .

— وما كان اسمها ؟

— روسا .

— ما هذا الاسم ؟

— بمنتهى البساطة — ماروسا .

— اذن هل كنت مغرما جدا بها ؟

— طبعا ، تراءى لي اننى ولهان للغاية .

— وهى ؟

فسكت ثم رد بجفاء :

— على الارجح هذا ما كان يتراءى لها ايضا . هيا الى الرقاد . لقد تعبتُ كثيرا خلال هذا اليوم .

— يالها من مكرمة ! اذ اثرت اهتمامـــى عبثاً فحسب . هيا حدثنى ولو باختصـــار ، بم انتهت قصتكما الغرامية .

— انها بلا نهاية . اذ رحلتُ وانتهت القصة .

— ولِمَ لمْ تتزوجها ؟

— كما يظهر ، تملكنى هاجس بأننى سألقاك .

— لا ، قل بجد .

— اذن لأننى انتحرت بطلقة ، بينما طعنت هى نفسها بخنجر . . .

ثم اغتسلا ونظفـــا اسنانهما ، واوصدا الباب منزويين فى زحمة المقصورة ، ونزعا ملابسهمـــا واستلقيا بانشراح ومتعة المسافرين فى الطريـــق حين يرقدون تحت قماش الشراشف الناصع وفوق

وسائد مماثلة لها ، مـــا انفكت تنزلق من طرف السرير المرتفع قليلا .

كانت الكوة الزرقاء – البنفسجية فوق البـــاب تختلس النظرات بهدوء الى قتام الليل . وسرعان ما استسلمت المرأة للكرى ، بينما بقي هو يقظاً ، وراقداً ، ينفث الدخان مسترجعا فى خياله ذكريات ذلك الصيف . . .

لقد كانت تزين جسدها ايضا شامات دقيقة سوداء كثيرة – وهذه الخاصية مبعث فتنة . ولأنها تمشى فى حذاءين خفيفين ، بلا كعبين ، فان جسدها كله كان يرتجّ تحت السارافـــان الاصفر . والسارافان هذا فضفاض ، وخفيف ، وبدا جسدها الفتى الطويل طليقا فيه . وحدث مرة ان تبللت قدماها فى المطر ، فهرعت من الحديقة الى غرفة الاستقبال ، واندفع هو لنزع حذاءيها ولثم قدميها الرفيعتين المبللتين – ولم يشعر بمثل هذه السعادة فى حياته كلها . كان المطر الندي والفيّاح ينهال داويا بسرعة متزايدة وبكثافة اكبر ، وراء الابواب المفتوحة المؤدية الى الشرفة ، والجميع نيام فى البيت بعد تناول طعام الغداء – وما أشد ما أثار الرعب فى نفسه ونفسها ديـك أسود ضارب لونه الى الخضرة المعدنية وبعرف أحمر قانٍ كبير ، عندما ولج بغتة مهرولا من الحديقة ايضا ، ومخالبه تطقطق فوق الارضية فى ذروة تلك اللحظة حين نسيا التزام اية حيطة وحذر . وعندما رأى كيف وثبا من الاريكة انكفأ ، بعجلة وبهيئة ملتوية ، كما

لو فعل هذا تأدبا ، راجعا للمشى تحت المطر وقد ارخى ذنبه المتألق . . .

فى بداية الأمر كانت ترمقه باستمرار . وعندما كان يبادلها الحديث تصطبغ بحمرة شديدة وترد بغمغمة ساخرة . ولدى تناول الطعام غالبا ما تناكده مخاطبة أباها بصوت عال :

– عبثا ، يا بابا ، ان تقريه . فهو لا يحب الفطائر المسلوقـــة . بالمناسبة هـــو لا يحب حساء الاوكروشكا * ، كما لا يحب الشعرية ، بينما يحتقر اللبن الرائب ، وتعاف نفسه الشيراز .

فى الصباح كان ينشغل بأمر الصبى ، اما هـى فتنشغل بتدبير امور المنزل – اذ تحمل عبء البيت كله . وكانوا يتناولون الغداء فى الساعة الواحدة ، وبعده كانت تعتكف فى الطابق الاعلى او ، حين لا يهطل المطر ، تمضى الى الحديقة حيث ينتصب مسند لوحاتها تحت شجرة بتولا وتنهمك فى الرســم من الطبيعة ، طاردة البعوض عنها بيدها . ثم صارت تاتى الى الشرفة حيث يجلس بعد الغداء عادة بصحبة كتاب فى مقعد مائل من القصب ، وتقف ويداها وراء ظهرها متطلعة اليه بسخرية مبهمة :

– هل يمكن ان أعرف اية علوم تدرس ؟

– تاريخ الثورة الفرنسية .

* حساء يقدم باردا ويصنع من شراب (الكفاس) مع الخضروات واللحم . **المعرب** .

– آه ، يا آلهى ! لم أكن أعرف بوجود ثوري في بيتنا !

– هل تخليتِ عن التصوير الزيتى ؟

– بعد قليل سأتخلى عنه تماما . لقد اقتنعت بأننى لا امتلك الموهبة .

– دعينى أرى شيئا من أعمالك .

– او تعتقد انك تفهم شيئا فى التصوير الزيتى؟

– أنت أنوفة للغاية .

– هذا حق . . .

فى نهاية المطاف عـــرضتْ عليه مرة التنـــزه بالقرب فى البحيرة ، وفجأة قالت بحزم :

– أظن ان فترة الامطار «بمنطقتنا الاستوائية» قد انتهت . فدعنا نتسلى . حقا ان زورقنا المهلـــك منخور جدا وفى قعره ثقوب ، بيد اننى سددتهـــا جميعا مع بيتيا بواسطة ألياف العشب . . .

كان الجو قائظا ، وخما ، أما الحشائش على الضفة المرقشة بأزهار عماء الغبشة ذات اللون الاصفر ، فقد سخنت بالحرارة الرطبة لحد الاختناق ، وحامت فوقها عن كثب فراشات خضراء شاحبة لا حصر لها .

كان قد استوعب لهجتها الساخرة دائما فقال وهما يدنوان من الزورق :

– وأخيرا تكوّمتِ عليّ !

فردّت بسرعة :

– وأخيرا استجمعت عزيمتك لكى تردّ علي !

وقفزت الى جؤجؤ الزورق ، فأفزعت الضفـــادع

التى اخذت تتساقط فى الماء من كافة الانحاء ، وبغتة رفعت عقيرتها بالصراخ وشالـــت الرداء الى اعلى الركبتين ، مدبدبة بقدميها :

– حية ! حية !

ولمح بصورة خاطفة السمرة المتألقة لساقيهـا العاريتين واختطف المجذاف من الجؤجؤ وانهال بـه على الحية التى كانت تتلوى فى قعر الزورق ، وبعد ان سحقها رماها فى الماء .

علاها شحوب مثل شحوب الهنود ، وغدت الشامات على وجهها أكثر قتامة ، وبدا كما لو ان شعرهـــا وعينيها ازدادت اسوداداً . وتنفست الصعداء وقالت :

– اوه ، يا لقباحتها ! ليس عبثـــا ان اشتقت كلمة الهول من هذه الحية * . انها تتواجد عندنـــا فى كل مكان ، فى الحديقـــة ، وتحت البيت . . تصور ان بيتيا يمسكها بيديه !

وتحدثت لأول مرة ببساطة معه ، وتناظرا لأول مرة فى احدهما الآخر مباشرة .

– يا لك من شاطر ! وبأية مهارة ضربتها !

هدأت من روعها تماما ، وابتسمت ، وهرولت من الجؤجؤ الى الكوثل ، وجلست بجذل . وقد اذهلتـــه بجمالها حين أصابها الفزع ، وصار وقتئذ يفكـــر بحنان : انها ما برحت صبية صغيرة ! الا انه تظاهر بعدم المبالاة ، واستقل الزورق بانشغال بال ، ثم

* كلمة ужас بالروسية تعنى الهول وكلمة уж تعنى الحية الحفث . **المعرب** .

دفع المجذاف على القاع الهلامى ، واستدار بالزورق ومقدمته الى الامام ومضى بـــه الى حرج الاعشاب المائية المتشابكة نحو فرش القصب الخضراء وزنابق الماء المزهرة التى تغطى كل شىء امامهما بطبقة كثيفة من اوراقها المدورة السميكة ، وبلغ به عرض الماء الصافي وجلس على المصطبة فـــى وسط الزورق ، جاذفا يمينا ويسارا .

وهتفت قائلة :

– جميل ، أليس كذلك ؟

فأجاب بقوله : جميل جدا ! – وهو ينزع قبعته ، وناولها اياها : – أرجوك ضعيها الى جانبك ، والا فسأسقطها فى هذا الطست الذى يتسلل الماء اليه ، كما انه ، وارجو المعذرة ، ملىء بالعلق .

ووضعت القبعة على ركبتيها .

– لا تتعبى نفسك ، ارميها اينما كان .

فضغطت القبعة الى صدرها :

– لا ، سأحافظ عليها !

وجف قلبه بحنان مرة أخرى ، لكنه اعرض عنها مرة أخرى ، وأخذ يدفع المجذاف بقوة فى المـاء اللامع وسط احراش القصب وزنابق الماء .

وصار البعوض يلتصق بوجهه وذراعيه ، وغمر كل ما حواليه نور فضى دافىء يغشى الابصار : الهواء الرطب ، ونور الشمس المترجرج ، وبياض السحب الملبدة ، التى تنبلج بنعومة فى السماء وعلى صفحة الماء وسط جزر القصب وزنابق المـــاء . وكانت المياه ضحلة فى كل مكان بدرجة تجعل القاع مرئيا على الاعشاب المائية ، الا انه لم يقض لأمر ما على صورة تلك الاعماق التى بدا ان لا نهاية لها حيث ينداح انعكاس السماء مع السحب . وبغتة صرخت مـــرة اخرى – فقد جنح الزورق جانبا : اذ مدت يدها من الكوثل وتعلقت بساق زنبقة ماء وسحبتها بشدة اليها فمالت مع الزورق – ولحق بصعوبة فى القفـــز والامساك بها من الابطين . وقهقهت ، وبعـــد ان استلقت على ظهرها فوق الكوثل ، رشت الرذاذ من يدها المبللة فى عينيه مباشرة . وعندئذ أمســك بها دون ان يدرى ما يفعل وطبع قبلة على شفتيها المكركرتين . بينما طوقته بسرعة فى رقبته ولثمته فى خده بسذاجة . . .

ومنذ ذلك اليوم صارا يتنزهان فى الزورق ليلا . ففى اليوم التالى دعته الى الحديقة بعد الغداء وسألته :

– هل تحبنى ؟

فردّ بحماس متذكرا قبلات مساء يوم أمس فى القارب :

– منذ اليوم الأول للقائنا !

وقالت :

– وأنا ايضا . كلا ، فى البداية كرهتك – اذ تراءى لى أنك لا تلقى بالا اليّ ابدا . لكن ، والحمد لله ، اصبح هذا بحكم الماضى . اذهب الى هناك مرة أخرى مساء اليوم ، حالما يرقد الجميع ، وانتظرنى . لكن التزم الحذر قدر الامكان لدى الخروج مـــن

البيت – فأمي تراقب كل خطوة من خطواتي ، انها غيورة لحد الجنون .

جاءت الى الضفة ليلا حاملة حراما صوفيا على يدها . وقد استقبلها بارتباك لسروره ، وسأل فقط :

– ولم الحرام ؟

– يالك من مغفّل ! سيصيبنا البرد . هيا اصعد بسرعة واجذف الى الضفة الأخرى . . .

والتزما الصمت طوال الطريق . وحين اقتربا من الغابة على الضفة الأخرى قالت :

– حسنا . الآن تعال اليّ . أين الحرام ؟ آه ، انه تحتي . دثّرني ، فقد بردت ، واجلس . هكذا . . . لا ، مهلا ، يوم أمس تبادلنا القبلات بصورة مشوشة ، اما الآن فسأقبلك أولا ، فقط بهدوء ، بهدوء . وأنت احتضنني ، بكل كيانك . . .

كان تحت السارافان قميص نوم فقط . ولثمته في أطراف شفتيه برقة ، وهي لا تكاد تمسها . اما هو فقد خيمت غشاوة على عقله ، فطرحها على كوثل الزورق . بينما طوقته بذراعيها في نشوة . . .

بعد ان استلقت خائرة القوة نهضت قليلا وقالت وقد ارتسمت على ثغرها ابتسامة تنم عن الاعياء النشوان وبالألم الذي لم تخف حدته بعد :

– نحن الآن زوج وزوجة . تقول أمي انها ستموت ان تزوجتُ ، بيد انني لا أريد التفكير في

هذا الآن . . . اسمع ، أودّ ان أستحم ، انني أحبّ كثيرا الاستحمام في الليل . . .

خلعت ملابسها من رأسها ، وبدا في العتمة جسدها الابيض الطويل وأخذت تلف شعرها في ضفيرة ، رافعة ذراعيها ، فظهر الابطان القاتمان والنهدان النافران ، دون ان تخجل من عريها والمثلث الأسود تحت البطن . وبعد ان لفت شعرها ، قبلته بسرعة ، وانتصبت على قدميها ، وهوت في الماء منبسطة ، مادة رأسها الى الوراء ، وطرطشت بقدميها بصخب .

ثم ساعدها بعجلة على ارتداء ملابسها والتدثر بالحرام . وتراءت في حلكة الظلام بصورة ساحرة عيناها السوداوان وشعرها الاسود ، الملفوف بضفيرة . ولم يتجرأ على لمسها أكثر ، بل كان يلثم يديها فقط ويلتزم الصمت لسعادته الغامرة . وبدا لهما طوال الوقت ان هناك مَنْ يقف ويتصنت في عتمة الغابة القريبة على الضفة ، حيث تنير في بعض الأماكن منها اضواء اليراع بصمت . واحيانا كانت تتردد هناك خشخشة حذرة . فرفعت رأسها :

– اسمع ، ما هذا ؟

– لا تخافي ، هذه ، على الارجح ، ضفدعة تقفز الى الضفة . او قنفذ يسير في الغابة . . .

– ماذا لو كان التيس ذو القرنين ؟

– اي تيس ؟

– لا ادري . تصور فقط : يخرج من الغابة تيس

ما ، فيقف ويتفرس . . . أنا سعيدة جدا ، وبودى ان أثرثر بأشنع الترهات !

وبدأ مرة أخرى يضغط بشفتيه على يديها ، وبين الفينة والفينة يقبل نهديها الباردين لو كانا شيئا مقدسا . لقد غدت بالنسبة له كائنا آخر تماما ! ووراء قتام الغابة الواطئة كان يومض دون ان يخمد ذلك الغسق المائل للاخضرار ، الذى ينعكس ضعيفا فوق صفحة الماء البيضاء المنداحة بعيدا ، وفاحت رائحة نفاذة ، شبيهة برائحة الكرفس ، من النباتات الندية النامية على الضفة ، وتذمر بغموض ، شاكيا ، البعوض الذى ما كانت تراه العين – كان صقر الناموس الرهيب الساهد يطير ويطير بفرقعة خافتة فوق الزورق وابعد منه ، فوق ذلك الماء المتألق فى عتمة الليل . بينما ، وفى مكان ما ، واصل احدهم حركته فاذا به يخشخش ويكشكش ويحف . . .

بعد أسبوع طرد من البيت شرّ طردة ، مجللا بالخزى والعار ، مصعوقا من هول الفراق المفاجىء تماما .

فقد حدث ان جلسا فى غرفة الاستقبال بعد تناول طعام الغداء ، وانهمكا فى التطلع الى الصور فى اعداد قديمة من مجلة «نيفا» ، وقد تلامس رأساهما . وسألها بصوت خافت ، متظاهرا بالنظر فى الصور باهتمام :

– هل ما زلت تحبيننى ؟

فهمست له :

– مغفل . أنت مغفل للغاية !

وبغتة تناهى الى سمعهما صوت خطوات خفيفة سريعة – كانت أمها شبه المجنونة تقف فى العتبة بروب حريري أسود مهلهل وبابوج ممزق من السختيان . وقد برقت عيناها السوداوان ببريق ماساوى . وولجت الغرفة مسرعة ، كما لوكانت تدخل خشبة المسرح ، وصرخت :

– لقد فهمت كل شىء ! وحدثنى قلبى ، واقتفيت اثاركما ! يا وغد ، انها لن تكون لك أبدا !

ثم سحبت يدها من الكم الطويل وأطلقت عيارا يصم الآذان من مسدس قديم ، كان بيتيا يفزع به العصافير ، ويحشوه بالبارود فقط . فاندفع نحوها وسط الدخان ، وأمسك بيدها المتشنجة . وافلتت من قبضته وضربته على جبهته بالمسدس ، فانبجس الدم من حاجبه المشقوق ، ثم قذفت المسدس نحوه ، وعندما سمعت الدبدبة فى البيت التى اثارها الصراخ واطلاق النار ، أخذت تصيح بهيئة مسرحية اكثر ، والزبد يغطى شفتيها الزرقاوين :

– لن تنالها الا عبر جثتى ! ولئن هربتْ معك ففى اليوم نفسه سأشنق نفسى ، وسأقفز من السطح ! اخرج من بيتى يا وغد ! ماريا فكتوروفنا . . . عليك ان تختارى بين امك وبينه !

لكن الفتاة همست :

– أنت ، أنت ، يا ماما . . .

استيقظ ، وفتح عينيه – كانت الكوة الصغيرة

الزرقاء البنفسجية فوق الباب ترمقه من العتمة القاتمة بالاطراد والغموض ذاته ، بنظرات وكأنها صادرة من دياجير ظلمة القبر ، بينما انطلقت عربة القطار متأرجحة نحو الامام بالسرعة المطردة ذاتها . كانت تنأى عنه تلك المحطة الصغيرة الكئيبة . كما ان هذا كله قد حدث قبل عشرين سنة خلت بما فيه من الغابات الصغيرة والحقول والعقاعق والمستنقعات وزنابق الماء والحيّات والغرانق . . نعم ، كانت هناك غرانق أيضا – كيف نسيها ! كان كل شيء غير اعتيادى فى ذلك الصيف الرائع ، كما كان غير اعتيادى زوج من الغرانق وفدا طائرين ، من مكان ما ولفترة ما ، الى ضفاف المستنقع ، وكونهما لم يسمحا لأحد سواها بالاقتراب منهما ، ويرنوان اليها ، بعنقين رفيعين ملتويين ، من الاعلى بنظرات صارمة جدا ، لكنها تنم عن التسامح والفضول ، عندما كانت تهرول نحوهما بنعومة وخفة بحذائيها الزاهيين ثم تجلس القرفصاء فجأة امامهما ، ناشرة سارافانها الاصفر فوق العشب الرطب والدافئ على الضفة ، وتحدق بدلع طفولى فى عيونهما السوداء الشزراء الجميلة ، المطوقة بحلقات رمادية غامقة . اما هو فكان يراقبها ويراقبهما من بعيد ، بواسطة المنظار ، فيرى بوضوح رأسيهما الصغيرين اللامعين ، وحتى مناخيرهما العظمية ، وفتحتى منقاريهما القويين الكبيرين اللذين بوسعهما الاجهاز على الحيات بنقرة

واحدة . وكان جسماهما القصيران ، اللذان تتدلى منهما حزمتان كثتان حيث موقع الذيل ، مغطيين بريش رمادى لامع متراص ، وكانت سيقانهما المستقيمة كالعصى المحشرفة طويلة ورفيعة بصورة خرقاء – ولدى احدهما سوداوان تماما ، ولدى الآخر تميلان الى الاخضرار . وكانا كلاهما يقفان احيانا الساعات الطوال على ساق واحدة فى سكون غامض ، وفى احيان أخرى يشرعان فى الرقص دون وازع ، ناشرين اجنحتهما الضخمة . وتارة تجدهما يتنزهان بوقار وأبهة ، ويمشيان الهوينا بانتظام ، وحينما يرفعان سيقانهما تتجمع الاصابع الثلاثة معا ، وحينما ينزلانها تنتشر منتصبة كمخالب الوحش ، وهما يهزان رأسيهما باستمرار . . . لكن عندما كانت تهرع اليهما ، لم يكن يفكر فى شيء ولا يرى شيئا – بل يرى فقط سارافانها المنشور على الارض ، فيرتجف بشهوة طاغية لدى تصور جسدها الاسمر تحته ، والشامات القاتمة التى تزينه . وفي يومهما الأخير ذاك ، وحين كانا فى جلستهما الاخيرة معا على الاريكة فى غرفة الاستقبال يتصفحان مجلد مجلة «نيفا» القديمة ، كانت تمسك هذه المرة ايضا قبعته بيديها ، ضاغطة اياها على صدرها كحالها يومذاك فى الزورق . وقالت له وعيناها السوداوان المرآويان تتألقان بجذل :

– لكم أحبك الآن ، حتى لا يوجد لى من شيء أعزّ عليّ من هذه الرائحة المنبعثة من داخل القبعة ،

رائحة رأسك وماء الكولونيا الكريه الذى تستعمله !

عندما مر القطار بكورسك ، وجلس فى عربة المطعم بعد الفطور يحتسى القهوة مع الكونياك قالت له زوجته :

– ما لك تكثر من الشرب هكذا ؟ أظنها القدح الخامسة . أما زلت تواصل كآبتك وتتذكر فتاتك فى البيت الريفى ذات القدمين البارزتى العظام ؟

فأجاب بتكشيرة :

– مكتئب . . مكتئب . . فتاة البيت الريفى . . .

• Amata nobis quantum amabitur nulla !

– أهذا باللاتينية ؟ ما معناه ؟

– لا حاجة لك لمعرفة ذلك .

– يا لك من فظ .

قالت هذا ، متنهدة بلا اكتراث ، وصارت تتطلع الى النافذة التى تغمرها الشمس .

٢٧ سبتمبر ١٩٤٠

• ان المرء يعشق مرة واحدة (باللاتينية فى الأصل) .

حسناء

تزوج موظف فى ديوان الحكومة ، وهو أرمل ، كهل ، حسناء شابة ابنة قائد عسكرى . كان صموتاً ومتواضعاً ، بينما كانت تعرف حق قدرها . وكان نحيفاً طويل القامة توحى هيئته بأنه مسلول ، ويضع على عينيه نظارات بلون صبغة اليود ، ويتحدث بصوت أبح نوعا ما ، وان اراد قول شيء ما بصوت اعلى يأخذ بالصأصأة . اما هى فكانت قصيرة القامة ، رشيقة ومتينة البنيان ، انيقة الهندام دائما ، شديدة العناية ماهرة فى تدبير شئون المنزل ، وذات نظرة ثاقبة . وبدا غير جذّاب للغاية من كافة النواحى ، مثل غالبية موظفى المحافظات ، إلا انه تزوج فى المرة الاولى حسناء ايضا – وكان الجميع يعجبون فحسب : لأى شيء ولِمَ تتزوجه نساء كهذه ؟

واذا بالحسناء الثانية تكره ، ببرود ، صبيه من زوجته الاولى الذى بلغ السابعة من العمر ، وتظاهرت بأنها لا تراه البتة . وآنئذ صار الأب ايضا ، خوفا منها ، يتظاهر كما لو لم يكن لديه ابن ابدا . وأخذ الصبى ، المفعم حيوية بطبيعته ، والبشوش ، يخاف قول كلمة بحضورهما ، ثم

انكمش تماما ، واصبح كما لو لم يكن له وجود فى البيت .

وبعد الزفاف فوراً تم نقله للرقاد من غرفة نوم أبيه الى ديوان صغير فى غرفة الاستقبال ، وهى غرفة صغيرة تقع بالقرب من غرفة الطعام ويزينها اثاث من القطيفة الزرقاء . بيد ان نومه كان مضطربا وفى كل ليلة يسقط الشرشف واللحاف على الأرض . وسرعان ما قالت الحسناء للوصيفة :

– يا للشناعة ، انه سيحك القطيفة كلها على الديوان . افرشي له ، يا ناستيا ، على الأرض ، على تلك الحشية التى امرتك باخفائها فى الصندوق الكبير للسيدة المرحومة فى الدهليز .

وصار الصبى ، فى وحدته الكاملة فى الدنيا قاطبة ، يحيا حياة مستقلة تماما ، – منعزلة ، غير ملحوظة ، ومتشابهة رتيبة من يوم الى آخر : فكان يجلس فى ركن من غرفة الاستقبال ، ويرسم البيوت على لوحة الاردواز او يقرأ هامساً مع التهجي الكتاب ذا الصور ذاته ، الذى اشترى له فى حياة امه المرحومة ، ويحدق فى النوافذ . . . وينام على الأرض بين الديوان والبرميل الذى تنمو فيه نخلة . ويفرش الفراش لنفسه فى المساء ويجمعه ويلفه بنفسه فى الصباح ويحمله الى صندوق أمه فى الدهليز . وتحفظ هناك جميع حاجياته الاخرى .

٢٨ سبتمبر ١٩٤٠

انتيجونا

فى يونيو غادر الطالب ضيعة أمه لزيارة عمه وعمته ، – فقد وجبت رؤيتهما ومعرفة كيف احوالهما وكيف صحة عمه الجنرال المقعد . كان الطالب يؤدى هذا الواجب غير المريح فى كل صيف ، والان مضى بهدوء طائعا ، كان يطالع بلا عجلة فى عربة الدرجة الثانية ، واضعا على مسند الاريكة فخذه المدور الغض ، الكتاب الجديد لافيرتشينكو ، متطلعا ساهما فى النافذة الى كيف تهبط وتعلو اعمدة التلغراف ذات الصحون الخزفية البيضاء الشبيهة بازهار سوسن الغابة . بدا شبيها بضابط شاب – فلم يكن لديه ما ينم عن كونه طالبا سوى القبعة البيضاء ذات الحافة الزرقاء . اما ما عدا ذلك من ملابسه فهو من الطراز العسكرى . الجاكتة البيضاء العسكرية وسراويل الركوب المائلة للخضرة والجزمتان اللتان صنع بوزاهما من الجلد الصقيل ، وعلبة السجاير المزودة بفتيل زناد برتقالى اللون .

كان عمه وعمته من الاثرياء . وحين كان يعود من موسكو الى البيت يجد فى انتظاره عربة شحن ثقيلة وحصانين ضخمين غليظين وعاملا وليس

حوذيا . وفى المحطة حيث ضيعة عمه يدلف دائما ولفترة ما الى حياة مغايرة تماما لما اعتادها ، يدلف الى سعادة الرفاه الكبير ، ويشعر بانه نشيط ووسيم ومتحذلق فى التأدب . وهذا ما حدث يومذاك . فقد صعد بلا ارادته بتأنق وطيش فى العربة الخفيفة ذات العجلات المغلفة بالمطاط ، التى قرنت بها ثلاثة جياد كميتة ، كان يقودها حوذى شاب يرتدى صديرية زرقاء وقميصا حريريا اصفر .

بعد ربع ساعة وصلت العربة مسرعة وانبعث منها رنين الجلاجل الناعم على الجياد وحفيف العجلات على الرمال المحيطة بجنينة الزهور الى الفناء الدائرى للضيعة الكبيرة ، الى السطحة عند مدخل البيت الفسيح الجديد المؤلف من طابقين . فخرج الى السطحة لحمل الامتعة خادم فارع الطول بفودين قصيرين يرتدى صديرية حمراء ذات خطوط سوداء ، وحذاءين . ترجل الطالب من العربة واثبا بحركة خفيفة وواسعة للغاية : ظهرت العمة عند عتبة المجاز مبتسمة ومترنحة فى مشيتها وقد تسربلت برداء واسع من قماش التيسور يغطى بدنها الضخم المترهل ، ووجهها كبير متهدل القسمات ، وانفها معقوف ، وثمة بقع صفراء تحت العينين اللوزيتين . فقبلته فى خديه بمودة الاقرباء . بينما انحنى بفرح مصطنع ليلثم يدها الناعمة القاتمة ، وجال فى خاطره بسرعة : يتعين على الكذب بهذه الصورة طوال ثلاثة ايام كاملة ، وفى اوقات الفراغ لن اعرف ما اشغل

به نفسى ! ثم رد بتكلف وبعجلة على اسئلتها المتكلفة عن امه وتبعها الى البهو الكبير . تطلع بكره جذل الى الفزاعة المحدودبة نوعا لدب أسمر ذى عينين زجاجيتين لامعتين ، كان يقف عند المدخل فوق السلم العريض المؤدى الى الطابق العلوى ملتوى القائمتين منتصب القامة ، ممسكا بوقار فى رجليه ذواتى المخالب صحنا برونزيا لبطاقات الزيارة . وبغتة توقف الطالب لحظة من الدهشة السارة : ثمة حسناء فارعة ممشوقة القد بفستان رمادى خشن ومريلة بيضاء ومنديل رأس ابيض ، ذات عينين رماديتين واسعتين ، يشع فى كيانها كله العنفوان ، والعافية ، والطهارة ، وبريق اليدين الناعمتين ، ومحياها الابيض اللامع ، كانت تدفع نحوه بانسياب مقعدا بعجلات يجلس فيه الجنرال البدين الشاحب الوجه الازرق العينين . وبعد ان لثم يد العم وجد الفرصة ليرمق الرشاقة العجيبة لجسدها وساقيها . فمزح الجنرال قائلا : هذه انتيجونتى ، دليلتى الطيبة ، بالرغم من اننى لم افقد بصرى مثل اوديب ، وبالاخص فيما يتعلق بالنساء الفاتنات . فلتتعارفا أيها الشاب والشابة .

ارتسمت على محياها ابتسامة خفيفة ، وردت على انحناءة الطالب بالانحناءة فقط .

قاده الخادم الفارع الطول ذو الفودين القصيرين والصديرية الحمراء بمحاذاة الدب الى الاعلى ، عبر السلم الخشبى الصقيل القاتم الصفرة ، الذى يغطيه بساط احمر فى الوسط ، والى طرقة مماثلة ، وادخله

الى غرفة نوم كبيرة بجانبها غرفة تواليت مرمرية – فى هذه المرة افردت له غرفة أخرى غير غرفتـــه السابقة ، وتطل نوافذهـــا على المنتزه وليس على الفناء . لكنه مشى دون ان يرى شيئا . كانت ما انفكت تراوده الافكار السخيفة التى رافقته فى طريقه الى الضيعة ، – «ان عمى مثال الاستقامة والشرف» * – الا ان افكارا أخرى صـــارت تتردد فى الوقت نفسه : يالها من امرأة !

بدأ يحلق ذقنه ويغتسل ويغير ملابسه وهو ينشد بعض الالحان ، وارتدى سراويل ذوات شريطين من الاسفل .

«توجد فى الدنيا نساء كهذه ! وماعسى المرء ان يهب ليكسب حب امرأة كهذه ! وكيف يمكن لامرأة لها مثل هذا الحسن ان تدفع الشيوخ والعجائز فـى مقاعد بعجلات !»

غمرت رأسه افكار بلهـاء . ماذا لو قررت البقاء هنا لفترة شهر او شهرين ، لو عمدت سرا دون ان يعرف ذلك الاخرون الى كسب صداقتها ومودتها ونيل حبها ، ومن ثم القول لها : لتصبحى زوجة لى ، اننى ملك لك الى ابد الابدين . ولا يعنى شيئـــا بالنسبة لى من اجلك امى وعمتى وعمى وذهولهـم حين اعلن لهم عن حبنا ، وعن قرارنا بربط حياتينا ، وغضبهم ، ومن ثم حججهم لاقناعى ، وصراخهـــم

* عن رواية «يفغينى أونيغين» الشعرية لبوشكين . **المعرب** .

ودموعهم ولعناتهم وحرمانى من الميراث . وبينما كان ينزل السلالم بسرعـــة الى العمة والعـم ، – كانت غرفتاهما فى الاسفل – راودته فكرة : «اية سخافة حقا تلج راسى ! يمكن طبعا البقاء هنا بذريعة ما . . . ويمكن البدء بالمغازلـــة دون ان يلحظ هذا احد ، والتظاهر باننى عاشق موله . . لكن هل سيتسنى لى بلوغ شىء ما ؟ وان تسنى لى ذلك ، فماذا بعد ؟ كيف سيتم لى التخلص من هذه الورطة ؟ هل من المعقول اننى ساضطر الى الزواج ؟»

جلس قرابة الساعة مع العمة والعم فى غرفـــة مكتبه الفسيحة ، ذات طاولة الكتابـــــة الضخمة ، والاريكة الثقيلة المغطاة بقماش تركستانى ، والسجاد المعلق على الجدار فوقها ، وقد علقت عليه اسلحة شرقية بهيئة متصالبة ، وفيها طاولات مطعمة مخصصة لادوات التدخين ، وكذلك الموقـــد المزين بصورة فوتوغرافيـــة كبيرة لالكسندر الثانى ذات اطار من خشب الورد وفوقه تاج مذهب . كانت الصورة تحمل توقيعا مخربشا : الكسندر * . . .

قال فى نهاية المطاف ، وافكـــاره تطوف حول الممرضة :

– لكم انا سعيد ، يا عمى وعمتى ، اننى معكما مرة أخرى ، وما أروع العيش عندكمـــا ! ساسف كثيرا عندما اغادر كما .

* المقصود قيصر روسيا الكسندر الثانى . **المعرب** .

فرد العم :

– ومن الذى يطردك . الى اين انت فى عجلة من امرك ؟ ابق ما يحلو لك البقاء حتى يصيبك السأم .

فقالت العمة ساهمة :

– طبعا . . .

كان فى جلوسه وحديثه ينتظر على الدوام : ها هى على وشك الدخول – اذ تعلن الخادمة ان الشاى جاهز فى غرفة الطعام ، فتأتى هى لدفع عربة العم . لكن الشاى قدم فى غرفة المكتب ، فتم جلب مائدة بعجلات وعليها غلاية شاى فضية موضوعة على موقد كحولى ، وقامت العمة نفسها بتقديم الشاى . ومن ثم أمل طوال الوقت فى ان تجلب دواء ما الى العم . . . بيد انها لم تأت .

وجال فى خاطره لدى مغادرته غرفة المكتب :

– لتذهب الى الشيطان . . .

ثم دخل الى غرفة الطعام حيث كانت الخادمة تسدل الستائر على النوافذ العالية التى تغمرها اشعة الشمس ، وتطلع لامر ما نحو جهة اليمين عبر باب الصالة التى ومضت فيها الاطراف اللامعة لقوائم آلة البيانو منعكسة على الارضية الباركيه فى العتمة قبيل المساء . ومن بعد ذلك توجه الى اليسار الى غرفة الاستقبال التى تعقبها غرفة الجلوس . خرج من غرفة الاستقبال الى السطحة وهبط الى جنينة زهور زاهية وساطعة الالوان . واستدار حولها ومشى الهوينا فى الممشى الظليل العالى

الاشجار . . . كان الجو ما برح ساخنا تحت الشمس ، وكانت ثمة فترة ساعتين على وقت الغداء .

فى الساعة السابعة والنصف رنّ الجرس فى البهو . كان اول الداخلين الى غرفة الطعام المضاءة بثريا متألقة بجذل ، حيث وقف عند الطاولة بمحاذاة الجدار الطباخ البدين الحليق الرأس بملابس بيضاء منشاة ، والخادم الغائر الوجنتين مرتديا الفراك وقفافيز بيضاء محيوكة ، والوصيفة الصغيرة الحجم النحيفة نحافة فرنسية الطراز . وبعد هنيهة دخلت العمة بشعرها الاشيب اللبنى متمايلة فى مشيتها كملكة وترتدى فستانا حريريا بلون القش الوردى تزينه دنتلا لبنية اللون ، ذات طيات عند الرسغين فوق الحذاءين الحريريين الضيقين ، وفى نهاية المطاف – هى . لكنها بعد ان دفعت العم الى المائدة خرجت لتوها بانسياب ودون ان تلتفت ، – لم يلحق الطالب سوى بملاحظة مسحة غرابة فى عينيها : اذ لم يرف لها جفن . رسم العم على صدر جاكتته الجنرالية الرمادية الفاتحة شارات صليب مقتضبة مرارا ، ورسمت العمة والطالب شارات الصليب بورع واقفين ومن ثم جلسا بمهابة ، ونشروا جميعا المناديل الناصعة البياض . بان على العم بجلاء مرضه العضال بجسده المتهدل ووجهه الشاحب وشعره الخفيف الممسد المبلل ، غير انه كان يأكل ويتكلم كثيرا وبشهية . ولدى

الحديث عن الحرب هز كتفيه ، – كان هذا فى فترة الحرب الروسية – اليابانية : اى شيطان جعلنا نخوضها ! واخذ الخادم يقدم الطعام دون ان يلقى لهم بالا الى درجة المهانة ، بينما كانت الوصيفة المساعدة له تخطو خطوات دقيقة بقدميها الصغيرتين . والطباخ يضع الطعام فى الاطباق بمهابة الصنم . تناولوا حساء سمك ساخنا كالنار ولحما مقليا ينزّ منه الدم ، وبطاطس طازجة نثر فوقها الشبث . واحتسوا النبيذ الابيض والاحمر من كروم الامير غاليتسين احد اصدقاء عمه القدامى . تحدث الطالب واجاب ووافق بابتسامة مرحة ، لكن مثل الببغاء ، وفكره مشغول بالترهات ذاتها التى شغلته فى العشية حين ارتدى ملابسه . كان يفكر : اين اذن تتناول هى غداءها . هل من المعقول مع الخدم ؟ انتظر اللحظة التى تأتى فيها مرة اخرى وتنقل العم ، ثم يلقاها فى مكان ما ، ويتبادل معها حتى ولو بضع كلمات . بيد انها جاءت ودفعت المقعد ثم اختفت عن الانظار مرة اخرى فى مكان ما .

فى الليل كانت العنادل تغرد فى المنتزه بحذر وبهمة ، انبعثت عبر النوافذ المفتوحة لغرفة النوم طراوة الهواء وقطرات الطل والازهار المسقاة فى جنائن الزهور ، وغشيت جسمه البرودة من بياضات الفراش المصنوعة من النسيج الهولندى . رقد الطالب فى الظلام ، واراد ان ينقلب باتجاه الجدار

والاخلاد الى النوم . لكنه رفع رأسه فجأة ، ونهض قليلا : فقد رأى حين اخذ ينزع ملابسه بابا صغيرا فى طرف الجدار عند مقدمة السرير وادار فيه المفتاح من باب الفضول ووجد وراءه بابا آخر ، وحركه ، لكن ظهر انه مسدود من الخارج . كان عندئذ احدهم يمشى بخفة وراء هذين البابين ، ويفعل شيئا ما غامضا . فحبس انفاسه ، وانزلق من السرير وفتح الباب الاول وأصاخ السمع : صدر رنين خافت على الارض من وراء الباب الثانى . . . سرت القشعريرة فى بدنه : هل يصدق ان هذه غرفتها ! اخذ يتطلع عبر فتحة القفل – لحسن الحظ لم يكن فيها مفتاح ، ورأى نيورا وركن طاولة الزينة النسائية ، ثم شيئا ما ابيض ، نهض بغتة وغطى كل شىء . . . لم يخامره الريب فى ان تلك غرفتها – فمن تكون ان لم تكن غرفتها . ليس من المعقول اسكان الوصيفة هناك ، اما ماريا ايلينيتشينا ، الوصيفة العجوز لعمته ، فتنام فى الطابق الاسفل بالقرب من غرفة نوم العمة . كأنه قد سقم فورا لقربها منه ابان الليل هنا وراء الجدار ، ولتعسر الوصول اليها . وفارقه النوم فترة طويلة . استيقظ فى وقت متأخر من الضحى وفى تلك الساعة احس مجددا ورأى فى خياله وتصور قميص نومها الشفاف ، وقدميها العاريتين فى الخفين.

وجال فى خاطره وهو يشعل سيجارة :

– يجب السفر الان !

فى الصباح تناولوا القهوة كل فى غرفته . واحتساها جالسا فى قميص نوم عمه الفضفاض ، وفى الروب دى شامبر الحريرى لعمه ، ممعنا النظر فى نفسه بكآبة ، يائسا ، كاشفا الروب .

كان الجو معتما ومضجرا فى غرفة الطعام ابان تناوله طعام الافطار هو وعمته لوحدهما ، وكان الطقس سيئا ، – فالاشجار تتأرجح وراء النوافذ بفعل الريح . وتلبدت فوقها السحائب والغيوم .

قالت العمة بعد ان نهضت ورسمت شارة الصليب :

– حسنا يا عزيزى ، اننى سأفارقك . تسلى ما وسعك ، اما انا وعمك فنرجو ان تعذرنا لاحوالنا الصحية ، وسنلزم غرفتينا حتى موعد الشاى . اظن ان المطر سينهمر . والا كان بوسعك التنزه على صهوة الجواد .

فاجاب بحيوية :

– لاتقلقى يا عمتى . فسانهمك بالمطالعة .

توجه نحو غرفة الجلوس ، حيث كانت تغطى كافة الجدران رفوف الكتب .

وبينما كان يمر بغرفة الاستقبال فكر فى دخيلة نفسه بان من الواجب مع هذا اعداد الجواد للركوب . لكن بدت فى النوافذ شتى الغيوم المطيرة وزرقة معدنية كريهة وسط السحائب المشوبة باللون البنفسجى القرمزى فوق قمم الاشجار المتمايلة . دلف الى غرفة الجلوس الانيقة

التى تفوح فيها رائحة السيجار ، حيث شغلت الارائك الجلدية ثلاثة جدران باكملها تحت رفوف الكتب ، والقى نظرة على كعوب بعض الكتب ذات التجليد الفاخر – وجلس عاجزا وغاص فى الاريكة . انه لسأم جهنمى حقا . وكم ود لو راها فحسب ، وتحدث معها . . . وعرف ما هو صوتها وما هو طبعها ، وفيما اذا كانت غبية ام بالعكس ماكرة ، وتضطلع بدورها المتواضع لحين اللحظة المناسبة . اغلب الظن انها خبيثة تعرف كيف تبلغ مرادها وتعرف قيمتها ، وعلى الارجح بلهاء . لكن ما اعظم فتنتها ! يتعين قضاء الليلة الى جوارها مرة أخرى – نهض وفتح الباب الزجاجى الذى يطل على السلم الحجرى المؤدى الى المنتزه . سمع تغريد العنادل وسط ضجيج المنتزه ، الا ان ريحا باردة هبت حينئذ فاملت اشجارا فتية ما نحو اليسار مما دعاه يهرع راجعا الى الغرفة . ادلهمت العتمة فى الغرفة ، وانطلقت الريح على تلك الاشجار فاملت اغصانها الخضراء اليانعة . وتطاير الرذاذ الدقيق من زجاج الباب والنوافذ بالطرطشات الحادة للمطر الخفيف .

بيد ان الامر سواء بالنسبة لها ! قال هذا بصوت عال ، مصغيا الى تغريد العنادل الوارد من كافة الانحاء بسبب الريح تارة من بعيد وتارة من قريب . وفى اللحظة نفسها سمع صوتا هادئا يقول :

– طاب يومك !

رنا الى القائل وذهل فى مكانه : كانت هى تقف فى الغرفة .

قالت بلهجة رزينة منصفة بشوشة :

– جئت لاستبدال الكتاب .

واضافت بابتسامة خفيفة :

– لا مسرة الا بالكتب .

ودنت من الرفوف .

جمجم :

– طاب يومك . اننى لم اسمع كيف دخلت .

فاجابت : – السجاجيد وثيرة ناعمة جدا ! – والتفتت متطلعة اليه هذه المرة لفترة مديدة بعينيها الرماديتين الجامدتين .

فسأل مقابلا نظرتها بشيء اكبر من الجرأة :

– ما الذى تحبين قراءته ؟

– الان اقرأ موباسان واوكتاف ميربو . . .

– نعم ، هذا مفهوم . موباسان يحوز على اعجاب كافة النساء . فكل شيء لديه يدور عن الحب .

– وماذا يوجد افضل من الحب .

كان صوتها متواضعا ، واضاءت عيناها ابتسامة هادئة .

قال متنهدا :

– الحب ، الحب ! قد تحدث لقاءات عجيبة ، لكن . . . ما هو اسمك واسم ابيك ، يا ممرضة ؟ . .

– يكاترينا نيكولايفنا . واسمك انت ؟

فاجاب بجرأة متزايدة اكثر فاكثر :

– ادعونى بافلك فحسب .

– او تعتقد اننى بعمر عمتك ايضا .

– كنت سادفع غاليا من اجل كسب عمة مثلك ! وانا حتى الان جارك التعيس فقط .

– ياترى هل انها تعاسة ؟

– لقد سمعتك الليلة الماضية . لقد تبين ان غرفتك تجاور غرفتى .

ضحكت بلا اكتراث .

– وانا سمعتك ايضا . انه لشيء غير مقبول ممارسة الانصات والتلصص .

– لكم انت فائقة الجمال !

قال هذا محدقا بتحد فى البرقشة الرمادية لعينيها ، ووجها الابيض اللامع ، وبريق شعرها الاسود تحت المنديل الابيض على رأسها .

– أو تعتقد ذلك ، وتريد الا يسمح لى بان اكون كذلك .

– نعم . ان المرء ليجن بسبب يديك وحدهما . . .

ثم امسك بوقاحة مرحة يدها اليمنى بيده اليسرى .

اما هى التى كانت تقف وظهرها الى الرفوف فقد رنت عبر كتفه الى غرفة الاستقبال ولم تسحب يدها متطلعة اليه بسخرية غريبة ، كما لو كانت فى الانتظار . . . وماذا بعد ؟ لم يترك يدها وشدها بقوة ساحبا اياها الى الاسفل وتشبث بيده اليمنى بخصرها . ومرة اخرى تطلعت عبر كتفه . وامالت

راسها قليلا كما لو تحمى وجهها من قبلته ، بيد انها التصقت به بجسدها المقوس . صار يلهث ويمد بجسمه الى شفتيها نصف المفتوحتين ودفعها نحو الاريكة . بينما قطبت حاجبيها وهزت رأسها هامسة : «لا ، لا ، لا يمكن . . عندما نكون راقدين لا نرى ولا نسمع شيئا» – ونشرت ساقيها ببطء ، وعيناها خابيتان . . . بعد دقيقة تداعى بوجهه على كتفها . وقفت قليلا ، مكزكزة باسنانها ، ثم تخلصت منه صامتة ومضت منتصبة القامة فى ارجاء غرفة الاستقبال ، مرددة بصوت عال وبلا مبالاة :

– اى مطر ! بينما جميع النوافذ فوق مفتوحة . . .

فى صباح اليوم التالى استيقظ فى فراشها – كانت قد استلقت على ظهرها فوق بياضات الفراش المكرمشة التى تدفأت خلال الليل ، واضعة ذراعها العارية وراء رأسها . فتح عينيه وقابل بابتهاج نظرتها الجامدة ، واحس فى دوار ، كالغيبوبة ، برائحة نفاذة من تحت ابطها . . .

دق احد ما الباب بعجلة .

وسألت بهدوء دون ان تبعده :

– من هناك . . هذا انت ماريا ايلينيتشنا . .

– نعم ، يكاترينا نيكولايفنا . .

– ما الامر .

– اسمحى لى بالدخول ، اخشى ان يسمعنى احد ، فيمضى ويفزع زوجة الجنرال .

حين قفز مندفعا الى غرفته ، ادارت المفتاح فى القفل بلا عجلة .

همست ماريا ايلينيتشنا لدى دخولها قائلة :

– ان حالة سعادته غير طيبة نوعا ما . اظن ان من الواجب عمل حقنة . . الحمد لله ان زوجة الجنرال ما برحت نائمة ، تعالى بسرعة . . .

توسعت حدقتا عيني ماريا ايلينيتشنا مثل عينى الافعى : فبينما كانت تتحدث لاحظت بغتة خفين رجاليين بالقرب من السرير ، – اذ هرب الطالب حافى القدمين . كما رأت نفسها ايضا الخفين وعينى ماريا ايلينيتشنا .

قبيل الفطور جاءت الممرضة الى زوجة الجنرال واخبرتها بان عليها السفر بغتة . واخذت تكذب بهدوء وادعت انها تلقت رسالة من ابيها ، – تتضمن خبرا مفاده ان شقيقها اصيب بجراح بليغة فى منشوريا ، وان والدها الارمل غدا وحيدا فى هذه الفاجعة . . .

قالت زوجة الجنرال وقد علمت مسبقا كل شىء من ماريا ايلينيتشنا :

– اه ، اننى افهمك جيدا . لكن ما العمل ، لتسافرى . لكن يجب ان تبعثى من المحطة ببرقية الى الدكتور كريفتسوف ، من اجل ان يأتى فورا ويبقى عندنا حتى نجد ممرضة اخرى . . .

ثم قرعت باب الطالب ودست له قصاصة ورق

جاء فيها : «ضاع كل شيء . اننى مسافرة . لقد شاهدت العجوز خفيك قرب السرير . تذكرنى بالخير» .

كانت العمة ابان الفطور حزينة قليلا فقط . لكنها تحدثت معه كما لو لم يحدث شيء .

– هل سمعت ، ان الممرضة تغادرنا الى والدها ، انه وحيد . وشقيقها مصاب بجراح خطيرة .

– سمعت ، ياعمتى . يالها من نكبة . . الحرب هذه ، ما اكثر المصائب فى كل مكان . ومع هذا ، ما الذى حدث للعم ؟

– اه ، الحمد لله ، ليس امرا خطيرا . هو كثير الوساوس . لقد زعم ان قلبه يؤلمه ، لكن كل شيء بسبب المعدة . . .

فى الساعة الثالثة نقلت انتيجونا الى المحطة فى عربة الترويكا . وودعها عند سطحة مدخل البيت دون ان يرفع بصره ، كما لو كان قد خرج بالصدفة بغية اعطاء الامر باعداد الحصان للركوب . بلغت به الحال حد الصراخ من الالم واليأس . . لوحت له بقفازها من العربة ، ولم يعد على رأسها المنديل بل قبعة انيقة .

٢ اكتوبر ١٩٤٠

زمرّد

ليل ساج وسماء زرقاء داكنة تغمرها سحائب عائمة بسكون ، وتبدو بيضاء في كل مكان ، ولازوردية بالقرب من البدر العالي . وحين يطالعها المرء ملياً – يتراءى له وكأن ما يعوم ليس السحائب – بل البدر يعوم ، وتنهمر بالقرب منه ، وسوية معه ، الدموع الذهبية لنجمة : القمر يمضي بانسياب نحو الاعالي التي لاقرار لها ، ويحمل معه النجمة اعلى فاعلى .

كانت تجلس جانباً على رف النافذة المفتوحة ، وتتطلع الى الاعلى مائلة الرأس – لقد اصابها دوار خفيف بسبب حركة السماء . بينما كان هو يقف عند ركبتيها .

– اي لون هذا ؟ لا أستطيع الجزم ؟ وانت ، توليا ، هل تستطيع القول ؟

– لون اي شيء ، يا كيسا * ؟

– لا تدعوني هكذا . لقد كررت لك هذا الف مرة . . .

* لفظة (كيسا) تعني قطة بالروسية ، وفى الوقت ذاته هى لفظة التحبب لاسم كسينيا . **المعرب** .

– سمعاً وطاعة ، كسينيا اندرييفنا .
– انني اتحدث عن هذه السماء وسط الغيوم . اي لون ساحر ! رهيب وساحر ! انه سماوي حقاً ، فلا توجد ألوان كهذه على الارض . وكأنه الزمرّد .
– ما دام في السماء فمن الطبيعي ان يكـــون سماويا . ولكن لم زمرد ؟ وما هو الزمرد ؟ انني لم اره في حياتي أبدا . مجرد ان هذه الكلمة تعجبك .
– نعم . لكن لا أدري لربما ليس زمردا بـــل ياقوت . . . بيد انه بشكل لا يوجد حقـــاً الا في الجنّة . وحين تنظر الى هذا كله كيف لا تصـــدق بوجود الجنة ، والملائكة ، وعرش الرب . . .
– واجاص ذهبي يتدلى من صفصافة . . .
– يالك من فاسد ، يا توليا . ماريا سميرغييفنا على حق حين تقول ان اسوأ فتاة أفضل مـــن اي شاب .
– ان صوتها صوت الحقيقة ، يا قطتي .
كان فستانها من الشيت المنقط ومداساهـــا رخيصان وسمانتا رجليها وركبتاها مكتنزة فتية ، ورأسها المدور الذي تطوقه ضفيرة صغيرة ملقى الى الوراء بصورة فتانـــة . . . ووضع يده على ركبتها واحتضنهـــا باليد الاخرى ، ولثم شفتيهـــا المنفرجتين بشبه مزاح ، وتملصت منه بهـــدوء وابعدت يده عن ركبتها .
– ما هذا ؟ هل زعلنا ؟

ضغطت بقذالها على اطار النافذة ورآهـا تحبس دموعها وهي تعّض على شفتها .
– ما القضية ؟
– آه ، دعني وشاني . . .
– ماذا حدث ؟
وهمست تقول :
– لا شيء . . .
وهبطت من النافذة وانطلقت هاربة .
ومز كتفيه وقال :
– يا لها من حمقاء لحد القداسة !

٣ اكتوبر ١٩٤٠

ذئاب

ظلام داج في ليلة دافئة من ليالي شهر اغسطس ، ولا تكاد ترى النجوم الخابية ، التي تومض في مكان ما من السماء المثقلة بالغيوم . وثمة طريق ناعمة في الحقول ، لا تسمع فيها نأمة ، بسبب الغبار الكثيف ، وتنطلق فيها عربة تحمل راكبين في ريعان الشباب — هما فتاة تنتمي الى اسرة من مالكي الاطيان الصغار وفتى طالب . وفي بعض الاحيان كان بصيص نور خفيف ينير الحصانين الخشني المظهر المندفعين ، ذوي العرفين المنتصبين الاشعثين ، وعليهما عدة بسيطة ، وقبعة وكتفي سائق العربة الجالس في مقعد القيادة ، مرتديا قميصا فضفاضا ، وتتكشف في الامام ، وللحظة خاطفة الحقول الخاوية بعد موسم الحصاد ، وغابة كئيبة نائية . لقد حدث مساء أمس أن ثارت في القرية ضجة وصراخ والنباح الجبان للكلاب وعواؤها : اذ عمد ذئب ، حين كان الناس يجلسون في بيوتهم الى موائد العشاء ، وبجسارة عجيبة ، الى نحر شاة في أحد الافنية وكاد أن يفلت بها — لو لم يهرع الرجال في الوقت المناسب حاملين الهراوات لدى سماع نباح الكلاب ،

فانتزعوها منه نافقة وممزقة البطن . اما الآن فكانت الآنسة تقهقه بعصبية وتشعل اعواد الثقاب وترميها في الظلام ، صائحة بجذل :

— أوه . . . اخاف الذئاب !

وكانت اعواد الثقاب تضيء وجه الفتى الطويل والخشن التقاطيع نوعا ما ووجهها المنفعل البارز الوجنتين . وقد لفّت رأسها بمنديل أحمر على طريقة الاوكرانيات ، وكشفت فتحة الصدر لفستانها الشيت الاحمر عن جيدها البضّ المدور . وما طفقت تتأرجح مع حركة العربة وتشعل وترمي اعواد الثقاب في الظلام ، كما لو انها لا تلاحظ كيف كان الطالب يحتضنها ويلثم جيدها تارة وخدها تارة أخرى ، ويجدّ في البحث عن ثغرها . اما هي فتبعده بمرفقها ، بينما هو يقول لها عن قصد بصوت عال وبلا كلفة ، بغية الا يفقه السائق الجالس في مقعده مراده :

— اعطيني علبة الثقاب ، فلن يبقى لي ما اشعل به سجايري .

— حالا ، حالا !

ولكن عود الثقاب يشتعل مرة اخرى ، ثم يومض النور بعيدا ، وبعده يغشي القتام البصر بصورة اشد في العتمة الدافئة التي يبدو فيها ان العربة تتدحرج نحو الخلف . وفي نهاية المطاف استسلمت مانحة اياه قبلة طويلة من ثغرها ، وبغتة توقفت العربة بدفعة ألقتهما الى الوراء كما لو اصطدمت بشيء ما . فاوقف السائق العربة بحدة وصاح :

– ذئاب ! ...

غشى الابصار وميض نور ساطع في مكان ناء من جهة اليمين . وكانت العربة تقف قبالة الغابة التي تراءت في النور الآتي من بعيد . وساعتئذ اصبحت الغابة جهمة سوداء بفعل الوميض ، وطفقت تترجرج كافة اشجارها ، كما وترجرجت الحقول كلها الممتدة امامها في الارتعاشة الحمراء والقاتمة بسبب اللهيب المنطلق في عنان السماء ، والذى بدا رغم بعد المسافة وكأنه يندلع في موضع يبعد حوالي الفرسخ الواحد عن العربة ، فيضاء كل شيء بصورة اكثر توهجاً ورهبة ، مغطيا الافق اعلى فأعلى واوسع فأوسع ، – ويتراءى وكأن وهجه سيلفح الوجوه والايدي ، ويُرى على سواد الارض سقف مبنى ما تحترق عوارضه الخشبية . وربضت تحت سور الغابة ثلاثة ذئاب ضخمة ذات لون رمادي مشوب بالحمرة ، وكان يصدر عن عيونها بريق اخضر نافذ تارة واحمر تارة اخرى ، – بريق شفاف وساطع مثل العصير الساخن لمربب توت عنب الثعلب الاحمر . وفجأة اندفع الحصانان خبباً بعنف الى جهة اليسار ، نحو المزرعة ، وهما يطلقان شخيرا صاخبا ، وانقلب السائق ، الماسك بالأعنة ، الى الوراء ، اما العربة فمضت تضرب نتوءات الارض ، بطقطقة وقرقعة ، ومتأرجحة . . .

وفي موضع ما عند المنحدر انتصب الحصانان مرة اخرى على قوائمهما الخلفية ، بيد ان الآنسة هبت

وافلحت في انتزاع الاعنة من يدي السائق المبهوت . وعلى الفور سقطت باندفاع على مقعد السائق وجرحت خدها بشيء حديدي ما . وهكذا بقيت على مدى الحياة ندبة خفيفة في طرف ثغرها . وحين تسأل عن سببها ، ترد بكل طيب خاطر قائلة :

– لقد حدث هذا في الايام الخوالي !

وتستعيد ساعتئذ ذكرى ايام ذلك الصيف البعيد ، ايام اغسطس الجافة ولياليها الدامسة ، واعمال الدراسة في الجرن واكوام التبن الفواح الطازج ، والطالب غير الحليق الذقن ، الذي كانت تستلقي معه هناك في الامسيات ، وترنو الى الاقواس الساطعة – الخاطفة للنجوم الساقطة . وكانت تقول : لقد افزعتنا الذئاب وفقد السائق السيطرة على الحصانين . وكنت آنذاك متهورة وطائشة فعمدت الى ايقافها . . .

كان الرجال الذين احبتهم في حياتها غير مرة يقولون : لا يوجد شيء اجمل من هذه الندبة ، الشبيهة بابتسامة رقيقة دائمة .

٧ اكتوبر ١٩٤٠

بطاقات زيارة

كان ذلك في بداية الخريف ، وانطلقت السفينة «غونتشاروف» في مياه نهر الفولغا الخاوي الكئيب . لقد حلّ البرد قبل الاوان ، وهبّت من شطآنه الشرقية ، التي علاها الصدأ ، نحو المجاري الرمادية لرحابه المتوحشة ، بعنف وبسرعة للقاء السفينة ، ريح صرود جعلت العلم فوق كوثل السفينة يصطفق ، وقبعات واردية الماشين فوق سطحها ترفرف ، ووجوهم تتغضن ، وراحت تلطم الاكمام واطراف الملابس . ولاحق السفينة بلا هدف وبسأم نورس وحيد — فتجده تارة يحلق باحديداب مائلا على طرفي جناحيه المدببين حتى يبلغ الكوثل ذاته ، وتارة ينأى مبتعداً جانبا ، كما لو كان لا يدري ما يفعل بنفسه في هذا القفر المتجسد بالنهر العظيم والسماء الرمادية الخريفية .

وكانت السفينة خاوية تقريبا ، — فثمة رهط من الرجال الكسبة فقط تجمعوا على سطحها الاسفل ، بينما كان يسير على السطح الاعلى ثلاثة اشخاص فحسب ذاهبين آيبين ، متلاقين حيناً ومتفرقين حيناً آخر . واثنان منهم من ركاب الدرجة

الثانية يقصدان مكانا معينا بذاته ، وما كانا يفترقان ، فيتنزهان سوية دائما ، ويتبادلان اطراف الحديث بجد عن بعض الشئون ، ويشبه احدهما الآخر في كونهما لا يجذبان الانتباه ، والآخر راكب من الدرجة الاولى ، في نحو الثلاثين من العمر ، وهو كاتب حظي بالشهرة مؤخرا ، ويجذب الانتباه بهيئته الجادة التي تنم اما عن الكآبة واما عن الغضب ، وبمظهره : اذ كان فارع الطول ، مفتول العضل ، — وحتى محدودب الظهر نوعا ما ، مثل بعض الرجال الاشداء عادة ، — انيق الملبس ، ووسيم الطلعة بصورة متميزة : فهو اسمر من الطراز الشرقي الذي يلاحظ بموسكو بين الناس العاملين في التجارة منذ القدم . كما لو انه ينتسب الى تلك الفئة من الناس ، بالرغم من عدم وجود صلة تربطه بهم .

كان يمشي وحيدا بخطوات واثقة ، ويرتدي حذاءين غاليين ومتينين ، ومعطفاً صوفياً أسود ، وكاسكيته انجليزية بمربعات ، ويغذّ الخطى ذاهبا آيبا ، فمرة يعطي وجهه للريح ومرة يوليّ ظهره له ، مستنشقا ذلك الهواء المنعش المميز للخريف والفولغا . ثم بلغ كوثل السفينة ، ووقف عليه متطلعاً الى صفحة النهر الجاري وراء السفينة والمفروشة بامواج رمادية دقيقة ، ومرة اخرى استدار بحدة واتجه نحو الجؤجؤ للقاء الريح ، مطاطئ الرأس ذي الكاسكيته المنتفخة ، ومصغيا الى الدقات المنتظمة لعوارض العجلتين ، التي كانت

تنساب المياه منها مثل قماشة زجاجية بضجيج .
وفي نهاية المطاف توقف فجأة وابتسم عابساً : فقد لاحت صاعدة من طرف السلم المؤدي الى السطح الاسفل للسفينة ، حيث الدرجة الثالثة ، قبعة سوداء رخيصة ، وظهر تحتها الوجه المعذب المليح للمراة التي تعرّف عليها مساء يوم أمس بطريق الصدفة . فهبّ للقائها بخطوات عريضة . ثم ظهرت على السطح بكامل قيافتها ، وتوجهت نحوه أيضا بمشية مرتبكة ومبتسمة الاسارير أيضا ، والرياح تدفعها ، ويدها النحيفة تتشبث بقبعتها ، وقد تلفعت بمعطف خفيف تراءت اسفله ساقان هزيلتان . وقال بصوت عال ينم عن الرجولة متوجها نحوها :

– كيف كان نومك ؟

فردت عليه بمرح متكلف :

– بصورة ممتازة ! انني أنام دائما مثل المرموط . . .

وابقى يدها في يده الكبيرة ورنا الى عينيها . بينما استقبلت نظراته بجهد مشوب بالفرح .

وقال رافعا الكلفة :

– لم اسرفت في النوم يا ملاكي . الناس المحترمون يجلسون الآن وراء مائدة الافطار .

واجابت بجسارة لا تناسب البتة هيئتها كلها :

– كنت احلم طوال الوقت !

– باى شيء ؟

– هناك امور كثيرة يحلم المرء بها !

– اوه ، حذار ! «هكذا يغرق الاطفال حين يستحمون صيفا ، بينما يمضي التشيتشيني وراء النهر» * .

وردت بالجسارة ذاتها المشوبة بالجذل :

– وها انذا بانتظار ذلك التشيتشيني !

– الافضل ان نذهب لشرب الفودكا ولتناول حساء السمك .

قال ذلك وجال في خاطره : اغلب الظن انها لا تمتلك النقود من اجل الفطور .

فدقت بقدميها بدلال وتغنج :

– نعم ، نعم ، الفودكا ، الفودكا ! يا لهذا البرد اللعين !

وسارا بخطوات سريعة الى مطعم الدرجة الاولى ، هي في المقدمة ، وهو وراءها ، متفحصا اياها بشيء من النهم .

كان قد تذكرها أبان الليل . ففي يوم أمس تحدث معها بالصدفة وتعارفا في اثناء وقوفهما على طرف السفينة لدى اقترابها عند الغسق من ضفة سوداء عالية ما ، كانت الانوار متناثرة في اسفلها ، ثم جلس معها على السطح ، على المصطبة الطويلة الممتدة بمحاذاة مقاصير الدرجة الاولى ، وتحت

* مقطع غير دقيق من قصيدة «اسير القوقاز» (١٨٢٠ – ١٨٢١) للشاعر الروسي الكسندر بوشكين .

نوافذها ذات الشعريات البيضاء ، بيد ان جلوسه معها لم يدم طويلا ، وفي الليل أسف لذلك . فقد أدرك في الليل ، لدهشته ، انه بات يشتهيها . ولم ؟ ربما بحكم عادته في الانجذاب ابان السفر الى رفيقات السفر العابرات والمجهولات ؟ والآن ، بينما كان يجلس معها في المطعم ، ويقارع معها الاقداح ويتناول الكافيار الأسود البارد والفطائر الساخنة ، صار يعرف سبب انجذابه اليها ، وينتظر بصبر نافد ايصال الامر حتى نهايته . وكان سبب انفعاله اكثر فأكثر هو ان هذا كله – الفودكا ورفع الكلفة – كان يتناقض بصورة عجيبة مع شخصها .

فقال :

– لنشرب قدحا آخر ، ونكتفي !

وردت عليه بلهجته ذاتها :

– حقا ، كفاية . الفودكا ممتازة !

وطبيعي انها مست شغاف قلبه لكونها ارتبكت للغاية ، يوم أمس ، حين ذكر لها اسمه ، وذهلت للتعارف المفاجىء مع كاتب معروف ، – وكان يسره كالعادة ان يتحسس ويرى هذا الارتباك ، فهذا يجذب المرأة اليك دائما ، ان لم تكن قبيحة وبلهاء تماما ، ويخلق على الفور مودة بينك وبينها ، ويمنحك الجراة والجسارة في التعامل معها ومن ثم بعض الحق ازاءها . بيد ان ما أثار تهيجه لم يكن هذا وحده : فيبدو انه حاز على اعجابها كرجل ايضا ، بينما أثر فيه كل ما تتسم به من فقر وسذاجة القلب . وكان

قد اتقن اساليب رفع الكلفة ، والانتقال بخفة وبسرعة من لحظات التعارف الاولى معهن الى معاملتهن بحرية ، بزعم ان هذا من خصال أهل الفن ، والبساطة المصطنعة في طرح الاسئلة : من انت ؟ من أين ؟ متزوجة أم لا ؟ وهكذا مضى في استجوابها يوم أمس – كان يحدق في عتمة المساء الى الانوار المتعددة الالوان المنبعثة من العوامات الضوئية والمنعكسة في اشباح طويلة على صفحة الماء التي شرعت في ارتداء ثوب القتام حول السفينة ، وفي النار الحمراء الموقدة على الطوافات ، ويتحسس رائحة الدخان الآتية من هناك ، مفكرا في دخيلته : «ينبغي الاحتفاظ بهذا في الذاكرة – ففي هذا الدخان ترد في الخيال رائحة حساء السمك» ، واستفسر منها :

– هل يمكن ان أعرف ما هو اسمك ؟

فذكرت بسرعة اسمها واسم ابيها .

– هل انت عائدة الى البيت من مكان ما ؟

– كنت في سفياجيسك عند شقيقتي ، فقد توفي زوجها فجاة ، وأضحت ، وانت تفهم ذلك ، في حالة فظيعة . . .

في بادئ الامر كانت مرتبكة جدا ، حتى انها ما انفكت طوال الوقت ترنو ببصرها الى مكان ما في الافق البعيد . ومن ثم صارت تجيب بجراة اكبر .

– وأنت متزوجة ايضا ؟

فابتسمت ابتسامة ساخرة غريبة :

– متزوجة . ويـــا للأسف ، ليـــس للعام الاول . . .

– لِمَ ، يا للأسف ؟

– تزوجت لحماقتي في وقت مبكر جدا . لكـــن المرء لا يلحق في التطلع حواليه حتى يجد العمر قد انقضى !

– لكن ، الوقت ما برح بعيدا لبلوغ هذا .

– للأسف ، ليس ببعيد ! بينما انا لم اجرب ، لم اجرب اى شيء بعدُ في حياتي !

– لا يزال ثمة متسع من الوقت للتجربة .

وآنذاك هزّت رأسها بغتة بسخرية :

– وانا أجرّب !

– من هو زوجك ؟ موظف ؟

فلوحت بيدها :

– آه ، رجل خيّر وطيـــب جدا ، بيد انه ، واسفاه ، شخص غيـــر شيق البتة . . . ويعمـــل سكرتيرا في ادارة السلطـــة المحلية عندنـــا في الاقليم . . .

وجال في خاطره «يالها مـــن ظريفة وتعيسة !» ، وأخرج علبة السجاير :

– اتريدين سيجارة ؟

– جدا !

طفقت تدخن بلا مهارة ، لكن بجرأة ، ساحبـــة الدخان بسرعة كما تفعل ذلـك النساء عادة . ومرة أخرى أحس بالشفقة نحوها ، ونحو عدم تكلفهـــا

المتعمد ، واقترنـــــت بالشفقة – مشاعر الحنان والرغبة الشهوانية في استغلال سذاجتها وقلة الخبرة التي لا تناسب سنها ، والتي ، كمـــا بات يشعر فعلا ، ستقترن حتما بالجسارة المفرطة . والآن ، وبينما هما جالسان في المطعم ، صار يتطلع بنفاد صبر الى يديها النحيفتين ، ومحياها الذابل ممـــا يجعله مؤثرا اكثر ، والى شعرها الاسود الغزيـــر المرتب كيفمـــا اتفق ، الـــذي ما انفكت تهزّه باستمرار ، بعد ان نزعت القبعة السوداء الصغيرة والقت عن كتفيها المعطف الرمادي فـــوق فستانها المصنوع من القماش القطني الموبّر . لقـد اثرت فيه واستثارته تلك الصراحة التي تحدثـت بها معه يوم أمس عن حياتها العائلية ، وعن سنها التـــى تجاوزت عتبة الشباب ، وكونها صارت فجأة بمثل هذه الجسارة ، وباتـــت تفعل وتقول بالذات ما لا يناسبها للغاية . وتضرّج وجهها بحمرة خفيفة بفعل الفودكا ، وحتى توردت شفتاهـــا الشاحبتان ، وتألقت عيناها ببريق ناعس هازئ .

وفجأة قالت :

– أتعرف ، ما دمنا قـــد تحدثنا عن الاحلام : أتعرف الشيء الذي كنت أحلم به بأكبر قدر حيـن كنت تلميذة ؟ ان أعمل طلبية لطبع بطاقات زيارة باسمي ! وايامذاك داهمنا الاملاق التام ، وبعنا بقية الضيعة ، وانتقلنا للسكنى في المدينة ، ولم يعـــد لـديّ احد أقدمها اليـــه ، بينما كان هـــذا

حلمي المأمول ! انه شيء سخيف للغاية . . .

زمّ شفتيه وقبض بشدة على يدها الصغيرة ، فاحس بكل عظامها الدقيقة تحت بشرتها الرقيقة ، بيد انها لم تدرك مراده البتة ، فراحت نفسها ، كالغاوية المحنكة ، تقرّبها الى شفتيه ونظرت اليه بفتور .

– لنذهب الى مقصورتي . . .

– لنذهب . . . هنا الجو وخيم ، حقا ، من كثرة دخان السجاير !

وتناولت قبعتها وهي تنفض شعرها .

في الدهليز احتضنها . بينما رنت اليه بافتخار وهناء عبر كتفها . وكاد ان يعضّ خدها بالحقد الذي تمليه العاطفة المشبوبة والعشق . اما هي فقد ناولته شفتيها بخلاعة ، عبر كتفها .

وفي المقصورة شبه المعتمة ، التي انزلت الشعرية على نافذتها ، عاجلت فورا من اجل ارضائه ، والاستفادة حتى النهاية وبجسارة من كل هذه السعادة غير المتوقعة التي وهبتها لها الاقدار مع هذا الرجل الوسيم والشهير ، الى فتح ازرار فستانها الذي سقط على الارض وداست عليه ، ولبثت واقفة ميساء القدّ ، كالصبي ، في قميص داخلي خفيف ، عارية الكتفين والذراعين وبسراويل داخلية قصيرة بيضاء ، فاذهلته براءة مظهرها كله .

وسألته بهمس مثل صبية تماما :

– هل انزع كل شيء ؟

– كل شيء ، كل شيء .

قال هذا بعبوس متزايد .

وخطت طائعة وبسرعة من كل اردیتها الملقاة على الارض ، وغدت عارية تماما ، ببشرة رمادية بنفسجية ، وبتلك الخاصية المميزة لجسد امرأة مقرورة بفعل النرفزة ، فيصبح مشدودا مرنا باردا ، وتغطيه الندب الدقيقة مثل جلد الاوزة ، وعليها فقط الجوارب الرمادية الرخيصة ذات الحمّالات البسيطة ، وحذاءان اسودان رخيصان ، وتطلعت اليه بنشوة النصر ، ماّدة يديها الى شعرها ومنتزعة الدبابيس منه . اما هو فقد تابعها ببصره والقشعريرة تغمره . وبانت بجسدها العاري افضل ، واكثر شباباً مما كان يظن . وبرزت العظام الهزيلة للوحي الكتفين والضلوع بشكل يتناسب مع محياها النحيف وساقيها الرفيعتين . بيد ان العجز حتى بدا كبيرا . اما البطن ذات السرة الصغيرة الغائرة فكانت مقعّرة ، وفي أسفله مثلث ناتئ من الشعر القاتم الجميل يتناسب مع غزارة الشعر القاتم في راسها . وسحبت الدبابيس فسقط شعرها كثيفا على ظهرها النحيف ذي الفقرات البارزة . وانحنت لكي ترفع الجوربين الساقطين – فتدلى النهدان الصغيران ذوا الحلمتين البنيتين المتغضّنتين المنكمشتين من البرد مثل ثمرتي كمثرى عجفاوين ، رائعتين في هزالهما . وارغمها على

معاناة قلة الحياء البالغة التي لا تلائم محياها البتة ولهذا اثارت لديه بقدر كبير الشفقة والحنان والشهوة . . . ولم يكن بالمستطاع رؤية شيء بين الواح شعرية النافذة المائلة ، بيد انها كانت تسترق النظر اليها بفزع بهيج ، وتصغي الى الاحاديث المألوفة وخطوات الماشين على سطح السفينة تحت النافذة مباشرة ، مما زاد اكثر من البهجة والنشوة لمقارفتها الفجور . آه ، ما أشد قربهم حين يتحدثون ويمشون – ولا يرد في خاطر احد ، ما يدور على بعد خطوة منهم في هذه المقصورة البيضاء !

ثم مددها على الاريكة ، كالميتة . ورقدت مغمضة العينين مزمومة الشفتين ، وعندئذ غمر وجهها الشاحب والفتي تماما هدوء حزين .

وقبيل حلول المساء ، حين رست السفينة في المحطة التي يجب ان تنزل فيها ، وقفت الى جانبه هادئة مرتخية الاهداب . ولثم يدها الباردة بذلك الهيام الذي يرسخ في مكان ما من القلب على مدى الحياة كلها ، اما هي فقد هرولت نازلة دون ان تلتفت اليه لتغيب وسط الحشد الغليظ المجتمع على المرسى .

٥ اكتوبر ١٩٤٠

زويكا وفاليريا

في الشتاء كان ليفيتسكي يمضي كل أوقات فراغه في شقة أسرة دانيليفسكي ، وفي الصيف صار يزورهم في البيت الريفي الواقع وسط غابات الصنوبر على طريق سكك حديد قازان .

وكان قد انتقل الى الصف الخامس ، وبلغ الرابعة والعشرين من العمر ، بيد ان الدكتور نفسه فقط يخاطبه في بيت اسرة دانيليفسكي بقوله «يا زميل» ، اما الباقون جميعا فيخاطبونه باسم جورج او جورجيك . وبسبب وحدته وكثرة غرامياته كان دوما يرتبط بأحد بيوت المعارف ، وسرعان ما يغدو أحد أفراد البيت ، ويستضيف فيه يوميا ، وفي بعض الاحيان يقضي اوقاته هناك من الصباح حتى المساء ان سمحت بهذا دروسه ، – وقد اصبحت حاله هكذا لدى أسرة دانيليفسكي . وحينئذ لم تكن ربة البيت فقط بل وحتى الطفلين ، زويكا السمينة جدا وجريشا المنتصب الاذنين ، يعاملانه كما لوكان أحد الاقرباء البعيدين الذين لا مأوى لهم . كان مظهره يدل على البساطة والطيبة ، وهو

خدوم وقليل الكلام ، بالرغم من استعداده الكبير للرد على كل كلمة يخاطب بها .

كانت امرأة عجوز بزي ممرضة تفتح الباب لزوار دانيليفسكى المرضى وتدلف معهم الى غرفة المدخل الفسيحة ، المفروشة بالسجاد والمؤثثة بأثاث قديم ضخم ، وتضع المرأة العوينات ، وبيدها قلم ، وتنظر بصرامة الى مفكرتها ، فتحدد لبعضهم يوم وساعة استقبالهم المقبل . وتقود البعض الآخر الى غرفة العيادة الكبيرة ، وهناك ينتظرون فترة طويلة بغية استدعائهم لدخول غرفة العيادة المجاورة ، من اجل الاستجواب والفحص من قبل مساعد شاب يرتدي صديرية بيضاء بلون السكر ، وبعد هذا فقط يبلغون دانيليفسكي نفسه ، في عيادته الكبيرة ذات المصطبة العالية الكائنة عند الجدار الخلفي ، فيرغم بعضهم على الصعود والاستلقاء عليها باكثر الوضعيات بؤسا والخرقاء بسبب الخوف : اذ كان كل شيء يثير ارتباك المرضى – ليس المساعد والمرأة في غرفة المدخل فقط ، حيث كان يتردد من جانب الى آخر ببطء قاتل لامعا القرص النحاسي الرقاص في الساعة القديمة المنتصبة ، بل كذلك كل النظام المهيب لهذه الشقة الموسرة الفسيحة الاركان ، وذلك الصمت المشوب بالانتظار في غرفة الاستقبال ، حيث لا يتجرأ أحد على اطلاق تنهدة أكثر مما ينبغي . كانوا جميعا يفكرون بان هذه الشقة متميزة تماما خالية من الحياة دائما ، وان دانيليفسكي نفسه الطويل

القامة المتين البنيان الخشن الطبع ، من المستبعد ان يبتسم ولو مرة واحدة في السنة . بيد انهم على خطأ : ففي ذلك القسم السكني من الشقة التي يقود اليها باب مزدوج من يمين غرفة المدخل يسود دائما تقريبا الضجيج الصادر عن الضيوف ، ولا يفارق السماور المائدة في غرفة الطعام ، وتهرول الوصيفة مضيفة الى المائدة تارة الأقداح والأكواب وتارة اواني المربى ، وتارة البقصم والمعجنات ، ودانيليفسكي كان حتى في ساعات استقبال المرضى كثيرا ما يدلف الى هناك على رؤوس أصابعه وبينما يجلس المرضى في انتظاره معتقدين انه مشغول جدا باحد المرضى المصابين بمرض شديد ، كان هو يجلس ويشرب الشاي ويقول الى الضيوف عنهم : «لينتظروا قليلا ، ليأخذ الشيطان امهاتهم» . وحدث مرة ان جلس دانيليفسكي هكذا ناظرا الى ليفيتسكي بسخرية ، الى نحافة جسمه وبعض الاحديداب في ظهره ، والى ساقيه العوجاوين قليلا وبطنه المنبعجة ، والى بشرة وجهه الرقيقة المغطاة بالنمش ، والى عينيه الحادتين ، وشعره الأحمر المجعد كثيرا ، وقال :

– اعترف يا زميل : لا بد وان يسري في عروقك دم شرقي ما ، يهودي مثلا ، او قوقازي ؟

رد ليفيتسكي باستعداده الدائم للأجوبة :

– لا البتة ، نيكولاي غريغوريفيتش . ليس في عرق يهودي . بل يوجد بولوني ، ولربما دمكم

الاوكراني ، اذ يوجد لقب ليفيتسكي بين الاوكرانيين أيضا ، وسمعت عن جدي ان فيّ دماً تركياً ايضا ، لكن الله وحده يعلم الحقيقة !

فصار دانيليفسكي يقهقه بجذل وارتياح :

– هكذا ، انني حزرت مع ذلك ! اذن ، الحذار ايتها السيدات والانسات ، فهو تركي ، وليس مسكينا البتة كما يتبادر الى اذهانكن . كما انه سريع الوقوع في الغرام ، على الطريقة التركية كما تعرفن . دور مَن الآن ، يا زميلي ؟ من هي الآن سيدة قلبك الكبير ؟

– داريا تاديفنا ، – أجاب ليفيتسكي بابتسامة ساذجة ، وقد تضرج وجهه على الفور بحمرة خفيفة ، وكان غالبا مايحمر وجهه ويبتسم هكذا .

واصاب الارتباك بصورة ساحرة داريا تاديفنا نفسها حتى ان عينيها الشبيهتين بحبات عنب الثعلب الاسود بدتا وكأنهما اختفتا في مكان ما للحظة من الزمن . وكانت فتاة ظريفة يغطي الزغب المشوب بالزرقة شفتها العليا وخديها ، وعلى رأسها قلنسوة حريرية سوداء كانت تضعها بعد ان مرضت بالتيفوئيد وكانت شبه راقدة في المقعد ، وقالت :

– حقا ، لا يخفى هذا على أحد ومفهوم تماما ، ففي عروقي تسري دماء شرقية أيضا . . .

فصاح جريشا بنشوة فرحا : «ها . . . لقد كشف أمركما ، كشف أمركما !» ، بينما هرولت زويكا الى الغرفة المجاورة وانهارت دفعة واحدة

وظهرها على مسند الاريكة ، بعينين حولاوين .

فعلا ، كان ليفيتسكي واقعا سرا في غرام داريا تاديفنا ، وقبل هذا راودته بعض مشاعر الحب تجاه زويكا . كانت قد اتمت عامها الرابع عشر ، بيد انها كانت مفرطة في النمو جسديا ، وبالاخص من الخلف ، بالرغم من ان ركبتيها الشاحبتين العاريتين تحت التنورة الاسكتلندية القصيرة ما برحتا مدورتين ورقيقتين كما لدى طفلة . وقبل عام اخذوها من المدرسة الثانوية ولم يعلموها في البيت ايضا ، اذ اكتشف دانيليفسكي فيها بوادر مرض ما في الدماغ ، وعاشت بلا أية مشاغل وهموم دون ان يراودها الضجر أبدا . وكانت تعامل الجميع بلطف شديد ، حتى كادت تلحس كل فرد . كانت عريضة الوجه عالية الجبين ونظرات عينيها الزرقاوين اللامعتين تنم دائما عن الفرح البريء ، كما لو كانت دائماً مندهشة لأمر ما ، وشفتاها طريتان دائما ، ورغم امتلاء جسدها فقد كانت حركاتها رشيقة ولعوبة . والشريط الأحمر المربوط على شعرها الكستنائي يجعلها مغرية جدا . كانت تجلس على سجيتها في احضان ليفيتسكي ببراءة كما لو ليس في الامر شيء ، كما لو كانت طفلة ، – واغلب الظن انها كانت تحس في سرها بما تراوده من مشاعر لدى تحمل بدانتها ونعومتها وثقلها مبعدا انظاره عن ركبتيها العاريتين تحت التنورة ذات المربعات . وأحيانا لم يكن يطيق صبرا ، فيقبلها في خدها على سبيل

المداعبة ، بينما تغلق هي عينيها مبتسمة بفتور وسخرية . ومرة قالت له بهمس ، مفضية اليه بسر دفين لم يعرفه أحد غيرها في العالم بشأن أمها : – ماما تعشق الطبيب الشاب تيتوف ! والأم في الاربعين من العمر ، الا انها ممشوقة القد كآنسة ، وذات مظهر فتي جدا ، وكلاهما – الأم والطبيب – جميلان جدا وطويلا القامة ! ثم أصبح ليفيتسكي قليل الاهتمام بها – فقد أخذت ترتاد على البيت داريا تاديفنا . وغدت زويكا كما لو كانت أكثر مرحا وخالية من الهموم ، لكنها لم تبعد بصرها لا عنها ولا عن ليفيتسكي ، وغالبا ما كانت تنهال عليها بالقبلات وسط الصراخ ، غير انها كانت تضمر لها أشد الكره حتى انه لدى مرض تلك بالتيفوئذ ، ما انفكت تنتظر كل يوم مجيء الخبر السار عن موتها . ومن ثم انتظرت يوم رحيلها في الصيف حين يبدأ ليفيتسكي بعد الانتهاء من الدراسة بالمجيء اليهم في البيت الريفي في طريق سكك حديد قازان ، حيث تعيش أسرة دانيليفسكي صيفا للسنة الثالثة : كانت تمارس سرا نوعا من المطاردة له .

أقبل الصيف أخيرا ، وصار يزورهم كل أسبوع لمدة يومين او ثلاثة . لكن سرعان ما حلت ضيفة عليهم ابنة أخت الدكتور من خاركوف واسمها فاليريا اوستروجرادسكايا ، التي لم يرها من قبل لا جريشكا ولا زويكا . وحدث ان أرسل ليفيتسكي الى موسكو منذ الصباح الباكر للقائها في محطة قطار

كورسكي ، وعاد من المحطة ليس على الدراجة الهوائية ، بل جالساً معها في عربة اكتراها من المحطة ، متعبا وبعينين زاغ انسانهما ومنفعلا بابتهاج . كان واضحا انه وقع في غرامها وهو في محطة كورسكي ، وغدت تعامله بلهجة آمرة حتى حين انزل متاعها من العربة . بالمناسبة انها نسيته نورا عندما هرعت الى السطحة للقاء الأم ، ثم لم تلاحظه طوال اليوم . وبدت لزويكا غير ظريفة ، وعندما رتبت الحاجيات في غرفتها وجلست فيما بعد لتناول الفطور في الشرفة كانت اما تتحدث كثيرا ، واما تصمت بصورة غير متوقعة ، متأملة أمرا ما يخصها وحدها . لكنها كانت حسناء أوكرانية حقيقية ! وصارت زويكا تعاكسها سائلة بالحاح لا يفتر :

– هل جلبت معك جزمتين من السختيان وتنورة اوكرانية ؟ هل ستلبسينها ؟ هل تسمحين بان اخاطبك باسم فاليتشكا ؟

بيد انها كانت حسناء فاتنة حتى بدون الزي الأوكراني : متينة الجسد وممشوقة القد ذات شعر غامق كثيف وحاجبين مخمليين يكادان يتصلان وعينين بلون الدم الاسود ونظرتهما متوعدة ، وحمرة قانية على محياها الذي لفحته الشمس ، واسنان ناصعة البياض ، وشفتين ممتلئتين مكتنزتين بلون حبات الكرز . ويداها صغيرتان غير انهما قويتان كذلك وذوات سمرة متناسقة ، كما لو لفحهما اللهب قليلا . وما أروع الكتفين ! وكيف لاح

فوقهما الشريطان الورديان الحريريان اللذان يمسكان بقميصها الداخلي تحت البلوزة الرقيقة البيضاء . كانت تنورتها قصيرة وبسيطة تماما ، الا انها تنسجم بشكل عجيب مع قوامها . وقد افتتنت زويكا بهذا كله حتى صارت لا تبدي الغيرة على ليفيتسكي الذي كف عن السفر الى موسكو وصار لا يبتعد عن فاليريا ، سعيدا بكونها قريبته منها ، وغدت أيضا تخاطبه باسم جورج ولا تكف عن توجيه الاوامر اليه بعمل شيء ما . ثم حلت ايام صيفية حقا ، قائظة ، وكثرت زيارات الضيوف القادمين من موسكو ، ولاحظت زويكا ان ليفيتسكي قد عزل ، واصبح غالبا ما يلازم أمها ، ويساعدها في تنظيف توت العليق ، وان فاليريا اغرمت بالدكتور تيتوف الذي تحبه الأم سرا . وعموما طرا على فاليريا أمر ما – فحين لم يوجد ضيوف ، كفت عن تبديل البلوزات الانيقة ، كحالها سابقا ، وفي بعض الأحيان كانت تمضي منذ الصباح حتى المساء في بنوار الأم وبهيئة منفرة . وأثار أشد الفضول لدى زويكا هل تبادلت القبلات مع ليفيتسكي قبل غرامها بتيتوف ام لا ؟ وقد أقسم جريشكا انه رأى مرة كيف مضت عائدة من الاستحمام مع ليفيتسكي قبيل الغداء في الدرب الذي تظلله اشجار الشوح ، وقد لفت رأسها بالمنشفة مثل العمامة ، وكيف حمل ليفيتسكي متعثرا شرشفها المبلل ، وتحدث اليها عن شيء ما في عجلة وتكرار ، وكيف توقفت ، وفجأة أمسك بكتفها

وطبع قبلة على شفتيها . وروى جريشكا بحماس جاحظ العينين قائلا :

– التصقت أنا متخفيا وراء شجرة شوح ولم يرياني ، بينما رأيت كل شيء . كانت آية في الجمال ، بيد ان وجهها كله قد تضرج بالحمرة ، لان حر الهجير ما زال حاميا ، وهي طبعا افرطت في السباحة ، فهي تبقى دوما طوال ساعتين في الماء وتعوم ، وقد شاهدت ذلك أيضا ، شاهدتها عارية وهي شبيهة بحورية الماء تماما ، اما هو فكان يتحدث ويتحدث كتركي حقا . . .

اقسم جريشكا ، ولكنه كان يحب اختلاق شتى السخافات ، فاصغت زويكا اليه بين مصدقة ومكذبة .

في ايام السبت والأحد كانت القطارات القادمة الى المحطة الصغيرة من موسكو ، حتى الصباحية منها مزدحمة بالناس الوافدين ضيوفا على ساكنى البيوت الريفية في ايام الأعياد . ويتساقط احيانا ذلك المطر الرائع عبر الشمس ، وحينئذ تلمع عربات القطار الخضراء المغسولة به وكأنها جديدة ، وتبدو أعمدة الدخان البيضاء المتصاعدة من القاطرة خفيفة جدا ، اما القمم الخضراء لأشجار الصنوبر ، المنتصبة برشاقة وكثافة وراء القطار ، فكانت تبدو مستديرة الشكل شامخة الى علو خارق في السماء المتألقة . ويتدافع القادمون فوق الرمل الساخن المخدد وراء المحطة على اكتراء عربات الحوذية وينطلقون بارتياح لقدومهم الى احضان الطبيعة ، في الطرق الرملية عبر

حرش الصنوبر ، تحت شرائط من السماء . وتغمر السعادة الكاملة اهـــل البيوت الريفية في حرش الصنوبر ، الذي يغطي الى ما لا نهاية المنطقة الجافة المتموجة قليلا . وكان اهل البيوت الريفية الذين يأخذون الضيوف القادمين من موسكو الى النزهـــة يقولون ان المكان لا ينقصه سوى الدببة ، وينشدون شعراً «حرش الصنوبر المعتم يفوح منه شذى الصمغ والتوت الفرنجي» ويتصايحون ، لتلذذهم بما يحظون به من هناء ونعيم في الصيف ، وعطلتهم وبساطـــة ملابسهم – القمصان الروسية الطليقة ذات الحواشي المطرزة ، والاشرطة الطويلة للاحزمـــة الملونة ، والقبعات المصنوعة من الخيش : وما كان بوسع المرء التعرف فورا على أحد المعارف من موسكو ، استاذ ما او رئيس تحرير مجلة بلحية وعوينات ، حين يرتدي مثل هذا القميص ويضع مثل هذه القبعة.

بات ليفيتسكي وسط هذه السعادة الصيفيـــة الغامرة تعيسا مضاعفة ، حيث يمسي ويضحى بائسا ومخدوعا منبوذا . وكان يفكر سحابة نهاره وطوال ليله في أمر واحد لا غيره : لماذا ، لماذا عمدت بهذه السرعة وبلا شفقة الى تقريبه منها ، وجعلته ما يشبه الصديق او العبد ، ومن ثم عشيقا وجب ان يتمتع بتلك السعادة النادرة وغير المتوقعة دائمـــا المقتصرة على القبلات فقط ، ولمَ كانت تخاطبـــه بلهجة رفع الكلفة تارة وبالتصنع تارة اخرى ، وكيف وجدت القسوة لكي تكف فجأة وبكل يسر وبكل بساطة

حتى عن ملاحظته في اليوم الاول لتعرفها على تيتوف ؟ صار يتلظى خزيا ايضا من مكوثه الطويل لحد الوقاحة في الضيعة . يتعين عليه غدا بالذات الاختفاء والهرب الى موسكو ، والتواري عن انظار الجميع مع التعاسة المخزية هذه للحب المخدوع في البيت الريفي ، والتي تبدو جلية للعيان حتى بالنسبة لخدم البيت ! لكن لدى هذه الفكرة طعنتـــه ذكرى الملمس المخملي لشفتيها القانيتين مثل الكرز ، مما سلبه حركة اليدين والساقين . ولئن حدث ان جلس في الشرفة لوحده ومرت به مصادفة ، كانت تقول له ببساطة مفرطـة وعلى الماشي عبارة ما تافهـــة متعمدة مثل – «أين العمة ؟ الم ترها ؟» – وكان يعاجل في الرد عليها باللهجة نفسها مستعدا للنشيج من الألم . وفي احدى المرات رأت وهي ماشية زويكا في أحضانه ، – ما علاقتها بـــالامر ؟ وفجأة لمعت عيناهـــا بجنـون وصرخت : «لا تتجاسري ايتها الصبية السافلة على الجلوس في احضان الرجال !» – فغمرته البهجة : تلكم هي الغيرة ، الغيرة ! اما زويكا فكانت تتصيد كل لحظة عندما يكون بوسعها بمكان ما في غرفـــة خالية ، لتتعلق بعنقه وهي راكضة وتهمس ، وهي تبرق بعينيهـــا وتلعق شفتيهـــا : «حبيبـــي ، حبيبي !» وحدث مرة ان اقتنصت بخفة بالغة شفتيه بثغرها الريان ، مما جعله طوال اليوم لا يستطيـــع تذكرها بدون ارتجاف لذيذ – ورعب : ما هذا الذي

يجري معي ! وكيف سأنظر الآن في عيون نيكولاي جوريفيتش وكلافديا الكسندروفنا !

كان فناء البيت الريفي الشبيه بالضيعة كبيرا . فمن جهة اليمين يقوم اسطبل قديم خاو فيه مخزن الدريس في عليته ، ثم جناح طويل للخدم يرتبط بالمطبخ ، الذي تتراءى من خلفه أشجار البتولا والزيزفون ، ومن جهة اليسار تنمو منداحة صنوبرات عتيقة فوق الارض الصلبة الكثيرة الروابي ، وفي الفسحات الخضراء بينها تنبجس أراجيح متنوعة ، وبعدها ، عند طرف الغابة ، يقع ملعب الكروكيت الممهد اما البيت ، الكبير ايضا ، فيقوم بالذات مقابل البوابة ، وخلفه حيز كبير يشغله خليط يجمع ما بين الغابة والحديقة مع درب ظليل من اشجار الشوح العتيقة تغمره القتامة والمهابة ، يمر وسط هذا الخليط من شرفة البيت الخلفية الى محل الاستحمام في البركة . كان أهل البيت يجلسون لوحدهم او مع الضيوف دائما في الشرفة الأمامية المتداخلة مع البيت والمحمية من أشعة الشمس . وفي ذلك الصباح القائظ من يوم الأحد لم يكن يجلس في هذه الشرفة سوى ربة البيت وليفيتسكي . وبدا الصباح ، كما هي الحال دوما لدى وجود ضيوف ، بهيجا للغاية ، وكان عدد الضيوف القادمين كبيرا ، وصارت الوصيفات المرتديات الحلل الجديدة يمضين بين الفينة والفينة في الفناء

من المطبخ الى داخل البيت ومن البيت الى المطبخ ، حيث سارت الاعمال على قدم وساق لتهيئة الفطور . كان القادمون خمسة: كاتب أسمر الوجه حاد الطبع ، ترتسم عليه دوما امارت الجد والصرامة باكثر مما ينبغي ، بيد انه من أشد هواة الالعاب المختلفة ، وبروفسور قصير الساقين شبيه بسقراط ، فى الخمسين من العمر ، تزوج لتوه احدى طالباته البالغة العشرين من العمر الشقراء والنحيفة الجسم التى وفد معها ، وسيدة شديدة الاناقة ، تلقب باسم الزنبور بسبب قامتها وهزالها وشراستها وحساسيتها ، وتيتوف الذي نعته دانيليفسكي بالجنتلمان الوقح . آنذاك كان جميع الضيوف ، وفاليريا ودانيليفسكى نفسه جالسين تحت اشجار الصنوبر بالقرب من الغابة ، وفي فيئها الذي تتخلله اشعة الشمس . وجلس دانيليفسكي في مقعد يدخن السيجار والاطفال مشغولون في اللعب مع الكاتب وزوجة البروفسور عند الارجوحة ، اما البروفسور وتيتوف وفاليريا والزنبور فانهمكوا في ضرب كرات الكروكيت بالمضارب ، وما ينفكون يتصايحون ويتجادلون ويتشاجرون . وكان ليفيتسكي وربة البيت يصغيان اليهم . اراد ليفيتسكي الانضمام اليهم – لكن فاليريا طردته على الفور بقولها : «ان العمة تفرز الكرز لوحدها ، فتفضل بالذهاب لمساعدتها !» فابتسم ابتسامة خرقاء ، ووقف لحظة ، وراقبها كيف تنحنى فوق كرة الكروكيت والمضربة بيدها ، وكيف تتدلى

تنورتها التيسور فوق سمانتي ساقيها المكتنزتين في جوارب رقيقة من الحرير البيج ، وكيف تنوء بلوزتها الشفافة بامتلاء وثقل نهديها ، وتتراءى تحتها البشرة السمراء لكتفيها المدورتين ، فتبدو وردية بسبب الحمالات الوردية لقميصها الداخلي ، – ثم دلف الى الشرفة . كان في غاية البؤس في ذلك الصباح ، لذا فان ربة البيت التي بدت كحالها دوما ، وديعة وهادئة وصبوحة بوجهها الذي ما زال محتفظا بشبابه وبنظرات عينيها الصافيتين ، وجلست مصغية ايضا بألم دفين في القلب الى الاصوات المترددة تحت أشجار الصنوبر ، راحت تسترق النظر اليه .

غرزت الشوكة المذهبة بأصابعها المخضبة بحمرة الدم في حبات الكرز وقالت :

– سيكون من المستحيل الآن ازالة هذه الصبغة بالغسل ، وأنت يا جورج تحسن دوما تلطيخ نفسك بصورة ما تلطيخا شديدا . . . يا عزيزي ، لم ترتدي طوال الوقت السترة الرسمية ، فالجو حار ، وبوسعك ان ترتدي على أحسن وجه بالقميص والحزام فقط . كما انك لم تحلق ذقنك منذ عشرة أيام . . .

كان يعرف بان خديه الغائرين قد غطاهما شعر تشوبه الحمرة ، وان بدلته الرسمية البيضاء الوحيدة قد استهلكت جدا ، وان سراويله الطلابية صارت تلمع من الوساخة وحذاءيه قذران ، وكان يعرف بانه شديد الاحديداب في جلوسه ، بصدره الضيق وبطنه المنبعج ، فأجابها محمر الوجه :

– حقا ، حقا ، كلافديا الكسندروفنا ، أنا غير حليق ، مثل السجين الهارب ، وعموما اهملت مظهري تماما ، مستغلا طيبتك بلا ضمير ، فسامحيني ، لخاطر الله . سأعمد حالا الى تحسين مظهري ، بالاخص وان الوقت قد حان منذ امد طويل لسفري الى موسكو ، وطال مقامي عندكم حتى سئمني الجميع . وقررت بصورة قاطعة ان أسافر يوم غد . ثمة رفيق يدعوني للقدوم اليه في موغيليوف – وكتب يقول ان المدينة خلابة للغاية . . .

وانحنى أكثر فوق الطاولة لدى سماعه من ساحة الكوركيت صوت تيتوف يصيح بلهجة آمرة على فاليريا :

– لا ، لا ، يا سيدتي ، هذا يخالف قواعد اللعبة ! انت لا تحسنين وضع ساقك على الكرة ، فتضربين الساق بالمضرب – هذا ذنبك . ولا يجوز الضرب مرتين . . .

في اثناء الفطور بدا له ان جميع الجالسين حول المائدة قد تقمصوه – فياكلون ويتحدثون وينكتون ويقهقهون ساخرين في اعماقهم . وبعد الفطور توجه الجميع لنيل قسط من الاستجمام تحت فيء الدرب الظليل لأشجار الشوح ، المفروش بطبقة كثيفة من الابر اللزقة ، وجلبت الوصيفات السجاجيد والوسائد الى هناك . ومشى في الفناء القائظ نحو الاسطبل الخالي ، وصعد السلالم الجانبية الى عليته شبه المعتمة ، حيث يخزن الدريس القديم ، والقى بنفسه عليه ، ساعيا

الى اتخاذ قرار ما ، وصار يتطلع متفحصا ، وهو يرقد على بطنه ، الى ذبابة جالسة على الدريس امام عينيه مباشرة . وبادئ ذي بدء حكّت بسرعة ساقيها الاماميتين ، كما لو كانت تغتسل ، ومن ثم اخذت تمد ساقيها الخلفيتين بجهد وبصورة غير طبيعية . وبغتة ولج احدهم العلية مسرعا وأوصد الباب ، — وحينما التفت راى زويكا في نور نافذة التهوية . قفزت اليه ، وغاصت في الدريس ، وهمست لاهثة ، ومستلقية على بطنها أيضا ، محدقة في عينيه ، كما لو كانت فزعة :

— جورجيك . عزيزي ، لا بد لي من ابلاغك بأمرما — هام جدا بالنسبة لك ، ورائع !

فقال وهو ينهض :

— ما هو ، زويتشكا ؟

— سترى ! لكن عليك أولا ان تقبلني لقاء هذا

— لا بد من ذلك .

واخذت تضرب الدريس بساقيها ، معرية سمانتي فخذيها الممتلئتين .

وقال وهو عاجز عن حبس مشاعر الحنان المرهق بعد ان اضناه العذاب الروحي :

— زويتشكا . زويتشكا ، انت وحدك تحبينني ، وانا ايضا احبك حبا جما . . . لكن لا ينبغي ، لا ينبغي . . .

لكنها بدأت تضرب بساقيها بعنف أشد :

— ينبغي ، ينبغي ، لا بد من ذلك !

القت برأسها على صدره ورأى تحت الشريط الأحمر اللمعان الفتي لشعرها الكستنائي وتنشق رائحته والصق به وجهه . وبغتة صاحت بصوت خافت ونافذ «أوي !» وأمسكت بتنورتها من الخلف .

فهب واقفا :

— ماذا جرى ؟

وسقطت ورأسها في الدريس واخذت تنتحب :

— لقد لدغني شيء ما بصورة مؤلمة جدا . . انظر ، أنظر بسرعة ! رفعت تنورتها من جهة الظهر ، ونزعت السراويل عن جسدها المكتنز :

— ماذا هناك ؟ دم ؟

— لا شيء أبدا ، زويتشكا !

وصاحت منتحبة مرة أخرى :

— كيف لا ؟ انفخ ، انفخ ، هذا يؤلم جدا !

واخذ ينفخ وقبّل عدة مرات وبنهم البرودة العذبة لعجزها الممتلئ العريض . وهبت بفرح مجنون وفي عينيها بريق ودموع :

— خدعتك ، خدعتك ! واليك لقاء هذا السر العظيم التالي : هجرها تيتوف ! هجراً كاملا ! وقد سمعنا ذلك ، أنا وجريشكا ، في غرفة الاستقبال : كانا يسيران في الشرفة بينما نحن تخفينا جالسين على الارض وراء المقاعد ، وكان يقول لها بلهجة استياء شديد للغاية : «سيدتي ، أنا لست من الذين يمكن تضليلهم وعدا ذلك انني لا أحبك . قد أحبك ان كنت جديرة بهذا ، اما الآن فلا حاجة

الى اية ايضاحات» . رائع ! هذا ما تستحق!

ثم قامت واندفعت الى الباب وهبطت السلم .

وتابعها بنظراته ، وقال بصوت عال وهو ما انفك يشعر بملمس شفتيه على جسدها .

– انا وغد !

في المساء ساد الضيعة الهدوء والصمت ، وحلت الطمأنينة ، والجو العائلي – فقد غادر الضيوف في الساعة السادسة . . . الغسق دافئ ، وكانت تنبعث من وراء المطبخ رائحة اشجار الزيزفون المزهرة الشبيهة بروائح الادوية ، والرائحة الحلوة للدخان والاطعمة من المطبخ حيث يجري اعداد طعام العشاء . والسعادة الوادعة لهذا كله – الغسق والروائح – وكذلك عذاب حضورها ووجودها بالقرب منه الذي لا يزال يعد بشيء ما . . . وعذابات حبه لها الذي يمزق روحه – ولا مبالاتها وغيابها عنه بلا شفقة . . . أين هي ؟ ونزل من شرفة البيت الامامية ، مصغيا الى الصرير والصريف المنتظمين ، اللذين تتخللهما فترات سكون ، المنبعثين عن الارجوحة تحت اشجار الصنوبر ، ودنا من الارجوحة – نعم ، انها هي . توقف متطلعا اليها كيف تنطلق صاعدة وهابطة بحركات واسعة ، شادة الحبل بقوة أكبر فأكبر ، جاهدة الى الانطلاق الى آخر ذروة ، متظاهرة بانها لا تراه . وتندفع بقوة نحو الأعلى مع صريف الحلقتين ، وتختفي وسط

الاغصان ، ثم تهبط نازلة بسرعة شديدة ، كما لو اصابتها رصاصة قناص ، جالسة ومرفرفة باطراف ردائها . لكم تمنى الامساك بها ! الامساك بها وخنقها واغتصابها !

– فاليريا اندرييفنا ! حذارك !

واخذت تتأرجح بعنف أكبر كما لو لم تسمع قوله .

أبان العشاء على الشرفة ، وتحت المصباح الساطع والساخن انطلقوا ضاحكين على الضيوف ، وفي الجدال بشأنهم . وكانت تضحك هي ايضا بصورة مصطنعة وشريرة ، وأكلت بنهم القريشة مع القشدة ، دون ان تلقي مرة أخرى نظرة واحدة باتجاهه . لم تلتزم الصمت سوى زويكا فواصلت استراق النظرات نحوه ، بعينين متألقتين ، عارفتين بأمر ما معه لوحدهما .

انصرف الجميع واخلدوا الى النوم مبكرا ، ولم يبق في البيت نور واحد . ساد الظلام والسكون المطبق في كل ركن منه . بينما تسلل هو دون ان يلحظه أحد بعد العشاء فورا الى غرفته ، التي يطل بابها على الشرفة الامامية ، وشرع في وضع ملابسه في كيس يحمل على الكتفين ، وفي رأسه تدور الخواطر التالية : سأخرج الدراجة بدون ضجة وأستقلها – والى المحطة . وبالقرب من المحطة سأرقد على الرمال في مكان ما من الغابة حتى وصول اول قطار صباحا . . . لكن لا ، هذا لا

يجوز . وسيتم تاويل هذا الله يعلم كيف – الهرب كالصبي ، ليلا ، دون توديع أحد ! يجب الانتظار حتى الغد ، والرحيل بيسر كما لو لم يحدث شيء : «الى اللقاء ، عزيـــزي نيكولاي جريجوريفيتش الى اللقاء عزيزتـــي كلافديا الكسندروفنا ! شكرا ، شكرا ، على كل شيء ! نعم ، نعم ، الى موغيليوف ، يقال انها مدينة آية في الجمال . . . زويتشكا ، مع السلامة ، يا حبيبتي ، اكبري وافرحي ! جريشكا ، دعني اصافح يدك الشريفة . . ! فاليريا اندرييفنا ، اتمنى لك كل خير ، ولا تسيئي الظن بي . . .» . كلا ، لا حاجة لقول لا تسيئي الظن بي ، فهذا سخف وعدم لياقة ، كما لو كنت ألمح الى شيء ما . . .

بعد أن أحس بعدم وجود أقـــل أمل للاستسلام الى الكرى ، هبط بهدوء من الشرفة ، عاقدا العزم على بلوغ الطريق الى المحطة واجهاد نفسه ، والسير نحو ثلاثة فراسخ . لكنه توقف في الفناء : الغسق الدافئ ، السكـــون العذب ، والبياض الحليبي للسماء المتأتي عن النجوم الصغيرة التي لا تعد ولا تحصى . . . ومشى في ارجـــاء الفناء ، وتوقف مرة اخرى ، ورفع رأسه : فقد غارت في الاعالي النجوم الغائصة أعمق فأعمق ، وبدت هناك عتمة ما زرقاء قاتمة رهيبة ، وأغوار ما . . وطمأنينـة وسكون وخواء عظيم ، غامض ، وجمال العالم الخالي مـــن الحياة والهدف وورع الليل الصامت السرمدي . . . وهو وحيد يقف وجها لوجـــه أمام هذا كله ، في

الهوة بين السماء والأرض . . . طفـــق يبتهل في قرارة نفسه ، وبدون كلمات طالبا رحمة سماوية ما ، وشفقة مـــا عليه ، شاعـــرا بنشوة مريرة بارتباطه مع السماء ومن بعده بالانفصال نوعا مـــا عن ذاته ، عن جسده . . ومن ثم نظر الى البيت ، ساعيا الى المحافظة على هذه المشاعر في دخيلته : النجوم تنعكس ببريق مفلطح في زجاج النوافـــذ الأسود – وفي زجاج نافذتها أيضا . . يا ترى هل هي نائمة ام راقدة ، أسيرة الذهول واللامبالاة لفكرة واحدة دون غيرهـــا عن تيتوف ؟ هـــا قد حان دورها . . .

دار حول البيت الكبير الباهت الهيكل في الدجى ، وغذّ الخطى الى الشرفة الخلفية ، الى الفسحة بينها وبين الصفين الرهيبين في ارتفاعهما الشاهـــق وسوادهما ليلا مـــن اشجار الشوح الساكنة ذات القمم المدببة وسط النجوم . وتناثرت في العتمـــة تحت أشجار الشوح الانـــوار الخضراء المصفرة الساكنة لليراعات . وتراءى شيء ما أبيض غامض على الشرفة . . فتوقف ، وأمعن النظر واذا بـــه يرتجف من الرعب والمفاجأة : اذ انطلق من الشرفة صوت خافت ومتزن ، خال من اي تعبير .

– ما لك تتسكع في الليالي ؟

تقدم في ذهول وعلى الفور تبين ما هناك : فقـد كانت ترقد على المقعـــد الهزّاز ، متلفعة بشال مفضض عتيق ، يلتف به جميع ضيوف دانيليفسكي

في الامسيات حين يتلبثون عندهم للمبيت . تملكته الحيرة وسأل هو أيضا :

– وأنت لم لا تنامين ؟

لم ترد ، ولزمت الصمت ، ونهضت ونزلت من الشرفة اليه دون ان ينم عنها صوت ، مسوية الشال المنزلق من كتفها :

– هيا نتمشى . . .

باديء ذي بدء تبعها من الخلف ، ومن ثم الى جانبها متجها نحو قتامة الدرب المشجر ، الذي بدا كما لو يضمر أمرا ما في سكونه المكفهر العابس . ما هذا ؟ ها هو مرة اخرى معها ، لوحدهما ، في هذا الدرب ، وفي مثل هذه الساعة ؟ ومرة أخرى هذا الشال ، الذي ينزلق من كتفها دوما ويلسع أطراف أصابعه بشعيراته الحريرية حين كان يعدل من وضعه عليها . . . واحس بغصة في بلعومه ونطق :

– لم ولاي غرض أنت تعذبينني بهذه الصورة المؤلمة ؟

فهزت رأسها :

– لا أعرف . اسكت .

وواتته الجراة فرفع صوته :

– نعم ، لم ولاي غرض ؟ وما حاجتك لان . . .

فامسكت بيده المتدلية وشدتها :

– اسكت . . .

– فاليا ، أنا لا أفقه شيئا . . .

تخلت عن يده ، وحدقت نحو اليسار ، الى شجرة

السنوح في نهاية الدرب ، المتلفعة بوشاحها المثلث الشكل العريض الأسود :

– أتذكر هذا المكان ؟ انني قبلتك هنا أول مرة . فقبلني هنا للمرة الأخيرة . . .

حثت الخطى الى تحت أغصان الشجر ، وألقت الشال على الارض بحركة عنيفة .

– تعال اليّ !

وما لبثت في اعقاب اللحظة الأخيرة ان أبعدته بحدة وباشمئزاز وبقيت راقدة ، كما كانت ، سوى انها انزلت ركبتيها المرفوعتين والمنفرجتين وأرخت يديها بمحاذاة جسدها . ورقد طريحا الى جانبها ، ضاغطا بخده على الابر الصنوبرية ، التي تسح دموعه الساخنة فوقها ، وفي هدوء الليل والغابة الجامد تراءى القمر المتأخر كشريحة حمراء ثابتة من الشمام بعيدا وعلى ارتفاع منخفض فوق الحقول المبهمة المعالم .

في غرفته تطلع الى الساعة بعينيه المتورمتين بسبب الدموع فأصابه الفزع : الساعة الواحدة والدقيقة الاربعون ! انزل دراجته من الشرفة بعجلة ساعيا الى عدم احداث ضجة ، وقادها الى الفناء بهدوء وبسرعة . ووراء البوابة اعتلى السرج وانحنى بشدة واعمل ساقيه في دواستيها بصورة محمومة ، قافزا فوق القفار الرملية للطريق في الغابة ، بين سواد الجذوع الكثيف المنطلق نحوه من الجانبين والبارز على خلفية السماء قبيل الفجر . «تأخرت !» وصار

يندفع بحماس أكبر ، ماسحا جبينه المعروق براحة يده : فالقطار السريع القادم من موسكو قد مـــر بالمحطة مندفعا – بـــدون توقف – في الثانيـــة والدقيقة الخامسة عشرة – وبقيت لديه عدة دقائق فقط ، وفجأة برزت فى نهاية الطريق بناية المحطة القاتمة في غبشة نور الفجر ، التى ما برحت شبيهة بالغسق . ها هي ! وانعطف بحزم الى الطريـــق الجانبي ، الممتد على جانب خط السكك الحديدية ، ثم انعطف نحو اليمين الى المعبر فـوق السكـــك ، وتحت حاجز الطريق ، ثم الى اليسار مرة أخرى ، بين القضبان ، مندفعا ، مصطدما بالعوارض ، ونحو المنحدر للقاء القاطرة المندفعة مـــن أسفله هادرة وأنوار مصابيحها تبهر البصر .

١٣ اكتوبر ١٩٤٠

ثانيا

كانت تعمـــل وصيفة لـــدى كازاكوفا ، احدى قريباته من مالكي الاطيان الصغار ، وبلغت ربيعها السابع عشر ، كانت قصيرة القامـة ، ويلاحظ هذا على الاخص حين تمشي ، مؤرجحة تنورتها بخفـــة ورافعة نهديها الصغيرين قليـــلا تحت البلوزة ، حافية القدمين او في حذاءين مـــن اللباد ، ابـــان الشتاء ، كـــان وجهها البسيـــط مليحا فقط ، وعيناها ، عينا الفلاحـة ، الرماديتان جميلتين فقط بنضارة الشباب . وفي تلك الحقبة البعيدة ضيـــع نفسه بطيش على الاخص ، وقضى حياته في التجوال والترحال ، واجرى لقاءات وصلات غراميـــة عابرة كثيرة – واعتبر صلته بها عابرة ايضا . . .

سرعان ما استسلمت لذلك الامر العجيب الذي رمته الاقدار لها ، بصورة مباغتة نوعا ما في تلك الليلة الخريفية ، لقد واصلت البكاء عدة ايام ، بيد انها بمضي الايام صارت تساورها القناعة اكثـــر فاكثر بأن ما وقع لها ليس بنازلة من النوازل ، بل سعادة وهناء ، وبأنـه يغدو بالنسبة لها حبيبـــا

عزيزا اكثر فاكثر . وفي لحظات الوصال التي صارت غالبا ما تتكرر اخذت تدعوه «بتروشا» * ، وتتحدث عن تلك الليلة بصفتها من ماضيهما المشترك العزيز على النفس .

في البداية كان يصدقها ولا يصدقها :

– هل صحيح انك لم تكوني تتظاهرين بالنوم يومذاك ؟

بيد انها كانت تبحلق بعينيها فقط .

– وهل انك لم تشعر بأنني نائمة ، الا تعرف كيف ينام الصبيان والصبايا ؟

لو عرفتُ انك نائمة حقاً ، لما مسستك مهما كان الامر .

– وانا لم اتحسس اي شيء ، اي شيء ، حتى اللحظة الاخيرة تقريبا ! لكن كيف دار في خلدك ان تأتي اليّ ؟ فحين وصلتَ حتى لم تلق نظرة اليّ . وفي المساء فقط سألتَ : يبدو انك بدأت العمل هنا منذ فترة وجيزة ، واظن ان اسمك تانيا ؟ ثم مضت فترة طويلة وانت تنظر اليّ بلا اهتمام كما بدا لي . اذن كنتَ تتظاهر بهذا ؟

فردّ بأنه قد تظاهر ، طبعا ، لكنه لم يقل الصدق : اذ حدث كل شيء على حين غرة بالنسبة له أيضا .

كان قد أمضى بداية الخريف في القرم ، وتوقف

---

* اسم التصغير لاسم بيوتر . **المعرب** .

عند كازاكوفا في طريقه الى موسكو . وعاش حوالى اسبوعين في البساطة الباعثة على الطمأنينة التي تسود ضيعتها ، وفي الايام القصيرة لبداية شهر نوفمبر ، كاد يزمع على السفر . وفي ذلك اليوم انطلق متجولا على صهوة الحصان لوداع القرية ، حاملا بندقية صيد على ظهره وتبعه كلب الصيد في البراري المقفرة والغابات العارية الاشجار . ولم يجد طريدة يصطادها فعاد الى العزبة وقد بلغ به الاعياء اقصاه وبات ينهشه الجوع ، فتناول في اثناء العشاء ملء مقلاة من الكستليتة بالقريشة ، واحتسى سراحية من الفودكا ، وعدة اقداح من الشاي ، بينما كانت كازاكوفا تتحدث كعادتها دائما عن زوجها الفقيد ، وعن ولديها اللذين يخدمان في الجيش بمدينة اوريول . وفي الساعة العاشرة غمر البيت الظلام كما هي الحال دوما ، وانبعث نور شمعة فقط في غرفة المكتب خلف حجرة الاستقبال ، حيث كان يعيش لدى مجيئه الى هناك . وحين دلف اليها ، كانت تركع حاملة شمعة بيدها على فراشه المعد على الاريكة ، مقربة الشمعة المحترقة من الجدار المصنوع من جذوع الاشجار . ولما رأته وضعت الشمعة على الطاولة الصغيرة بالقرب من الفراش ، ومرقتْ خارجة .

قال بدهشة :

– ما القضية ؟ مهلاً ، ماذا كنت تفعلين هنا ؟

فاجابت بسرعة هامسة :

— كنت احرق بقة . كنت أعد الفراش لك فاذا ببقة على الجدار . .

ثم انصرفت ضاحكة .

ودّعها بنظراته ، ونزع جزمتيه فقط دون ان ينضو عنه ملابسه ، واستلقى فوق اللحاف على الاريكة ، آملا في التدخين والتأمل في أمر ما ، — فلم يكن من عادته الاخلاد الى النوم في الساعة العاشرة ، — واستغرق على التو في النوم . واستيقظ للحظة ، حيث اقلقه في نومه نور الشمعة المتراقص ، ونفخ عليه فاطفأه واستسلم للكرى مرة ثانية . وعندما فتح عينيه مرة أخرى ، بدا كل شيء منارا بوضوح في تلك الليلة الخريفية القمراء ، القفراء والرائعة في وحدتها ، وراء النافذتين المطلتين على الفناء والنافذة الجانبية المطلة على الحديقة . وفي غسق الليل وجد حذاءيه بالقرب من الاريكة ومضى الى غرفة المدخل المجاورة للمكتب ، من اجل الخروج الى السطحة الخلفية ، فقد نسوا اعداد ما يجب لكي يقضي حاجته في الليل . لكن تبين ان باب غرفة المدخل مغلق بالرتاج من الخارج ، فسار في ارجاء البيت المضاء بنور غامض آت من الفناء نحو السطحة الامامية . عادة يتم المرور اليها عبر غرفة المدخل الرئيسي ودهليز كبير . وقام في هذه الغرفة ، مقابل النافذة العالية وفوق صندوق عتيق ، حاجز توجد وراءه غرفة بدون نوافذ كانت تعيش فيها الوصيفات دائما . وكان

الباب في الحاجز مفتوحا قليلا ، ووراءه قتام . فاشعل عود ثقاب ورآها نائمة . كانت مستلقية على ظهرها فوق سرير خشبي ، بالقميص فقط وبتنورة قطنية ، — وتكوّر تحت القميص نهداها الصغيران ، كانت ساقاها عاريتين حتى الركبتين ، وبدت ذراعها اليمنى الممتدة نحو الجدار ، ووجهها على الوسادة ، ميتين . . . انطفأ عود الثقاب . وقف — ثم دنا من الفراش بحذر . . .

عندما خرج عبر الدهليز المعتم الى السطحة كان يفكر بصورة محمومة :

— يا للغرابة ، ويا للمفاجئة ! هل كانت نائمة حقا ؟

وقف على السطحة برهة ، ثم تمشى في ارجاء الفناء . . . بدت الليلة غريبة ايضا . الفناء فسيح ومقفر مضاء بالنور الساطع للبدر في اعالي السماء . ومقابل البيت بدت العنابر التي يغطيها القش العتيق المتحجر ، — حظيرة الماشية ، حظيرة العربات ، اسطبل الخيل . كانت السحب الليلية الغامضة تتبدد وراء سقوفها ببطء في السماء من الجهة الشمالية — انها مثل جبال ميتة تغطيها الثلوج . اما فوق رأسه فبدت السحب بيضاء وخفيفة فقط ، والبدر العالي المخضل بالدموع الماسية وسطها ، ويظهر بين الفينة والفينة في زرقة السماء القاتمة العارية بين السحب والمرضعة

بالنجوم ، وتراءى كما لو انه ينير السقوف والفناء بضوء اكثر ألقا . وكل شيء حواليه يبدو غريبا في حضوره الليلي ، المنقطع عن كل ما هو بشري ، المتلألىء بلا غرض . ومما زاد من هذه الغرابة انه بدا وكأنه يرى لاول مرة كل هذا العالم الليلي الخريفي المضاء بنور القمر . . .

جلس بالقرب من حظيرة العربات على سلم عربة ملوثة بالاوحال الجافة . كان الجو دافئا كما في ليالي الخريف ، وفاحت فيه روائح الحديقة الخريفية ، والليل مهيبا ، تسوده السكينة ، والهناء وتوحد بصورة عجيبة مع تلك المشاعر ، التي حملها معه من ذلك الوصال المفاجئ مع هذا المخلوق الانثوي الشبيه بالطفلة . . .

استغرقت في النحيب الخافت حين ثابت الى رشدها كما لو انها في تلك اللحظة فقط قد ادركت ما حدث . ولكن لربما حقا «في تلك اللحظة فقط» ؟ كان جسدها كله قد استسلم له وكأن الحياة قد فارقته . في البداية ايقظها هامساً : «اسمعي ، لا تخافي . . .» لكنها لم تسمعه ، او تظاهرت بأنها لا تسمع . وقبّلها بحذر في خدها الساخن – لكنها لم ترد على القبلة البتة ، ودار في خاطره انها بسكوتها قد اعطته موافقتها على كل ما يمكن ان يعقب هذا . وافرج ساقيها ودفئهما الحنون الساخن – بينما اطلقت تنهدة فحسب وهي نائمة ، وتمطت برخاوة ووضعت يدها وراء رأسها . . .

– ماذا لو لم تكن تتظاهر ؟

جال هذا في خاطره ونهض من سلم العربة وتطلع الى الليل بقلق .

حين بدأت بالنحيب بلذة وبمرارة ، أخذ يقبلها ليس فقط بشعور الامتنان الحيواني لتلك السعادة المباغتة التي منحتها إياه بلا وعي ، بل وبشعور الفرحة والحب ، يقبلها في جيدها وصدرها ، اللذين تفوح منهما رائحة حلوة لشيء ما قروي وانثوي . فردت بغتة باكية باندفاع لاواع كما تفعل النساء – اذ احتضنت رأسه وضمته اليها بقوة ، كما لو ارادت أن تعبّر له عن الامتنان أيضا . لم تكن لتدرك بعد في شبه نومها من هو ، لكن رغم ذلك – فقد كان ذاك ، الذي كان يجب عليها ، في لحظة رسمتها لها الاقدار ، ان ترتبط معه لاول مرة بالصلة الاكثر كتمانا وذات النشوة القاتلة . وقد وقعت هذه الصلة المتبادلة ، وليس ثمة قوة في العالم لتقدر على قطعها ، وحملها في قرارة ذاته ، الى ابد الابدين ، وها هي الليلة العجيبة تدخله الى مملكتها الوضاءة الساحرة سوية معها ، مع هذه الصلة . . .

كيف كان بوسعه لدى السفر الا يتذكرها الاّ بصورة عابرة ناسيا صوتها الجميل البريء البسيط ، وعينيها اللتين كانتا تنمان عن الابتهاج تارة وعن الحزن تارة اخرى ، الا انهما متولهتان

وفيتان دوما ، وكيف كان بوسعه ان يعشق أخريات ، وان يعير بعضهن اهتماما اكبر !

في اليوم التالي كانت تؤدي اعمالها دون ان ترفع عينيها . سألتها كازاكوفا :

– ما لك ، يا تانيا ؟

فردّت باذعان :

– اه ، يا سيدتي ، مصائبي كثيرة . . .

وقالت له كازاكوفا حين خرجت تانيا :

– حقا ، شيء طبيعي ، هي يتيمة ، بلا أم ، والاب فلاح معدم فاجر وفاسق . . .

عند المغرب ، حين اعدت السماور في السطحة ، قال لها لدى مروره بها :

– لا تظني بي الظنون ، انني احبتك منذ وقت بعيد . دعي البكاء والكرب ، فلن يجديك هذا نفعا . . .

فردّت بصوت خافت ورموشها مخضلة بالدموع ، واضعة في السماور شظايا الاخشاب الملتهبة :

– لو كنتَ تحبني حقا لكان الامر كله أيسر . . .

ومن ثم صارت ترمقه بنظراتها احيانا ، كما لو كانت تسأله بخفر وهياب في نظراتها : حقا ؟

في احدى الامسيات حين جاءت لاعداد فراشه دنا منها واحتضنها من كتفيها . ورنت اليه خائفة ، وهمست وقد اصطبغت بالحمرة القانية :

– ابتعد لخاطر الله . فقد تلج العجوز الغرفة . . .

– أية عجوز ؟

– الوصيفة العجوز ، كما لو انك لا تعرفها !

– سآتي اليك الليلة . . .

وقعت هذه العبارة وقع الصاعقة لديها ، – بادئ ذي بدء كانت العجوز تثير فزعها :

– اوه ، كلا ، كلا ! سأجن من الخوف !

وقال بعجلة :

– اذن ، لا حاجة ، لا تخافي ، لن آتي .

صارت تؤدي خدمتها كالسابق بسرعة وهمة ، وبدأت تمرق كالاعصار عبر الفناء الى المطبخ ، كحالها سلفا ، وفي بعض الاحيان كانت تسترق اللحظة المناسبة لترمقه بنظراتها التي صارت تنم عن البهجة المشوبة بالحياء . وحدث مرة في الصباح حين أوشك نور الفجر أن ينبلج ، وكان ما برح نائما ، ان ارسلت الى المدينة لشراء بعض الحاجيات . وعند تناول طعام الغداء قالت كازاكوفا :

– ما العمل ، لقد أرسلت المأمور والعامل الى الطاحونة ، ولا يوجد من أبعث به لجلب تانيا من المحطة . ماذا لو تذهب انت ؟

اجاب محتبساً فرحته متظاهرا باللامبالاة :

– ممكن ، سيسرني التنزه .

لكن الوصيفة العجوز التي كانت تناول الطعام برطمت قائلة :

– فيم يا سيدتي تريدين جلب العار الابدي الى الفتاة ؟ ما سيقولون بشأنها في القرية كلها بعد هذا ؟

وقالت كازاكوفا :

– اذن ، لتذهبي انتِ . فما العمل ، هل يتعين عليها السير مشيا على الاقدام من المحطة ؟

في حوالي الساعة الرابعة غادر البيت في عربة خفيفة ذات مقعدين قرنت اليها فرس عجوز سوداء وعالية . فانطلق بها مسرعا خارج القرية خوفا من التأخر على القطار ، متارجحا فوق الطريق الموحلة الزلقة الوعرة التي تجمدت ثم ذابت ، – كانت الايام الاخيرة رطبة وكثيرة الضباب ، وفي ذلك اليوم كان الضباب شديدا على الاخص : فحين مشى عبر القرية بدا وكأن الليل على وشك ان يدلهم وتراءت في الاكواخ اضواء حمراء داخنة ، موحشة بسبب الضباب الازرق الشاحب . وفيما بعد في الحقول اصبح الجو معتما تقريبا ، ولم يعد يرى شيئا في الضباب . وقابلته رياح باردة وظلام رطب . بيد ان الرياح لم تبدد الضباب ، بل بالعكس ، جعلت دخانه الازرق القاتم كثيفا اكثر فاكثر ، واختنقت به ، برطوبته الفواحة ، وبدا كما لو ان وراء حجبه الضبابية ينداح خواء – نهاية العالم ، وكل كائن حي . وغطت كل شيء خرز دقيقة

من الطل – قبعته ومعطفه ورموش عينيه وشاربيه . اندفعت الفرس السوداء الى الامام بخطوات عريضة ، ومضت العربة فوق الاخاديد اللزقة ضاربة صدره . واحتال في تدخين سيجارة ، واختلط دخان السيجارة الحلو وذي العبير الدافئ البشري برائحة الضباب العذراء ورائحة الخريف المتأخر ، والحقول العارية المبللة . وخيم الظلام اكثر فاكثر وطغت العتمة اكثر فاكثر حواليه واعلاه وتحته ، ولم تعد ترى تقريبا رقبة الفرس الطويلة السوداء واذناها المنتصبتان حذرا . واشتد اكثر فاكثر شعور التقارب مع الحصان ، الكائن الحي الوحيد في هذه الارض القفراء ، والعداء الميت لكل ما يتواجد ، على يمينه وعلى يساره ، وامامه وخلفه ، وكل المجهول والمستور الكامن مهددا في هذا القتام الدخاني ، الزاحف نحوه بكثافة وظلمة متزايدتين . . .

حين ولج القرية المحاذية للمحطة ، غمرته مشاعر الفرح لرؤية المساكن ، والانوار الخابية في النوافذ الحقيرة الصغيرة ، ودفئها الحنون ، وفي المحطة بدا كل ما يوجد فيها عالما مغايرا تماما ، حيا ومنعشا ومدنيا . وما كاد يربط الفرس حتى ومض قادما الى المحطة القطار ذو النوافذ المضيئة ، ونفث الرائحة الكبريتية للفحم الحجري . وهرع الى المحطة بشعور رجل ينتظر زوجته الشابة . وعلى الفور رآها تلج مبنى المحطة ، مرتدية ملابس أهل

المدينة ، من الباب المقابل في اعقاب حارس المحطة الذي حمل كيسين من الحاجيات : كانت المحطة قذرة ، وتفوح فيها رائحة الكيروسين من الفوانيس التي تضيئها بنور باهت ، اما هي فكانت منشرحة متألقة بعينين منفعلتين وبوجهها الفتي الذي اثارته الرحلة غير الاعتيادية . وكان الحارس يقول لها شيئا ما مخاطبا اياها بصيغة الجمع . وبغتة التقت نظراتهما ، وحتى توقفت مرتبكة : ما القضية ، ما سبب وجوده هنا ؟

قال لها بعجلة :

– تانيا ، مرحبا ، جئت لأخذك ، لم يكن هناك من يرسل اليك . . .

هل كانت لديها ولو مرة في حياتها امسية سعيدة كتلك الامسية ! لقد جاء بنفسه لاستقبالي وانا قادمة من المدينة ، وانا في أبهى حلة ، وما اجملني ، مما لم يكن بوسعه تصور ذلك ، حيث كان يراني دائما بالتنورة القديمة ، والبلوزة الشيت الرخيصة ، ووجهي الآن كوجه خياطة ممتازة تحت هذا المنديل الحريري الابيض ، وارتدي فستانا جديدا من الصوف المبروم ، وفوقه جاكتة من الجوخ ، وارتدي جوارب بيضاء قطنية رقيقة وجزمتين قصيرتين جديدتين بنعلين نحاسيين ! كانت ترتجف بكل كيانها وصارت تتحدث معه بلهجة متصنعة كما يفعل الناس ابان الزيارات ، ورفعت طرف فستانها قليلا وتبعته بخطوات قصيرة

كالسيدات ، مندهشة بتسامح : «آه ، الهي ، لكم الارض زلقة ، ما اكثر الاوساخ التي جلبها معهم الفلاحون !» تجمدت بكل كيانها بفزع يشوبه الفرح ، ورفعت فستانها عاليا فوق تنورتها التحتانية البيضاء ، من اجل الجلوس على التنورة لا على الفستان ، واستقلت العربة وجلست الى جانبه كما لو كانت نداً له ، ولملمت ساقيها بارتباك مبتعدة عن الاكياس الراقدة عند قدميها .

واستحث الحصان صامتاً ، ومضى بها في قرّ دجنة الليل والضباب ، بمحاذاة الاضواء المتناثرة هنا وهناك في الاكواخ الواطئة ، فوق حفر تلك الطريق المعذبة الريفية في شهر نوفمبر ، ولم تجرأ على التفوه بكلمة واحدة ، متهيبة من صمته : هل غضب عليّ لأمر ما ؟ وقد ادرك ذلك ، والتزم الصمت عمدا . وبغتة ، حين غادرا القرية ، والتفعا بالظلام الدامس ، خفف سرعة الحصان ، وامسك العنان باليد اليسرى واحتضن باليمنى كتفيها ، في الجاكتة المرصعة بخرز باردة مبلّلة ، مهمهما وضاحكا :

– تانيا . . تانتشكا . . .

والقت بجسدها كله نحوه ، ملتصقة الى خده بمنديلها الحريري ومحياها الناعم الملتهب ، ورموشها المخضلة بالدموع الساخنة . ووجد شفتيها المبللتين بدموع الفرح ، واوقف الحصان ، ولم يستطع الابتعاد عنهما فترة طويلة . ثم عمد ،

كالأعمى دون ان يرى شيئا في الضباب والعتمة ، الى الترجل من العربة ، والقى معطفه على الارض ، وسحبها من كمها نحوه . وادركت كل شيء دفعة واحدة فقفزت اليه ، ورفعت بهمة وبعجالة كل حلتها العزيزة الى نفسها – الفستان الجديد والتنورة الجديدة ، ورقدت متحسسة المعطف ، ومنحته الى الابد ليس جسدها كله فقط ، الذي غدا الآن ملكا تاماً له ، بل وروحها كلها .

ارجأ السفر مرة أخرى .

كانت تعلم بأنه فعل ذلك من أجلها ، وترى كيف كان رقيقا معها ، ويخاطبها كما لو كانت انسانا عزيزا عليه ، وصديقه الخفي في البيت ، وكفت عن التهيب والارتعاش حين يدنو منها ، كما كانت تتهيب وترتعش في الفترة الاولى . اما هو فقد غدا اكثر هدوءاً وبساطة في لحظات العشق ، إذ تكيفت له بسرعة . وتغيرت كلها بالسرعة المميزة للشباب ، فقد غدت هادئة وديعة وسعيدة سعادة خالية من الهواجس والهموم ، وصارت تدعوه بيسر «بتروشا» ، واحيانا حتى كانت تتظاهر بأن قبلاته تثير لديها الملل : «آه ، الهي ، لا أجد طريقاً للخلاص منك ! فما ان تراني وحيدة حتى تهرع فورا اليّ !» وجلب هذا لها بهجة كبيرة : اذن ، هو يحبني ، اذن ، هو ليّ حقا ، ما دمت

استطيع الحديث معه هكذا ! وكانت ثمة سعادة اخرى : ان تبدى له غيرتها ، وحقها فيه .

فتقول له :

– الحمد لله ، ليس هناك اي عمل في البيدر ، والا لجاءت الفتيات . لأريتك عندئذ كيف تقيم العلاقات معهن !

ومن ثم تضيف ، وقد استبد بها الارتباك ، في محاولة مؤثرة للابتسام :

– الا اكفيك أنا وحدي ؟

اقبل الشتاء مبكرا . وهبت رياح الزمهرير الشمالية بعد انحسار الضباب ، فجمدت الاخاديد اللزقة في الطرق ، وتحجرت الارض ، واتلفت آخر عشب في الحديقة والفناء . ومضت سحب رصاصية تميل الى البياض ، وهمهم البستان الذي تعرى تماما ، مضطرباً ومسرعاً ، كما لو كان يولى هاربا الى مكان ما . وفي الليل كان البدر الابيض يغوص في أكوام السحائب . وبدت الضيعة والقرية بائستين وغليظتين لدرجة القنوط . ثم بدأ الثلج يتناثر ساقطا ، مغطيا الاوحال السوداء المتجمدة بما يشبه مسحوق السكر ، وغدت الضيعة والحقول التي ترى منها بيضاء ضاربة الى الزرقة الرمادية وفسيحة الارجاء . كانت آخر الاعمال في القرية على وشك ان تنتهي – فجرى ملء الاقبية بالبطاطس بعد تصنيفها ورمي المتعفن منها . توجه مرة للتنزه في القرية مرتديا معطفا مبطنا بفرو الثعلب ومعتمرا قبعة من

الفرو . وصارت الرياح الشمالية تبعثر شعيرات شاربيه وتلهب خديه . وجثمت فوق المكان سماء جهمة ، وبدت الحقول البيضاء المزرقة المنحدرة على الضفة الاخرى قريبة جدا . وفي القرية كانت ثمة حصيرات خيش مفروشة على الارض بالقرب من عتبات الاكواخ ، عليها اكوام من البطاطس . كانت تجلس على الحصيرات وتعمل نساء وفتيات متلفعات بشالات من القنب ومعاطف ممزقة ، واحذية لباد بالية ، بوجوه وأيد مزرّقة – وجالت في خاطره فكرة مفزعة : ان سيقانهن عارية تماما تحت اطراف التنورات !

حين رجع الى البيت ، كانت واقفة في غرفة المدخل ، وهي تمسح بخرقة السماور الذي يغلي من اجل حمله الى المائدة ، وعلى الفور قالت هامسة :

– يبدو انك ذهبت الى القرية . هناك الفتيات يصنفن البطاطس . . . تنزه . . تنزه ، اختر لنفسك من هي أكثر ملاحة !

ومرقت الى الدهليز وهي تحبس دموعها .

عند المساء انهال الثلج كثيفاً . كانت ترمقه بجذل طفولي غامر لدى مرورها به في الصالة ، وتهمس له متحرشة :

– الآن هل ستتنزه كثيرا ؟ سيتساقط المزيد من الثلوج ، فالكلاب تتلاعب متدحرجة في ارجاء الفناء ، وستهب عاصفة ثلجية هوجاء ولن تمد أنفك خارج البيت !

ودار في خلده : «يا الهي ، كيف سأستجمع اطراف شجاعتي لأقول لها انني على وشك السفر !»

استبدت به رغبة عارمة في بلوغ موسكو بأقرب وقت . الزمهرير ، العاصفة الثلجية ، وفي الساحة المقابلة لمصلى ايفرسكايا – ثمة عربات تجرها ازواج من الخيول تجلجل فيها الاجراس ، وفي شارع تفيرسكايا تبدو مصابيح الشارع الكهربائية العالية وسط الدوامات الثلجية . . . وفي مطعم «موسكو» الكبير تتلألأ الثريات ، وتصدح الحان الوتريات ، وها هو يلقي معطفه الفرو المغطى بالثلج في يدي البواب ، ويمسح بالمنديل شاربيه المبللين بالثلج ، ويدلف نشيطا كالعادة فوق السجاد الاحمر في الصالة الدافئة المزدحمة بالناس ، وفي اللغط وروائح الاطعمة والسجاير ، وفي جلبة الخدم وانغام الوتريات التي تطغي على كل شيء . فتارة تبدو فاترة خليعة وتارة عاصفة هوجاء ...

لم يستطع خلال العشاء كله ان يرفع بصره الى حركتها ذهابا وايابا بلا هموم ، والى وجهها المطمئن .

وفي وقت متأخر من الليل لبس حذاءي اللباد ، ومعطف فرو القندس القديم الخلق الذي كان يرتديه المرحوم كازاكوف ، ووضع القبعة على رأسه ، وخرج الى العاصفة الثلجية من الباب الخلفي – من أجل استنشاق الهواء ومشاهدة العاصفة . لكن غطت السطحة كومة من الثلج ، فتعثر به وامتلأ كمّاه بالثلج ، ومن ثم قابلته جهنّم حقيقية ، جنون ابيض

ينطلق بعنف . دار حول البيت بجهد جهيد ، غائصا طوال الوقت في الثلج ، وبلغ السطحة الامامية ، وولج راكضاً وهو يطبطب بقدميه وينفض الثلج عن معطفه ، الى داخل الدهليز الذي كان يعول بسبب العاصفة ، ومن ثم الى غرفة المدخل الدافئة ، حيث كانت الشمعة مضاءة فوق الصندوق الكبير . وخرجت فورا من وراء الحاجز حافيـــة القدمين ، في التنورة القطنية ذاتها وهي تضرب كفاً بكف :

– يا الـهي ! من اين أنتَ قادم ؟

رمى على الصندوق معطف الفرو والقبعة ، ناثرا الثلج فوقه ، ودفعها بيديه برقة جذلـــة مجنونة . فتخلّصت من احضانه بالجذل ذاتـــه ، وتناولت المكنسة ، واخذت تنظف حذاءيه الابيضين مـــن الثلج ، وتنزعهما من قدميه :

– يا الـهي ، انهما ممتلئان بالثلج ايضـــا ! سيصيبك برد شديد !

كان في الليل يسمع احيانا وهو نائم : دوي رتيب مصحوب بضغط رتيب على البيت ، ثم ينهال عاصفاً ، فينثر الثلج بصرير في درف النوافذ ، ويهزها ، – ويعوي ، ويبتعد ، ويهمهم همهمة مخدرة . . . بدا ان الليل بلا نهاية وحلو – دفء الفراش ، ودفء البيت القديم ، الوحيد في العتمـــة البيضاء للبحر الثلجي المتلاطم . . .

وفي الصباح تراءى له ان الرياح الليلية مـــا

انفكت تفتح درف النوافذ مطقطقة ، وتلطم بهـــا الجدران – ففتح عينيه – لا ، لقد لاح نور الفجر ، ويبدو من كل مكان في النوافذ المغطاة بالثلـــج بياض ناصع ، بلغ رفوف النوافـــذ ، وافترشت السقف انعكاساتـــه البيضاء . كان الدوي مـــا انفك يتواصل ، لكن بدرجة أقل كعادته نهارا . وبدت في الجهة المقابلة لرأسه على الاريكة نافذتان بإطارين مزدوجين مشبّكين بمربعات صغيرة استحال لونهما الى السواد بفعل الزمن ، اما النافذة الثالثة في جهة اليسار منه فكانت اكثر بياضا وتألقا من الأخريين . وعلى السقف لاح الانعكاس الابيض ذاك . وفي ركن الغرفة كان باب المدفأة يرتعش ويرنّ ويطقطق حين تجذبه النيران المستعرة فيها – يا للروعة ، لقد نام ، ولم يسمع شيئا ، اما تانيا ، تانتشكا ، الوفية ، الحبيبة ، فقد فتحت درف النوافذ ، ثم دخلت بهدوء بحذاءين من اللباد ، باردة كليا ، الثلج عـلى كتفيها ورأسها الملفوف بمنديـــل قطني ، ركعت واخذت توقد المدفأة . وما كاد يتذكرها ، حتى رآها تدخل ، حاملة صينية عليها الشاي ولكنها حاسرة الرأس . رنت بابتسامة خفيفة لا تكاد تلحظ ، واضعة الصينية على المنضدة بالقرب مـــن الاريكة ، الى عينيـــه الصافيتين صفاء الصباح كما لو علتهما الدهشة بعد النوم :

– ما لك تأخرت في النوم ؟

– كم الساعة الآن ؟

القت نظرة الى الساعة الموجودة على المنضدة ولم تردّ فورا – فلم تكن لتفقه فورا حتى الآن كيف يعرف الوقت في الساعة :

–العاشرة . . . التاسعة الا عشر دقائق . . .

تطلع الى الباب وسحبها من تنورتها نحوه . فتنحّت مبعدة يده :

– لا يجوز أبدا . . . فقد استيقظ الجميع . . .

– أرجوك ، للحظة واحدة !

– قد تدخل العجوز . . .

– لن يدخل أحد – للحظة واحدة !

– آه ، يا لمصيبتي معك !

انتزعت بسرعة قدميها في الجوارب الصوفية من حذاءى اللباد الواحدة بعد الأخرى واستلقت وهي تسترق النظرات الى الباب . . . آه ، يا لرائحة رأسها الفلاحية ، وانفاسها ، وبرودة خدها وكانه تفاحة ! وهمس غاضبا :

– ها انت تقبلينني بشفتين مضمومتين ! متى سأجعلك تتخلين عن هذه العادة !

– انا لست بسيدة . . . مهلا ، سأرقد في الاسفل أكثر . . . بسرعة هيا ، انا خائفة جدا .

وتقابلت نظراتهما – بالحاح ، وبلا معنى ، وبترقب .

– بتروشا . . .

– صه ، لِمَ تتحدثين في مثل هذه اللحظات !

– ومتى اتحدث معك إنْ لم يكن في مثل هذه

اللحظات ! لن اضم شفتي أكثر . . . اقسم لي ان ليس لديك امراة في موسكو . . .

– لا تضغطي على رقبتي هكذا .

– لن يحبك احد هكذا طوال حياتك . ها أنت احببتني ، اما أنا فيبدو وكانني عشقت نفسي ، وأجد سعادة في التطلع الى نفسي . . . اما ان هجرتني . . .

اندفعت من المكتب بوجه ساخن الى تحت سقف السطحة الخلفية حيث العاصفة الثلجية ، وبغتة جلست القرفصاء للحظة ، ثم انطلقت الى السطحة الامامية مواجهة الدوامة البيضاء ، غارقة في الثلج الى ما فوق ركبتيها العاريتين .

فاحت رائحة السماور في غرفة المدخل . كانت الوصيفة العجوز جالسة على الصندوق الكبير تحت النافذة العالية المغطاة بالثلج تحتسي الشاي من الصحن ، ودون ابعاده القت نظرة جانبية وقالت :

– الى اين ذهبتِ ؟ تمرّغت بالثلج .

– لقد حملتُ الشاي الى بيوتر نيكولايفتش .

– هل حملته اليه الى غرفة الخدم ؟ نحن نعلم بأمر شايك !

– ما دمتِ تعلمين ، فأهنيْ بذلك . هل استيقظت السيدة ؟

– لقد تذكرت ، انها نهضت قبلك .

– ما لك غاضبة دائما !

وتنهّدت بسعادة ومضت الى ما وراء الحاجز لجلب قدحها ، واخذت تغني بصوت لا يكاد يسمع :

حين اخرج الى الحديقة
الى الحديقة الخضراء
للنزهة في الحديقة الخضراء
للقاء حبيبي . . .

بعد الظهر ، جلس في المكتب يطالع كتابا مصغيا الى ذلك الدوي الذي يخفت تارة ويعلو مهددا تارة اخرى حول البيت الغارق أكثر فأكثر في الثلوج وسط البياض اللبني المنطلق من كافة الارجاء ، ودار في خلده : سأسافر حالما تهدأ العاصفة .

في المساء استرق لحظة ليقول لها بان تأتي اليه في ساعة متأخرة من الليل ، حين يخلد أهل البيت الى النوم العميق ، لقضاء الليل كله معه حتى الصباح . فهزّت راسها واستغرقت في التفكير ثم قالت : حسناً . إن هذا مخيف جدا ، لكن اللذة اكبر .

وراودته الاحاسيس نفسها ايضا ، واقلقه هاجس الشفقة عليها : فهي لا تعرف انها ليلتهما الاخيرة !

في الليل كان يغفو تارة ، وتارة يصحو باضطراب : هل سيقر عزمها على المجيء ؟ الظلام يغمر البيت . ودوي يغمر هذا الظلام .ودرف النوافذ تهتزّ . وفي الموقد ينطلق عويل بين الفينة

والفينة . . . وفجأة انتبه مرتعبا ، فلم يسمعها ، وما كان بالمستطاع سماعها في ذلك الحذر المتلصص الذي تسللت فيه عبر الظلام الدامس في ارجاء البيت ، – لم يسمعها بل تحسسها واقفة عند الاريكة دون ان يراها . ومد يديه ، وغاصت صامتة تحت الغطاء معه . ثم سمع كيف يدق قلبها ، وتحسس قدميها الباردتين الحافيتين ، وهمس احلى الكلمات التي كان بوسعه ايجادها والتفوه بها .

رقدا هكذا فترة طويلة وصدراهما متلاحمان وهما يتبادلان أشد القبلات ، حتى احسّا بالألم في الاسنان . وتذكرت هي انه حرّم عليها ضمّ شفتيها ، وسعت الى ارضائه فأخذت تفتح فمها مثل فرخ الزاغ .

– لا بد وانكِ لم ترقدي أبدا ؟

اجابته بهمس ينم عن البهجة :

– ولا لحظة واحدة . كنت انتظر طوال الوقت . . .

تحسّس الثقاب على المنضدة واضاء الشمعة . فتأوهت فزعة .

– بتروشا ، ماذا فعلت ؟ ماذا لو استيقظت العجوز ورأت النور . . .

– ليأخذها الشيطان – قال هذا متطلعا الى وجهها المصطبغ بالحمرة . – ليأخذها الشيطان . اريد رؤيتك . . .

وبعد ان مسّها لم يحول بصره عنها . وهمست قائلة :

– انا خائفة ، لِمَ تنظر اليّ هكذا ؟

– لأنه لا توجد في الدنيا امرأة أفضل منك . هذا الرأس والضفيرة الصغيرة حوله كما لـدى فينوس يانعة . . .

ولاحت في عينيها بهجة النشوة والسعادة :

– ومن هي فينوس هذه ؟

– هي فينوس . . . وهذا القميص . . .

– اشترِ لي نسيجا ناعما . . . يبدو انك حقا تحبني جدا !

– لا احبك البتة . ومرة اخرى تفوح منك رائحة تشبه رائحة السمانة او القنّب المجفف . . .

– وما يعجبك في ذلك ؟ أنت تقول انني اتحدث دائما في مثل هذه اللحظات . . . والآن صرت انت تتحدث . . .

وبدأت تشدّه اليها اكثر فأكثر ، وارادت قول شيء آخر ، ولكنها لم تستطع . . .

ثم اطفأ الشمعة ، واستلقى فترة طويلة صامتا ، مدخنا ومستغرقا في التفكير : رغم كل شيء يجب ان اقول لها ، شيء فظيع ، لكن ضروري ! وبدأ يقول بصوت لا يكاد يسمع :

– تانتشكا . . .

وسألت هي بغموض أيضا :

– ماذا ؟

– يجب عليّ السفر . . .

اما هي فحتى نهضت :

– متى ؟

– مع هذا . . عما قريب . . قريبا جدا ، لدي اعمال هامة . . .

وهوت على الوسادة :

– يا الهي !

ان اعمالا ما لديه . . . في مكان ما . . في موسكو ما . . . كانت تثير في اعماقها مشاعر التبجيل . ولكن مع هذا كيف ستفترق عنه من أجل هذه الاعمال ؟ ولزمت الصمت ، وعجزت عن ان تجد بسرعة مخرجا من هذا الامر الفظيع الذي لا يمكن ايجاد حل له . ولم يكن هناك من مخرج . وارادت الصراخ : «خذني معك !» بيد انها لم تجرأ ، فهل هذا ممكن ؟

– ليس بوسعي العيش هنا الى الابد . . .

اصغت ثم وافقته : نعم ، نعم . . .

– ولا أستطيع أخذك معي . . .

وفجأة رددت بيأس :

– لِمَ ؟

وفكر بسرعة : «نعم ، لِمَ ، لِـمَ ؟» ، وردّ بعجلة :

– ليس لي بيت ، يا تانيا ، وانا أتجول طوال حياتي متنقلا من مكان الى آخر . . . وفي موسكو أعيش في الفنادق ، ولن اتزوج أحدا ابدا . . .

– وما السبب ؟

– لأنني ولدت هكذا .

– ولن تتزوج أبدا ؟

– لن اتزوج . . . أبدا ! واعطيك كلمة شرف ، ان السفر بحق الله ضروري جدا ، ثمة اعمال هامة وملحة جـــدا . وسأعـــود في ايام عيـــد الميلاد حتما !

ارخت راسها على صدره واستلقت وهي تقطـر على يديه الدموع السخينة ، وهمست :

– حسنا ، سأذهب . . . عما قريب سيطلع الفجر . . .

نهضت واخذت في الظلمة ترسم شـارة الصليب عليه :

– لتحفظك ملكة السموات ، لتحفظك أم الرب !

هرعت الى غرفتها وراء الحاجز وجلست على الفراش وضغطت بيديها على صدرها ، لاحسة الدموع مـن شفتيها ، واخذت تهمس بمصاحبة دوي العاصفة الثلجية المتردد في الدهليز :

– ايها الرب الأب ، يا ملكة السموات ، يا الهي دع السماء مكفهرة عاصفة حتى ولو يومين آخرين !

بعد يومين سافر ، وكانت الدوامات الموشكة على الخمود ما انفكت تنطلق ، بيد انه لم يستطـع اطالة أمد عذابه وعذابها المكبوت . ولم يستسلـم لاقناع كازاكوفا بالانتظار ولو الى يوم غد .

واصاب البيت والضيعة كلها الخواء والموات . لم تستطع اطلاقـــا ان تتصور موسكو وهو فيها ، وحياته هناك ، واعماله فيها .

لم يأتِ في ايام عيد الميلاد . واية ايـام كانت تلك ! مضى الوقت من الصباح حتى المساء فـــي عذابات ممضّة من الانتظار بلا معنى ، وفي اي تظاهر امام نفسها كما لو لم يكن هناك اي انتظار ! وفي ايام ما بعد عيد الميلاد كلها ارتدت أبهى حلـــة لديها – ذلك الفستان والجزمتين القصيرتين اللتين ارتدتهما حين استقبلها آنذاك في الخريف ، في محطة القطار ، في تلك الامسية التي لا تُنسى .

وفي عيد الغطاس آمنت لسبب ما بقوة انه ستبدو بعد قليل من وراء الرابية الزحافة الفلاحية التـــي سيستأجرها في المحطة دون ان يبعث برسالـــة يطلب فيها ارسال الجياد للاتيان به ، وأمضت اليوم كله جالسة على الصندوق في غرفة المدخل ، متطلعة الى الفناء وفي عينيها امارات الكرب . كـــان البيت خاويا ، – فقد ذهبت كازاكوفا لزيارة الجيران ، بينما تناولت العجوز طعام الغداء في غرفة الخدم ، وجلست هناك بعد الغداء ايضا ، متسلية برواية النمائم مع الطباخة . اما هي فحتى لم تذهب لتناول طعام الغداء ، وقالت انها تعاني من ألم في بطنها . . .

اقبل المساء . وتطلعت مرة أخرى الى الفنـــاء الخاوي المكسو بقشرة الثلج المتجمّد اللامعـــة ، ونهضت ، قائلة لنفسها بحزم : انها النهاية ، لـم تعد لي حاجة الى أي احد ، ولا أرغب في انتظار اي شيء ! – ومضت بزينتها ماشية بخيلاء عبر الصالة وغرفة الاستقبال في ضوء الغسق الشتوي الاصفـــر

الآتي من النوافذ ، وغنّت بصوت عال خال من الهموم – متنفسة الصعداء لولوج حياة لا مستقبل لها :

حين اخرج الى الحديقة
الى الحديقة الخضراء
للنزهة في الحديقة الخضراء
للقاء حبيبي !

دلفت الى غرفة المكتب في لحظة ترداد الكلام عن الحبيب ، ورأت اريكته الخالية ، والمقعد الخالي عند منضدة الكتابة ، حيث كان يجلس في يوم ما ماسكا كتابا بيديه ، وهوت في المقعد ، ورأسها على المنضدة ، باكية وصارخة : «يا ملكة السموات ، ابعثي لي الموت !»

جاء لزيارتهم في شهر فبراير – حين دفنت كليا في اعماقها كل امل في رؤيته ولو مرة واحدة في حياتها .

وبدا ان كل شيء عاد الى مجراه السابق .

وقد صُعق لدى رؤيتها – فقد اصابها الهزال والشحوب كلها ، وكانت عيناها وجلتين وذاويتين حزينتين . كما ذهلت هي أيضا في أول لحظة : اذ بدا لها وكأنه أصبح انسانا آخر ، شيخا وغريبا وحتى منفرا ، وبدا كما لو ان شاربيه أطول ، وصوته اكثر غلاظة ، وضحكاته واحاديثه حين كان

ينزع معطفه في غرفة المدخل بدت عالية وغير طبيعية ، وشعرت بالارتباك لدى التطلع اليه وجهاً لوجه . . . لكنهما كلاهما حاولا اخفاء هذا كله عن احدهما الآخر ، وسرعان ما مضت الامور كما لو كانت في حالها السابقة . .

ثم أخذت تقترب مجددا اللحظات الفظيعة – لحظات سفره الجديد . وأقسم لها على الايقونة بانه سيعود في عيد الفصح لقضاء الصيف كله عندئذ . وصدقته ، لكنها فكّرت في دخيلة نفسها : «وما سيحدث صيفا ، نفس ما يحدث الآن ؟» فلم يعد هذا كافيا بالنسبة لها – ووجب اما استعادة الماضي بقضه وقضيضه ، وليس التكرار ، واما الحياة المستمرة معه ، بدون فراق ، وبدون عذابات جديدة ، وبدون الخجل من الانتظار عبثا . لكنها سعت الى طرد هذه الفكرة ، وسعت الى ان تصور لنفسها سعادة الصيف تلك كلها حين سيتمتعان بقدر كبير من الحرية في كل مكان . . . – ليلا ونهارا في الحديقة وفي الحقول وفي الجرن ، وسيكون الى جانبها فترة طويلة ، طويلة . . .

عشية سفره الجديد كانت الليلة من ليالي قبيل الربيع ، مضيئة وشديدة الرياح . واضطربت الحديقة وراء البيت ، وكان ينطلق طوال الوقت من هناك نباح كلاب تحمله الرياح ، نباح حانق عاجز ومتقطع فوق حفرة بين اشجار الشوح : كان يقبع

ثعلب هناك ، اوقعه في الفخ حارس غابة كازاكوفا وجلبه الى فناء بيت سيدته .

كان مستلقيا على الاريكة ، على ظهره ، مغمض العينين ، بينما كانت مستلقية على جنبها الى جانبه ، واضعة كفها تحت رأسها الحزين . ولزما كلاهما الصمت . وفي نهاية المطاف همست قائلة :

– بتروشا ، هل أنت نائم ؟

فتح عينيه ونظر الى العتمة الخفيفة في الغرفة التي ينيرها من جهة اليسار الضوء الذهبي القادم من النافذة الجانبية ، وقال :

– لا . ماذا ؟

فقالت بهدوء :

– انت لم تعد تحبني . عبثا ان افسدت حياتي .

– ولم عبثا ؟ لا تتفوّهي بحماقات .

– سيعاقبك الله . .الى اين سأولي وجهي الآن ؟

– ولِمَ يتعين عليك ان تولي وجهك الى مكان ما ؟

– ها أنت ستسافر الى مدينتك موسكو هذه ، وماذا سأفعل هنا لوحدي !

– الشيء ذاته الذي كنتِ تفعلينه سابقا . ثم

– انني قلت لك بصورة قاطعة : سآتي في عيد الفصح لقضاء الصيف كله .

– نعم ، لربما ستأتي . . . لكنك لم تكن

سابقا تقول لي مثل هذه الكلمات : «ولِمَ يتعين عليك ان تولي وجهك الى مكان ما ؟» كنت تحبني حقا ، وتقول انك لم ترَ من هي اعزّ مني . وحقا ، هل كنت آنذاك بمثل هذه الحال ؟

وجال في خاطره :

– نعم ، ليس بهذه الحال ، انها تغيرت كثيرا ، من كافة النواحي . . .

قالت :

– لقد ولّى زماني . وكان يحدث ان اهرع اليك – وانا خائفة جدا وفرحة : الحمد لله ، نامت العجوز . اما الآن فلا أخافها هي ايضا . . .

وهزّ كتفيه :

– أنا لا افهمك . هاتي سيجارة من على المنضدة .

ناولته السيجارة وصار يدخن :

– لا افهم ما يجري لك . أنتِ غير معافاة فحسب . . .

– لهذا السبب لم أعد حبيبة الى قلبك . وما هو مرضي ؟

– انتِ لا تفهمين . فانا اقول : انتِ معتلة النفس . لهذا فكّري ، رجاء ، ما الذي حدث ، وما الذي دعاك للاعتقاد بانني لم أعد أحبك ؟ ولِمَ تكررين الشيء ذاته : سابقا ، وسابقا . . .

لم تجب . لاح النور في النافذة ، وهمهمت الحديقة ، وتردد نباح متقطع ، حانق ، عاجز ،

يشبه النحيب . . . نزلت من الاريكة على مهـــل وضمّت كمها الى عينيها هازّة رأسهـــا ، ومضت بخفة في أجربتها الصوفية الى باب غرفة الاستقبال . وناداها بصوت خافت وصارم :

– تانيا .

التفتت ، وردّت بصوت لا يكاد يسمع :

– ماذا تريد ؟

– تعالى الى .

– ولماذا ؟

– قلت ، تعالي .

دنت منه طائعة ، واطرقت برأسها ، لكـــي لا يرى ان وجهها كله مخضب بالدموع .

– ماذا تريد ؟

– اجلسي ولا تبكِ . .قبّليني ، هيا ؟

اعتدل وجلست الى جانبه واحتضنته وانخـرطت بالنحيب الخافت . وفكر بيأس : «الهي ، مـــاذا سأفعل ! ها هي مرة اخرى هذه الدموع الطفولية الساخنة على الوجه الطفولي الساخن . . . انها حتى لا تحدس شدة حبي لها ! وماذا بوسعي عملـه ؟ هل آخذها معي ؟ الى أين ؟ والى أي حياة ؟ وماذا ستكون النتيجة ؟ أن اقيد نفسي وأقضي عليها الى الأبد ؟» أخذ يهمس بسرعة ، شاعرا ، بأن دموعه نفسه تدغدغ أنفه وشفتيه :

– تانتشكا ، بهجة قلبي ، لا تبكي ، واسمعي : سآتي في الربيع لقضاء الصيف كله ، وآنـــذاك

سنذهب أنا وأنت حقا الى «الحديقـــة الخضراء» – وقد سمعتُ أغنيتك ولن أنساها الى الأبـــد – وسنذهب بالعربة الى الغابة – أتذكرين كيف ركبنا العربة من المحطة ؟

وهمست بمرارة ، هازّة رأسها فوق صدره ، وخاطبته لأول مرة بصيغة المفرد :

– لن يسمح لي أي أحد بالذهاب معك . ولن تذهب أنت معي الى أي مكان . . .

بيد انه سمع عندئذ في صوتها الفرحة الواهنـة والرجاء .

– سأذهب ، ســـأذهب ، تانيتشكـــا ! ولا تتجاسري على مخاطبتي بعد هذا بصيغة الجمع . ولا تتجاسري على البكاء . . .

وأمسك بها من ساقيها ذاتي الجوربين الصوفيين واجلسها ، هي الخفيفة الوزن ، في أحضانه :

– هيا قولي : «أنا أحبك يا بتروشا جدا !»

وكررت قوله ببلادة متأتاة بسبب الدموع :

– أنا أحبك حباً جمّاً . . .

حدث هذا في فبرايـــر من عام السابع عشر بعد التسعمائة والف الرهيب . وكانت تلك آخر مـــرة في حياته يزور فيها القرية .

٢٢ اكتوبر ١٩٤٠

في باريس

حين كان يرتدي قبعة – سواء مضى في الشارع او وقف في عربة مترو الانفاق – ولا يُرى ، ان شعره الاحمر ذا التسريحة القصيرة يومض ببريق فضي حاد ، واعتمادا على نضارة وجهه النحيل الحليق ، وقيافته المعتدلة النحيفة ، في المعطف الطويل الواقي من المطر ، كان بالمستطاع القول ان عمره لا يتجاوز الاربعين . بيد ان عينيه الرماديتين كانتا تتسمان بكآبة جافة ، وكان يتحدث ويسلك سلوك رجل عانى ما عانى من ارزاء الحياة . كان قد استأجر منذ فترة مزرعة باقليم بروفانس ، وسمع الكثير من المزح البروفانسية اللاذعة ، وفي باريس كان يحب ان يحلي بها كلامه المقتضب دوما . وكان الكثيرون يعرفون ان زوجته هجرته في القسطنطينية . ومنذ ذلك الحين صار يعيش بقلب جريح دائما . ولم يكشف ابدا ولأي احد سر هذا الجرح لكن في بعض الاحيان يلمّح عن غير قصد ، مازحا بصورة فجة ، إنّ مسّ الحديث النساء بقوله :

Rien n'est plus difficile que de reconnaître un bon melon et une femme de bien.

وحدث مرة في امسية باريسية رطبة بأواخر الخريف ، ان دلف لتناول الغداء الى مطعم روسي صغير في احد الازقة المعتمة بالقرب من شارع باسي . وكان يوجد في المطعم ما يشبه المتجر لبيع المأكولات والمقبلات – فتوقف بلا وعي امام نافذته العريضة ، التي بدت وراءها على حافة النافذة الزجاجات الوردية المخروطية لفودكا نقيع الغبيراء ، والصفراء المكعبة الحاوية على فودكا «زوبروفكا» المنقوعة بالاعشاب ، وطبق فيه فطائر مقلية يابسة ، وطبق فيه كتليتة استحال لونها الى الرمادى ، وعلبة حلوى ، وعلبة سردين ، ثم تليها منصة رصّت عليها المُقبلات ، وخلف المنصة وقفت صاحبة المحل ذات الوجه الروسي العبوس . ونمر النور المحل ، وقد اغجذب الى هذا النور من الزقات المعتم ورصيفه البارد والزلج كأنه مزيّت . فدخل ، وحيّا صاحبة المحل ، ومضى الى الغرفة المحاذية للمحل ، التي كانت خاوية وخابية الضوء ، ولاحت فيها الموائد البيضاء المغطاة بالورق . وهناك علّق بتمهل قبعته الرمادية ومعطفه الطويل على طرف مشجب قائم ، وجلس الى احدى الموائد في أقصى ركن ، ومسح ساهما يديه ذواتي الشعر الاحمر ، وصار

* لا يوجد شيء أصعب من معرفة البطيخة الجيدة والمراة الشريفة (بالفرنسية في الأصل) .

يطالع القائمة الكبيرة للمقبلات والمأكولات التي طبع قسم منها وكتب القسم الآخر بحبر بنفسجي منتشر على ورقة ملطخة بالزيت . وبغتة اشعل الضوء في ركنه ، فرأى امرأة في نحو الثلاثين تدنو منه بأدب ولا مبالاة ، سوداء الشعر ، وبتسريحة بسيطة ، وسوداء العينين ، ترتدي صديرية بيضاء مطرزة وفستانا أسود .

قالت بصوت حلو :

– Bonsoir, monsieur!*

وبدت له فاتنة جدا مما جعلته يضطرب ويجيب بارتباك :

– Bonsoir . . . لكنك روسية ؟

– روسية ، عفوا ، لقد تطبعت بعادة التحدث مع الزبائن باللغة الفرنسية .

– وهل يرتادكم الكثير من الفرنسيين ؟

– كثير جدا ، وكلهم يطلبون حتما «زوبروفكا» وفطائر وحتى حساء «البورش» . هل اخترت شيئا ما ؟

– لا ، القائمة كبيرة لا نهاية لها . . . فانصحيني نفسك بشيء ما .

وصارت تعدد المأكولات بلهجة رتيبة .

– لدينا اليوم حساء ملفوف «فلوتسكي» وكباب قوزاقي . . . ويمكن طلب لحم عجل مقلي ، او ان رغبت فتناول طبق شواء جورجي .

* مساء الخير ، يا سيدي (بالفرنسية في الأصل) .

– حسنا . . ارجو تقديم حساء ملفوف وكباب .

رفعت المفكرة المعلقة في حزامها ودونت فيها بقطعة قلم رصاص . كانت يداها ناصعتي البياض ونبيلة الشكل ، وفستانها عتيقا ، لكن بان عليه انه من صنع دار ازياء ممتازة .

– هل ترغب بشيء من الفودكا ؟

– بكل ارتياح . الرطوبة شديدة في الخارج .

– ماذا تأمر بتقديمه من المقبلات ؟ توجد لدينا رنجة دانوب رائعة ، وكافيار أحمر استلمناه مؤخرا ، وقثاء «كوركونوف» قليل التمليح . . .

ورنا اليها مرة أخرى : فالصديرية البيضاء المطرزة تبدو جميلة جدا على الفستان الأسود ، ويبرز تحتها نهدان جميلان لامرأة شابة قوية . . . والشفتان ممتلئتان وغير مدهونتين بالأحمر ، ولكنهما ريانتان . وعلى رأسها ضفيرة سوداء ملتفة بصورة بسيطة ، لكن بشرة يديها البيضاء ناعمة ، والاظافر لامعة ووردية لحدما ، – واضح انها عملت المانيكور . . .

وقال مبتسما :

– ما آمر بتقديمه من المقبلات ؟ ان سمحت فاجلبي الرنجة فقط مع بطاطا ساخنة .

– وأي نبيذ تطلب ؟

– أحمر . عاديا – من النوع الذي يقدم لديكم دائما مع الغداء .

سجلت في مفكرتها ونقلت من المائدة المجاورة الى مائدته قارورة ماء . وهز راسه :

– لا ، شكرا ، انا لا أشرب الماء او النبيذ مع الماء أبدا .

L'eau gate le vin comme le charette le chemin et la femme — l'âme. *

– لديك رأى طيب فينا ! – أجابته بلا مبالاة ، ثم مضت لجلب الفودكا والرنجة . وتطلّع في اعقابها – الى قيافتها المعتدلة ، والى اهتزاز فستانها الأسود وهي ماشية . . . نعم ، ادب ولا مبالاة ، وجميع سكنات وحركات عاملة متواضعة ووقورة . لكن حذاءيها جيدان وغاليان . فمن أين لها ذلك ؟ لا بد وان لديها •• «ami» كهلاً وثرياً . . . ولم يشعر منذ أمد بعيد بمثل هذه الحيوية التي واتته في ذلك المساء ، بفضلها ، واثارت الفكرة الاخيرة بعض الانزعاج في قرارة نفسه . نعم ، من عام الى عام ومن يوم الى يوم ، فأنت تنتظر في الخفاء شيئا واحدا – اللقاء الغرامي السعيد ، وانت تعيش في الواقع فقط بأمل مجيء هذا اللقاء ، وكل هذا عبثا . . .

في اليوم التالي جاء مرة أخرى وجلس الى مائدته . في البداية كانت مشغولة بتلبية طلب فرنسيين اثنين ، وتكرر بصوت عال وتدون في مفكرتها :

* الماء يفسد النبيذ كما تفسد العربة الطريق والمراة الروح (بالفرنسية في الأصل) .

•• «صديق» (بالفرنسية) .

*Caviar rouge, salade russe... Deux chachlyks...

ثم انصرفت خارجة وعادت متجهة اليه وعلى محياها ابتسامة خفيفة ، وكأنه صار من معارفها :

– مساء الخير . يسرني ان اعجبك محلنا .

نهض قليلا بجذل :

– مرحبا . اعجبني كثيرا . كيف تأمرين بأن ادعوك ؟

– أولجا الكساندروفنا . وأنت ما اسمك ان سمحت بان اعرف ؟

– نيكولاي بلاتونيتش .

تصافحا ورفعت المفكرة :

– اليوم عندنا حساء فاخر بالخيار المخلل . ان طباخنا ممتاز ، كان يعمل في يخت الامير الكسندر ميخايلوفيتش .

– رائع ، حساء بالخيار المخلل . . فليكن . . . هل تعملين هنا منذ أمد بعيد ؟

– الشهر الثالث .

– وقبل هذا ؟

– قبل هذا كنت اعمل بائعة في Printemps .

– لا بد وانك خسرت عملك بسبب تقليص عدد العاملين ؟

– نعم ، ما كنت لأتركه بارادتي .

* كافيار احمر ، سلاطة روسية . . . وطبقا شواء . . . (بالفرنسية) .

واجال فكره بارتياح ، اذن المسألة ليست في الـ « ami » وسأل :

– هل انت متزوجة ؟

– نعم .

– وزوجك ماذا يفعل ؟

– يعمل في يوغسلافيا . كان يحارب الى جانب البيض في الحرب الاهلية . وانت كذلك في اغلب الظن ؟

– نعم ، شاركت في الحرب العظمى وفي الحرب الاهلية .

– هذا واضح فورا . واغلب الظن كنت جنرالا ، – قالت هذا مبتسمة .

– سابقا . اما الآن فأكتب تاريخ هاتين الحربين بطلب من شتى دور النشر الاجنبية . . . كيف تعيشين لوحدك ؟

– هكذا ، اصبحت وحيدة .

في المساء الثالث سألها :

– هل تحبين السينما ؟

فردّت واضعة على المائدة طبق حساء «البورش» :

– في بعض الأحيان تكون ممتعة .

– الآن يعرض في سينما « Etoile » فيلم ، يقال ، انه فيلم ممتاز . أتريدين الذهاب معا لمشاهدته ؟ فلديك ، طبعا ، ايام اجازة .

– ميرسي . أنا لا أعمل في ايام الاثنين .

– اذن لنذهب في يوم الاثنين . اليوم أي يوم ،

السبت ؟ اذن لنذهب بعد غد . موافقة ؟

– موافقة . وغدا ، يبدو ، انك لن تأتي ؟

– لا ، سأسافر الى خارج المدينة لزيارة معارفي . ولِمَ تسألين ؟

– لا أدري . . . هذا غريب ، ولكنني لأمر ما اعتدت عليك .

رمقها بامتنان ، واصطبغ وجهه بالحمرة :

– وأنا عليك . على العموم ، اللقاءات السعيدة قليلة في هذه الدنيا . . .

وعاجل في تغيير موضوع الحديث :

– اذن ، الى ما بعد غد . أين سنلتقي ؟ أين تعيشين ؟

– بالقرب من محطة مترو Motte-Picquet .

– أترى ، لكم هو مريح – الطريق مباشر الى Etoile . سأنتظرك هناك عند مخرج المحطة في الساعة الثامنة والنصف تماما .

– ميرسي .

وانحنى مازحا :

– C'est moi qui vous remercie. * ارقدي الاطفال في الفراش وتعالي . – قال ذلك مبتسما من أجل ان يعرف فيما اذا كان لها طفل .

– الحمد لله ، ليس لديّ هذا الخير – أجابته وحملت الاطباق مبتعدة عنه بمشية متهادية .

كان متأثراً ومتجهماً في الوقت نفسه في طريق

* انا الذى اشكرك (بالفرنسية) .

عودته الى البيت . «لقد اعتدت عليك . . .» . نعم ، ربما هذا بالذات اللقاء السعيد الذي طال انتظاره . لكنه متأخر ، متأخر .

Le bon Dieu envoie toujours des culottes à ceux qui n'ont pas de derrière. . .*

في مساء يوم الاثنين انهمر المطر ، وخيمت فوق باريس سماء جهمة تغشاها غيوم حمراء عكرة . واذ راوده الامل في ان يتناول العشاء معها في مونبارناس فلم يتناول وجبة الغداء ، ودلف الى مقهى Chaussée de la Muette ، والتهم قطعة ساندويتش بلحم الخنزير المقدد ، واحتسى قدح بيرة ، واولع سيجارة ثم استقل سيارة أجرة . أوقف السائق عند مدخل محطة مترو Etoile وخرج الى الرصيف تحت وابل المطر – وطفق السائق البدين ينتظره باطمئنان . فاحت من مترو الانفاق رائحة الحمّام ، والناس يصعدون السلالم منه في حشد مرصوص أسود فاتحين المظلات وهم ماشين . وصرخ بائع صحف بحدة عن كثب منه بصوت رفيع مثل بطبطة البط مرددا أسماء الصحف المسائية . وبغتة لاحت هي وسط الحشد الصاعد . وتوجه للقائها مبتهجا :

– أولجا الكساندروفنا . . .

كانت ترتدي حلة جميلة وعلى الموضة ورفعت نحوه بطلاقة ، ليس كما في المطعم ، عينيها الكحيلتين

* الرحمن الرحيم يعطي دائما السراويل الى من لا عجز له (بالفرنسية) .

السوداوين ، ومدت له يدها بحركة انثوية كسيدة ، وبدت مظلة معلقة فيها ، وامسكت باليد الاخرى ذيل طرف فستان سهرة طويل ، فابتهج أكثر : «فستان سهرة ، اذن لقد فكرت أيضا اننا سنذهب بعد السينما الى مكان ما» ، وطوى حافة قفازها ولثم رسغ يدها البيضاء .

– مسكين ، هل انتظرت طويلاً ؟

– لا ، لقد جئت لتوه . هيا بسرعة الى السيارة . . .

ودخل وراءها بانفعال لم يعرفه منذ أمد بعيد الى داخل العربة شبه المعتم الذي تفوح منه رائحة الجوخ الرطب . وفي المنعطف اهتزت العربة بشدة ، وحين اضاء المصباح داخلها للحظة ، أسندها بصورة عفوية من خصرها ، وتحسس رائحة المساحيق على خديها ، ورأى ركبتيها المكتنزتين تحت فستان السهرة الاسود ، ولمعان عينيها السوداوين ، وشفتيها الممتلئتين المصبوغتين بأحمر الشفاه : كانت عندئذ تجلس الى جانبه امرأة أخرى تماما .

في القاعة المظلمة تبادلا الهمس متطلعين الى الشاشة البيضاء المتألقة التي مرقت عليها بصورة مائلة طائرات عريضة الاجنحة ساقطة وسط الغيوم ومطلقة ازيزاً أصم :

– هل أنتِ وحدك ام تعيشين مع صديقة ما ؟

– وحدي . في الواقع هذا شيء فظيع . الفندق نظيف ودافئ ، لكنه من النوع الذي يأتي أحدهم

إليه لقضاء الليل او بضع ساعات مع بائعة هوى . . .
الطابق السادس ، ولا يوجد مصعد طبعا ، وفي
الطابق الرابع ينتهي البساط الأحمر على السلالم . . .
وفي الليالي ولدى هطول المطر تستبد بي كآبة
رهيبة . واذا ما فتحت النافذة لا أرى أحدا في اي
مكان ، المدينة ميتة تماما . وفي مكان ما ، لا يعلمه
سوى الله ، ثمة مصباح وحيد تحت المطر . . .
وانت أعزب ، طبعا ، وتعيش في فندق أيضا ؟

– لديّ شقة صغيرة في باسي . وأعيش لوحدي
أيضا ، من ساكني باريس القدماء . وفي فترة ما
عشت في بروفانس ، واكتريت مزرعة ، وأردت
الابتعاد عن الجميع وعن كل شيء ، وكسب رزقي
بيدي ، بيد انني لم احتمل هذا الكدح . فالحقت
بعملي خادما كمساعد لي . وظهر انه سكير عربيد ،
وعبوس ، وانسان مخيف حين يكون اسير الخمرة .
وربيت الدجاج والارانب – فاذا بها تنفق ، وحدث
مرة ان البغل اوشك ان يعضّني ، – هو حيوان
شرير وذكي جدا . . . والشيء الاساسي ، كنت
اعاني من الوحدة الكاملة . وزوجتي هجرتني منذ ان
كنا في القسطنطينية .

– أنت تمزح ؟

Qui se marie par amour a bonnes nuits et mauvais jours*

– لا ابداً . انها قصة مبتذلة .

* من يتزوج عن حب تكون لياليه طيبة وايامه تعيسة (بالفرنسية) .

بينما كانت هذه وتلك قليلة جداً لديّ . وهجرتني
في العام الثاني لزواجنا .

– أين هي الآن ؟

– لا أدري . . .

لزمت الصمت طويلا . وظهر على الشاشة مهرولاً
رجل ما يقلد شابلن منفرج القدمين وفي جزمتين
ضخمتين لدرجة غير معقولة وقبعته متدلية جانبا .
وقالت له :

– بلى ،لا بد وانك تعاني من وحدة شديدة .

– نعم . لكن ما العمل ؟ لا بد من الصبر .
Patience — médecine des pauvres.*

– انه médecine كئيب جداً .

فقال ضاحكا :

– نعم ، هو ليس بالمرح . الى حد أنني في بعض
الاحايين اتصفح «روسيا المصورة» ، الحق هناك
باب ينشر فيه ما يشبه اعلانات الزواج والغرام :
«فتاة روسية من لاتفيا تشعر بالسأم وترغب في
مراسلة روسي مرهف يقيم في باريس ، راجية
عندئذ ارسال صورة فوتوغرافية . . . سيدة وقورة
سمراء ، ليست بالمودرن لكنها مليحة ، ارملة لها
ولد في التاسعة من العمر ، تود المراسلة لغرض جاد
مع سيد لا يقارع الخمرة ، عمره لا يقل عن الاربعين
عاما ، مكفول ماديا بالعمل كسائق أو اي عمل آخر ،
يحب الجو العائلي الدافئ . الثقافة ليست شرطا

* الصبر دواء الفقراء (بالفرنسية) .

لازما . . .» أنا أفهمها تماما – ليست شرطا لازما .

– لكن ألا يوجد لك أصدقاء ومعارف ؟

– لا أصدقاء لي ، والتعارف لا يشفي الغليل .

– اذن ، من يتولى تدبير أمورك المنزلية ؟

– أموري المنزلية متواضعة ، أعد القهوة بنفسي ، وكذلك أعد الفطور بنفسي . وعند حلول المساء تأتي femme de ménage * .

فقالت ضاغطة على يده :

– مسكين !

وجلسا كذلك فترة طويلة ، يداً بيد ، يربط ما بينهما الظلام ، وقرب المقعدين ، متظاهرين بالنظر الى الشاشة ، التي كان يتساقط عليها الضوء فوق رأسيهما في حزمة زرقاء حليبية قادما من حجرة في الجدار الخلفي . وكان مقلد شابلن ، الذي تطايرت من رأسه القبعة المنبعجة من الهول ، يندفع مارقاً مروق السهم نحو عمود تلغراف راكبا سيارة عتيقة محطمة فيها مدخنة سماور يتصاعد منها الدخان . وهدرت مكبرة الصوت صادحة بموسيقى وضجة ، ومن الاسفل ، من قرار الصالة الممتلئة بدخان السجائر حيث كانا يجلسان في الشرفة ، دوّت ضحكات جذلة صارخة مصحوبة بالتصفيق . ومال نحوها :

– اسمعي ؟ هيا بنا الى مكان ما في مونبارناس ،

---

* عاملة بيت (بالفرنسية) .

مثلا ، فقد سئمت هذا كله للغاية ، والجو خانق . . .

هزت رأسها موافقة ، وأخذت ترتدي قفازيها .

استقلا مرة أخرى عربة شبه معتمة ، وحين كان يجلس ويتطلع الى الزجاج المتألق بسبب المطر ، والمتألق بين الفينة والفينة بهيئة ماسات زاهيات اللون نابعة عن اضواء فوانيس الشوارع ، والمتلوّن في الاعالي الظلماء بلون الدم او لون الزئبق المنبعث من الاعلانات ، رفع مجددا طرف قفازها وطبع قبلة طويلة على يدها . ورمقته بنظرة متألقة أيضا بصورة غريبة من عينيها ، ذواتي الاهداب الطويلة السوداء الفاحمة ، ومدت وجهها نحوه ولهانة ، حزينة ، وبشفتين ممتلئتين ، لهما مذاق أحمر الشفاه الحلو .

في مقهى « Coupole » طلبا في البداية قواقع ونبيذ آنجو ، ثم اعقباه باطباق الحجلات ونبيذ بوردو الاحمر . وبعد تناول القهوة مع شراب الشارتريز الأصهب احسّا كلاهما بالثمل . وافرطا في التدخين ، وكانت المنفضة ممتلئة بأعقاب سجايرها القانية بلون الدم . وكان يطالع ابان الحديث وجهها المشوب بالحمرة ويفكر : انها فاتنة حقاً .

– قل الحقيقة ، – بدرت عنها هذه العبارة وهي تنتزع بطرفي اصبعيها فتات التبغ ، – لا بد وانك التقيت بنساء أخريات على مدى هذه الاعوام .

– حدث هذا . لكنك تحدسين أي صنف من اللقاءات هي . . . فنادق ليلية . . . ولديك ؟

لزمت الصمت برهة :

– وقعت لي حادثة مؤلمة جدا . . . لا ، لا أريد التحدث عن هذا . فتى غاوى نساء ، في واقع الامر . . . ولكن كيف انفصلت عن زوجتك ؟

– بصورة مخزية . كان يوجد صبي ايضا ، يوناني وسيم الطلعة ، ثري للغاية ، وخلال شهرين لم يبق ثمة اثر لتلك الفتاة الطاهرة المؤثرة للعواطف ، التي كانت تكاد تعبد الجيش الأبيض ، ونحن جميعا . واخذت تتناول العشاء معه في اغلى الحانات في حي بيرا ، وتتلقى منه سلالا عملاقة من الازهار . . . «لا أفهم ، هل بوسعك ان تغار علي منه ؟ انت مشغول طوال اليوم ، وأنا اشعر بالانس معه ، هو بالنسبة لي مجرد فتى ظريف ، لا اكثر . . .» فتى ظريف ! وهي نفسها في العشرين من العمر ! لم يكن من الهين نسيانها ، تلك الفتاة السابقة من مدينة يكاترينودار . . .

حين قدم لهما الحساب تفحصته بامعان ، وأمرت بألا يدفع أكثر من عشرة بالمائة لقاء الخدمة . وبعد ذلك بدا لهما كليهما ان الفراق بعد نصف ساعة أكثر غرابة .

قال بكآبة :

– لنذهب الى بيتي . لنجلس ونتحدث المزيد . . .

فردّت قائلة : نعم ، نعم .

ونهضت متأبطة ذراعه وضاغطة اياها نحوها . نقلهما السائق الليلي ، الروسي ، الى زقاق خاوٍ ،

وتوقف عند مدخل بناية عالية ، كان بالقرب منها ، في الضوء المعدني للمصباح الغازي ، ينهمر المطر على صندوق صفيح للقمامة . ولجا المجاز واشعل النور فيه عند دخولهما ، ثم استقلا المصعد الضيق وصعدا ببطء نحو الاعلى ، متعانقين ومتبادلين القبلات بسكون . وافلح في ادخال المفتاح في قفل الباب قبل ان ينطفئ النور ، وقادها الى مدخل الشقة ، ثم الى غرفة طعام صغيرة حيث أضيء في الثريا مصباح وحيد بنور خاب . كان الاعياء قد بدا على وجهيهما . واقترح ان يحتسيا مزيداً من النبيذ .

فقالت :

– لا يا عزيزي ، لا استطيع الشرب أكثر .

وصار يتوسل اليها :

– لنشرب قدحا واحدا فقط من النبيذ الأبيض . لديّ وراء زجاج النافذة قنينة نبيذ «بويي» فاخر .

– اشرب ، حبيبي ، اما انا فسأذهب واخلع ملابسي وأغتسل . وعلينا النوم ، النوم . نحن لسنا بطفلين ، وأظن انك كنت تعرف حق المعرفة انني ما دمت وافقت على المجيء الى بيتك . . . وعموما ما الداعي لأن نفترق ؟

تعذر عليه الاجابة من الانفعال ، وقادها الى غرفة النوم دون ان ينبس ببنت شفة ، واضاء غرفة النوم وغرفة الحمام ايضا ، والتي كان بابها مفتوحا من جهة غرفة النوم . وكانت المصابيح فيها ساطعة ، وتدفق في كل مكان الدفء من المواقد ، بينما كان

المطر يلطم السقف بسرعـــة وانتظام . وعلى الفور بدأت تنضو فستانها الطويل عبر رأسها .

فخرج واحتسى قدحين من النبيـــذ المثلج المر المذاق الواحد تلو الآخر ، ولم يستطع تمالك نفسه فتوجه الى غرفة النوم مرة اخرى . بدت في مرآة كبيرة على الجدار المقابل غرفة الحمام منعكسة بنور ساطع . كانت تقف وظهرها اليه ، عارية تمامـــا ، بيضاء البشرة ، متينة البنيان ، منحنيـــة فوق المغسل ، منهمكة في غسل رقبتها ونهديها .

– لا تدخل ! ممنوع !

قالت ذلك ملقية بالروب دون ان تغطي النهدين الممتلئين ، والبطن الابيض المكتنز ، والفخذيـــن الابيضين المكتنزين ، ودنت منه واحتضنته وكأنها زوجته . احتضنها ، هو ايضا ، وكأنها زوجته ، بكل جسدها البارد ، وراح يلثم نهديها الرطبين اللذين تفوح منهما رائحـــة صابون التواليت ، وعينيهـــا وشفتيها ، اللتين ازالت عنهما احمر الشفاه . . .

بعد يوم ، تركت عملها وانتقلت الى مسكنه .

وحدث مرة في الشتاء ان اقنعها بأن تسجل باسمها خزانة في مصرف «ليون» وان تضع فيها كل ما كسبه من مال . وقال لها :

– ان الحذر نافع دائما L'amour fait danser les ânes • وأشعر كما لو انني في سن العشرين . لكن من يحدس غوائل القدر . . .

• الحب يرغم حتى الحمير على الرقص (بالفرنسية) .

في اليوم الثالث لعيد الفصح توفي في عربة المترو – فبينما كان يطالع جريدة القى رأسه بغتة على ظهر المقعد ، وأرخى جفنيه . . .

حين عادت مرتدية ثياب الحداد من المقبرة كان الجو ربيعيا طيبا . وكانت السحائب الربيعيـــة تعوم هنا وهناك في سماء باريس الهادئة ، وكل ما حواليها يدل على الحياة النضرة والابدية – وعن حياتهـــا المنتهية .

وفي البيت صارت ترتب الشقة ، وفي الدهليز رأت على المشجب معطفه الصيفي القديم ، الـــرمادي ذا البطانة الحمراء . فنزعته من المشجب وضمتـــه الى وجهها ، وجلست على الارض محتضنة اياه ، مهتزة بكل كيانها ومنتحبة متوسلة من احد ما طالبة الرحمة .

٢٦ اكتوبر ١٩٤٠

جاليا جانسكايا

جلس رسام وبحّار سابق على شرفة مقهى في باريس . كان ذلك في ابريل ، وابدى الرسام اعجابه بقوله : ما أحلى باريس في الربيع ، وما أروع الباريسيات في أولى حلل الربيع .

وقال :

– في ايام شبابي الذهبية كانت باريس في الربيع أبهى ، طبعاً . ليس فقط لانني كنت أيامذاك في عزّ الشباب ، – بل لان باريس نفسها كانت غير ما هي عليه اليوم . تصوّر : لا توجد سيارة واحدة . وهل حياة باريس آنذاك كحالها الآن !

فقال البحار :

– اما انا فأتذكر لسبب ما اوديسا في الربيع . انت بصفتك من ابناء أوديسا تعرف خيراً مني كل سحرها المميّز لها على الاخص – ذلك الخليط من أشعة الشمس التي غدت دافئة وبرودة البحر التي ما زالت شتوية ، السماء الباهرة وسحائب الربيع فوق البحر . في مثل هذه الايام تبدو حلل النساء الربيعية الزاهية في شارع ديريباسوفسكايا . . .

وهتف الرسام وهو ينفث الدخان من غليونه :

– Garçon, un demi ! •

ثم التفت اليه بحيوية :

– عفوا ، لقد قاطعتك . تصور – حين تحدثت عن باريس فكرت انا ايضا في اوديسا . انت على حق تماما ، – ان الربيع في اوديسا أمر متميّز حقاً . لكنني اتذكر دوما انني اخلط بين أيام الربيع في باريس وفي اوديسا ، انها كانت تتعاقب لديّ ، فانت تعرف ، ما اكثر ما كنت اسافر في تلك الازمان الى باريس في الربيع . . . أتذكر جاليا جانسكايا ؟ لقد رأيتها انت في مكان ما وقلت لي انك لم تلتق ابدا بفتاة أجمل منها . الا تذكر ؟ لكن الامر سواء . انني ، الآن ، حين طفقت اتحدث عن باريس ايامذاك كنت بالذات افكر فيها ، وفي ذلك الربيع في اوديسا عندما جاءت لاول مرة الى محترفي . اغلب الظن توجد لدى كل واحد ذكريات غرامية عزيزة جدا على قلبه ، او أثم عشق ثقيل الوطأة جدا على نفسه . وجاليا هذه تجسّد ، كما اعتقد ، احلى ذكرياتي ، واشد أثم قارفته ، رغم ان الله يشهد على انه وقع بلا ارادتي . والآن باتت هذه القصة موغلة في القدم ، حتى انني استطيع روايتها لك بكل صراحة . . .

كنت اعرفها وهي صبية يافعة . فقد شبّت بلا

• يا جرسون ، هات قدحا من البيرة (بالفرنسية) .

ام ، مع ابيها الذي هجرته امها منذ وقت طويل . كان رجلا غنيا جدا ، مارس الرسم فلم يحالفه التوفيق ، واصبح هاويا – كما يقال – بيد ان ولعه بالرسم بلغ به حد عدم ايلاء اهتمام الى اى شيء في العالم سوى التصوير الزيتي . ومارس طوال حياته شغلة واحدة هي الوقوف امام مسند اللوحات . وكدّس في بيته – كانت لديه عزبة فى اوترادا – اللوحات قديمها وحديثها ، مشتريا كل ما ينال اعجابه في كل مكان واينما تسنى له ذلك . كان رجلا وسيما جدا ، ربعة ، طويل القامة ، وله لحية برونزية رائعة ، وتجري في عروقه الدماء البولونية والاوكرانية ، ويتسم بعادات ونزوات سيد كبير كريم المحتد ، كما انه أبيّ وشديد الأدب ، منطو على نفسه جدا ، بيد انه يتظاهر بكونه رجلا متفتح النفس الى آخر حد بالاخص معنا : في وقت ما كنا نحن جميعا الرسامين الشباب في اوديسا نمضي اليه زرافات في كل يوم أحد على مدى عامين متتاليين . كان يستقبلنا دائما بكل ترحاب ، ويعاملنا رغم كل الفرق في السن معاملة الندّ للندّ ، ويتحدث عن فن التصوير بلا توقف ، ويولم لنا اطيب الولائم . فكانت جاليا ايامذاك في الثالثة عشرة او الرابعة عشرة من العمر ، وكنا نعجب بها ، طبعا ، كصبية فحسب : كانت آية في الظرافة وخفة الحركة والرشاقة ، تتدلى على طرفي خديها جدائل من الشعر الاصهب ، كما لدى ملاك ،

غير انها كانت متغنجة للغاية الى درجة ان اباها قال لنا مرة ، حين دلفت الى محترفه لأمر ما وهمست بشيء ما في أذنه . ثم انصرفت على التو خارجة :

– اوى ، اوى . . . اية صبية تشبّ في بيتي ، ايها الاصدقاء ! انا اخشى عليها !

ومن ثم ، بغلاظة الشباب ، قررنا جملة واحدة ، كما لو اتفقنا على ذلك ، عدم ارتياد مجلسه ، فلسبب ما سئمنا زيارة أوترادا – ربما كان السبب احاديثه التي لا تنقطع عن الفن ، وعن كيف تسنى له ان يكتشف في نهاية المطاف سرا رائعا آخر في اسلوب الرسم . كنت قد امضيت في تلك الفترة بالذات موسمي الربيع في باريس – وتصورت نفسي كموباسان آخر ، من ناحية العلاقات الغرامية ، فلدى عودتي الى اوديسا طفقت أتزيّا مثل غندور متأنق بصورة غاية في الابتذال : كنت اعتمر قبعة سلندر وارتدى معطفا بلون حمصي تبلغ اطرافه الركبتين ، وقفازين بلون القشدة ، وحذاءين مزررين صنع بوزاهما من جلد صقيل ، واحمل عصا انيقة للغاية ، اضف الى ذلك شاربين مبرومين ، على غرار موباسان أيضا ، وكانت معاملتي للنساء تتسم بالنذالة تجسيدا لروح عدم المسئولية . حدث مرة ان كنت اتمشى في احد ايام ابريل في شارع ديريباسوفسكايا ، ثم عبرت شارع بريابراجينسكايا ، وفجأة قابلت جاليا في ركن الشارع بالقرب من مقهى ليبمان . أتذكر البناية

ذات الطوابق الخمسة الكائنة في الركن حيث كان يوجد هذا المقهى – في ملتقى شارع بريابراجينسكايا وساحة الكاتدرائية ، والشهيرة بكون افاريزها تغدو دائما في ايام الربيع المشمسة ملضومة بالزرازير المغرّدة ؟ كان هذا جميلا بديعا ومرحا للغاية . فتصور : الربيع ، في كل مكان حشد غفير من الناس ذوي الحلل البهية والوجوه البشوشة لا يبالون بشيء ، وهذه الزرازير التي تغرد بلا توقف ، فتغريدها مثل وابل مطر ينهال مع اشعة الشمس ، – وجاليا . فلم تعد صبية ، ولا ملاكا ، بل فتاة مليحة جدا وهيفاء ، ترتدي ملابس رمادية فاتحة ربيعية من قمة الرأس الى اخمص القدمين . يغطى محياها حتى النصف خمار رمادى خفيف ينسدل من تحت القبعة الرمادية ، وترى عبره عيناها الشديدتا الزرقة . وطبعا ، امارات الدهشة والتساؤل والعتاب : مالكم نسيتم ابي جميعا ، لكمْ طال غيابكم عن بيتنا ! آه نعم ، طالت الغيبة الى حد انك لحقتِ بأن تشبّي . وعلى الفور اشتريت لها باقة بنفسج من صبية رثة الثياب ، فارتسمت في عينيها ابتسامة امتنان سريعة ، وعلى الفور دست الباقة في وجهها كما تفعل هذا جميع النساء.

– اتريدين ان نجلس ، اتريدين قدح شوكولاته ؟

– بكل سرور . – فرفعت الخمار ، وطفقت تحتسي الشوكولاته ، رامقة ما حولها بجذل وبنشوة ، ومواصلة السؤال عن باريس ، بينما امعنتُ النظر

فيها متفحصا اياها . – بابا يعمل منذ الصباح حتى المساء ، وانت هل تعمل كثيرا ، ام ما برحت مشغولا بالباريسيات ؟ – لا ، لم اعد مشغولا بهن ، انا اعمل وانجزت عدة لوحات جيدة . اتريدين المجيء الى محترفي ؟ هذا مسموح لك ، فانت ابنة رسام ، وانا اقطن على مسافة خطوتين من هنا . – غمرها السرور الشديد : – طبعا ، ممكن ! علاوة على انني لم ازر اي محترف عدا محترف ابي ! – انزلت الخمار ، وتناولت المظلة ، فتابطت يدها ، وصارت تمشي بخطوات متناسقة مع خطواتي وتضحك . قلت لها : جاليا ، ان بوسعى ان ادعوك باسم جاليا ؟ – فأجابت بسرعة وبجد : انت يمكنك ذلك . – جاليا ، ماذا جرى لك ؟ – ماذا ؟ – لقد كنت مليحة دوما ، اما الآن فأنت مليحة لحد الاعجاب ! – وصارت خطواتها تتناسق مع خطواتي مرة اخرى وتقول بين الجد والهزل : – هذا غيض من فيض ، وسترى مني العجب العجاب !

– هل تذكر السلالم الضيقة المعتمة لمحترفي من ناحية الفناء ؟ – لمّا اقتربنا منها آنذاك وجفت صامتة بغتة ، ومضت تمشي وتنورتها الداخلية الحريرية تبعث الحفيف ، وما انفكت تتلفت وتتطلع الى ما حواليها . دلفت الى المحترف حتى بشيء من الاجلال والنشوة ، وطفقت تقول هامسة : ما أجمل المكان ، واى جو سحري يسوده ، والاريكة ضخمة جدا ! ما اكثر اللوحات التي رسمتها ، وكلها تصور

باريس . . اخذت تتنقل مـــن لوحة الى أخرى باعجاب صامت ، مرغمة نفسها على الا تبدي العجلة الفائقة وعلى اظهار الاهتمام . ثم شبعت من التحديق في اللوحات كلها ، اطلقت تنهدة وقالت : نعم ، ما اكثر اللوحات الرائعة التي ابدعتها ! — هل تريدين قدح نبيذ بورتو وبسكويت ؟ — لا ادري . . . — تناولت مظلتها والقيتهـــا على الاريكة ، وامسكت بيدها المتدثرة بالقفاز الابيض المصنوع من جلد الجدي : هل يمكن ان اقبل يدك ؟ — لكنني ارتدي القفاز . . . — وفككتُ زرّ القفاز ، ولثمتُ طرف راحة يدها الصغيرة . انزلتْ الخمار ، وتطلعتْ عبره بلا مبالاة بعينيها الزرقاوين ، وقالت بصوت خافت : ينبغي عليّ الانصراف . — فقلت : لا ، علينا اوّلا ان نجلس قليلا ، انني لم امعـــن بعد فيك النظر جيدا . وجلست واجلستهـــا في احضاني ، — اتعرف هذا الثقل الانثوي الرائع ، حتـــى للنساء الخفيفات الوزن ! سالتني بشيء من الغموض : هل اعجبك ؟ ورنوت اليها من قمة الرأس حتى اخمص القدمين ، رنوت الى ازهار البنفسج التـــي ثبتتها على جاكتتها الجديدة ، وحتى ضحكت من التأثر وقلت : هـــل تعجبك ازهار البنفسج هذه ؟ — انا لا افهم . — ما الذي يجب فهمه ؟ انت كلك مثل هذا البنفسج . — واطرقت بعينيها ضاحكة : كانـــت مقارنة الفتيات بالازهار عندنا في المدرسة الثانوية توصف بأنهـــا ابتذال . — ليكن الامر كذلك ، والا كيف يمكـــن

الوصف ؟ — لا ادري . . . وباتت تؤرجح ساقيهـا الانيقتين المتدليتين بحركات خفيفـــة ، وشفتاها الطفوليتان منفرجتـــان ورطبتان . . . ورفعتُ الخمار ، فامالت راسها للخلف ، وقبلتُها ، بينمـا امالتْ راسها اكثر قليـــلا . واخذت أمد يدي ممسدا جوربها الحريري المنزلق تحـــت اصابعي المائل للخضرة الى الاعلى حتى بلغت المشبك فيه ، اى المشدّ المطاطي ، ففككته ، ولثمت الجسد الدافئ الوردي عند بداية الفخذ ، ثـــم لثمتُ مرة أخرى الثغر المنفـــرج — وطفقت هي تعضّ شفتـــي قليلا . . .

هزّ البحار رأسه بشيء من السخرية :

— Vieux satyre!*

فقال الرسام :

— صه . يؤلمني كثيرا تذكر هذا كله .

— حسنا . واصل الحديث .

— بعد هذا لم ارها طوال عام . وحدث مرة ، في الربيع ايضا ، ان ذهبت الى أوترادا . استقبلني جانسكي بفرحة غامرة ، حتى انني اكتويت بالعار لما ابديناه من لؤم حين توقفنا عن زيارتـه . كان قد شاخ جدا ، ووخط الشيب شعر لحيته ، بيد ان احاديثه عن الرسم كانت تتسم بالحيويـة ذاتها . وراح يريني باعتزاز وافتخـــار اعماله الجديدة —

* يا لك من داعر عجوز (بالفرنسية) .

طيور تمّ ذهبية ضخمة تحلق فوق كثبان زرقاء ـ المسكين ، يجهد نفسه فى اللحاق بالزمن . اما انا فاخذت اكذب بلا خجل وبلا تانيب ضمير : رائع ، رائع ، لقد خطوتَ خطوة كبيرة الى الامام ! كان يغالب بهجته ، لكنه يتألق سعادة ، مثل صبي . ـ انا سعيد جدا ، سعيد جدا . والآن هيا بنا نتناول طعام الفطور ! ـ اين ابنتك ؟ لقد ذهبتْ الى المدينة . انك لن تعرفها ابداً ! لم تعد صبية بل انها فتاة . والشيء الاهم انها تغيرت تماما : فقد شبّتْ وغدت ممشوقة القدّ مثل شجرة الحور هذه ! ـ جال في خاطري ان الحظ لم يحالفني ، فانني مضيت لزيارة العجوز فقط لأن نفسي طافحة بالرغبة في رؤيتها ، وها هي تذهب ، كما لو كان ذلك عن قصد ، الى المدينة . تناولت طعام الفطور ، ولثمت اللحية الناعمة المعطرة ، اعطيت وعداً بالمجيء حتما يوم الاحد القادم ، وخرجتْ فاذا بي اقابلها وجهاً لوجه . وتوقفتْ بابتهاج : ـ هذا انتَ ؟ اي ريح القت بك الينا ؟ هل زرت بابا ؟ آه ، لكم انا سعيدة ! ـ بل انا سعيد اكثر ، بابا قال لي ان من العسير الآن التعرف عليك ، اذ انت لست بشجيرة حور بل شجرة حور ممشوقة ، ـ وهذا الواقع . ـ انت فعلا كذلك . ما انت بفتاة بل امرأة شابة . كانت تبتسم وتدير المظلة المفتوحة فوق كتفها . والمظلة بيضاء مصنوعة من الدنتلا ، الفستان والقبعة الكبيرة كانا ابيضين ومن الدنتلا

ايضا ، فلاح شعرها من طرف القبعة مشوبا بصبغة حمراء خفيفة ، وغابت عن عينيها السذاجة السابقة ، كما استطال محياها . . . ـ نعم ، انني حتى اطول قامة قليلا منك . ـ بينما كنتُ اهزّ راسي فحسب ـ حقا ، حقا . . . ثم قلت : لنتنزه عند البحر ، ـ لنتنزه . ـ فمضينا عبر الزقاق بين الحدائق . ارى انها كانت تحس طوال الوقت بأنني حين اقول ما يعنّ لي من كلام ، ما كنت ابعد ناظريّ عنها . كانت تمشي وكتفاها تتأرجحان برشاقة ، واغلقت المظلة ، وامسكت باليد اليسرى التنورة الدنتلا . بلغنا الجرف العالي ، فهبّ نسيم عليل . وقد تلفعت الحدائق يومذاك بالخضرة ونعمت بالدفء تحت أشعة الشمس ، اما البحر وكأنه في مناطق الشمال ، فقريب الافق وبارد مثلج ، بامواج عالية مجعدة خضراء ، ويغمره الزبد . والافق البعيد غارق في عتمة الضباب ، وصفوة القول ، بونت ايفكسين * . لزمنا الصمت ، وما برحنا نقف وكأننا ننتظر شيئا ما . يبدو انه كانت تراودها افكاري ذاتها ، ـ اى كيف جلستْ في احضاني قبل عام مضى . فاحتضنتها من خصرها ، وشددتها بقوة اليّ حتى انها تجعدت مائلة الى الخلف ، وعمدتْ الى اصطياد ثغرها ، بينما حاولتْ التملص مني ، وهزّتْ راسها ، مبتعدة ، وبغتة استسلمتْ ومنحتني شفتيها . جرى كل هذا

* التسمية الاغريقية القديمة للبحر الاسود . **المعرب .**

بسكون – لم يبدر صوت منى او منها . وعلى حين غرة تخلصتْ منـــي ، وعدلتْ من وضع قبعتها وقالت ببساطة في غاية القناعة وبحزم :

– آه ، يا لك من نذل . يا لك من نذل .

واستدارت وطفقت تغذّ الخطى في الزقاق بسرعة. دون ان تلتفت . سأل البحار :

– هل حدث بينكما آنذاك في المحترف شيء ما ام لا ؟

– لم نقارف الاثم حتى النهايـة . تبادلنا احرّ القبلات ، وغير ذلك . لكـــن الشفقة تملكتني آنذاك . فقد اصطبغتْ كلهـــا بالحمرة كالنار ، تشعثتْ هيأتها كلها ، ورأيتُ انها لم تعـد قادرة على الامساك بزمـــام ارادتها كالطفلة تماما – اذ كانت تخاف كما تود بقوة جامحة وقوع ذلك الشيء الفظيع . فتظاهرتُ بالكدر : لا حاجـة ، لا حاجة ، ان كنت لا تريدين ، فلا حاجة . . . واخذت الشم يديها برقة ، وهدأت . . .

– لكن كيف حدث ان لم ترها بعد ذلـك طوال عام كامل ؟

– من يدري كيف . كنت اخشى الا اشفق عليها في المرة التالية .

– كنتَ موباسان رديئاً اذن .

– ربما . لكن مهلا ، دعني اقصّ عليك ما حدث حتى النهاية . لم ارها بعد ذلـــك فترة نصف عام آخر . ولّى الصيف ، وبدأ الجميع يعودون مـــن

البيوت الريفية الصيفية ، رغم ان الجو كان يدعـو الى البقاء في خارج المدينة . اذ ان منطقة بيسارابيا تغدو في الخريف ساحرة للغاية ، مـــن حيث هدوء الايام الرتيبة الدافئـــة ، والهواء الرائق ، وجمال زرقة البحر المنبسط ، والصفرة الغامقـــة لحقول الذرة الناضجة . عدت انا ايضا من البيت الريفى ، وحدث مرة ان كنت اغذ الخطى بمحاذاة مقهـــى ليبمان – وتصور ، فاذا بي اراها تقابلني وجهـــاً لوجه مرة أخرى . دنتْ منى كما لو لم يحدثْ شيء ، وطفقت تقهقه مـــلء فمها المنفرج بالتواء فاتن : «يا له من مكان رسمته الاقدار ، مرة أخرى عند ليبمان» .

– مالكِ مرحة بهذا القـــدر ؟ انا سعيد جدا لرؤيتك ، لكن ما بكِ ؟

– لا ادري ، بعد المجيء مـــن البحر ، اشعر بالسعادة الغامرة للمشي في انحاء المدينة . انني اصبحت سمراء واطول قامة ، أليس كذلك ؟

تطلعتُ اليهـــا وكانتْ على حـــق ، والشيء الاساسي أي جذل وانطلاق في الحديث وفي الضحك واسلوب التعامل كله وكأنها تزوجت . وقالت فجأة :

– هل ما يـــزال يوجد لديك نبيذ بورتـــو وبسكويت ؟

– نعم ، يوجد .

– انا أريد رؤية محترفك مرة اخرى . أممكن ؟

– طبعا ، ممكن جدا ! بلا ريب !
– اذن هيا بنا . بسرعة ، بسرعة !
وعلى السلالم احتضنتها . وتملصتْ مني منثنية مرة أخرى ، ومرة اخرى ابعدتْ رأسها عني هازّة اياه يمينا وشمالا ، لكن بلا مقاومة شديدة . اوصلتها الى المحترف وانا اطبع القبلات على محياها ورأسها قد تدلى الى الخلف . في المحترف راحتْ تتحدث بهمسٍ غامض :
– لكن هذا جنون . . . لقد فقدتُ عقلي . . .
بينما نزعتْ نفسها قبعة القش ، القتها فوق المقعد . وكان شعرها المائل الى الحمرة ، يتجمع فوق قمة رأسها ، مثبّتا بمشط من صدفة السلحفاة ، فتتدلى على جبينها كشة مجدولة ، وتغطي وجهها سمرة خلفتها فيه اشعة الشمس بطبقة ملساء والسعادة تتلالا في عينيها ببريق جذل لا معنى له . . . رحت انضو عنها ملابسها كيفما اتفق ، فعاجلتْ بمساعدتي في ذلك . وفي لحظة خاطفة نزعت عنها البلوزة الحريرية البيضاء ، او تعلمْ لقد غامتْ الدنيا في عيني ، يا صاحبى ، لدى رؤية جسدها ذى المسحة الوردية ، وسمرة لفح الشمس على كتفيها ، والبياض الناصع للثديين المرفوعين بالكورسيه ، ذوي الحلمتين الحمراوين النافرتين . ثم غامت ايضا لدى رؤية كيف ابرزت بسرعة من تنورتيها الساقطتين ، ساقيها الرشيقتين الواحدة تلو الاخرى ، في حذاءين مذهبين ، وبأجربة

مخرّمة لها لون القشطة ، وبالسراويل الداخلية العريضة الفاخرة ذات الشقين الجانبيين التي كانت النساء يرتدينها في ذلك الزمن . حين القيتها بعنف وحشي على غطاء الاريكة ، اسودت عيناها واتسعت حدقتاها بقدر اكبر ، انفرجت شفتاها في نشوة محمومة ، كانني أرى هذا كله الآن . لقد كانت مشبوبة العواطف بصورة غير عادية . . . لكن دعنا من هذا . اليك ما حدث بعد مرور اسبوعين ، كانت خلالهما تزورني كل يوم تقريبا . جاءتني مرة بغتة صباحاً داخلة محترفي راكضة ، وقالت من العتبة مباشرة :
– يقال انك ستسافر الى ايطاليا بعد ايام ؟
– نعم ، وماذا في ذلك ؟
– اذن ، لِمَ لَمْ تقل لي كلمة عن ذلك ؟ هل اردت السفر سراً ؟
– ماذا تقولين . كنت عازما اليوم بالذات على المجيء اليكما لابلاغكما بالامر .
– بحضور أبي ، ولِمَ لا تقول لي على انفراد ؟ كلا ، لن تسافر الى اي مكان !
وانفجرتْ بصورة حمقاء قائلا :
– بل ، سأسافر .
– كلا ، لن تسافر .
– وانا اقول لك بانني سأسافر .
– هل هي كلمتك الاخيرة ؟
– كلمتي الاخيرة . لكن لتفقهي بأنني سأعود

بعد نحو شهر ، على اكثر تقدير بعد شهر ونصف . وعموما اسمعي يا جاليا . . .

– انا لست جاليا بالنسبة اليك . انا فهمتك الآن – فهمت ، كل شيء ، كل شيء ! ولئن اخذت تقسم لي الآن انك لن تسافر ابداً الى اي مكان ، فالأمر لديّ سيان . المسألة لم تعد تكمن في هذا !

فتحتْ الباب على مصراعيه ، صفقته بعنف ، وراحت تطقطق بكعبي حذاءيها فوق السلالم . فأردت ان اندفع للحاق بها ، لكنني امسكت نفسي . لا ، دعها تثوب الى رشدها ، وسأتوجه مساء الى أوترادا ، سأقول انني لا اريد ان اسبب لها الكدر ، لن اسافر الى ايطاليا ، وسنتصالح . لكن في نحو الساعة الخامسة مساء دلف اليّ الرسام سيناني بعينين متوحشتين مرتعبتين وقال :

– او تعرف – لقد تسممتْ ابنة جانسكي ! وماتت ! بسم نادر ، الشيطان وحده يعرف ما هو ، شديد المفعول ، كانت قد سرقته من ابيها – أتذكر كيف ارانا هذا الاحمق العجوز دولابا مليئا بالسموم ، متصوراً نفسه ليوناردو دافنشي ؟ أي بشر مجانين هؤلاء البولونيين والبولونيات ، قبحهم الله ! ماذا جرى لها فجأة ، هذا امر لا يدركه العقل.

وقال الرسام بخفوت بعد فترة صمت وهو يحشي غليونه :

– اردت ان اطلق النار على نفسي ، وكدت أجنّ . . .

٢٨ اكتوبر ١٩٤٠

هنريخ

في امسية باردة ساحرة حين كانت الحدائق مرصعة بالصقيع البنفسجي انطلق الحوذي كاساتكين بزحافته ، الضيقة والعالية والسريعة ، التي كان ينقل فيها جليبوف منحدرا في شارع تفيرسكايا متجها الى فندق لوسكوتنايا ، وعرجا على محل يليسييف لشراء الفواكه والنبيذ . كان الجو في موسكو ما زال مضيئا ، وبدت من ناحية الغرب السماء الصافية والشفافة بلون يميل الى الاخضرار ، وتراءت في الاعلى عقود ابراج الكنائس الرفيعة ، لكن في الاسفل ، انداحت العتمة لتسود في الضباب الصقيعي المشوب بالزرقة ، وتألقت بسكون وحنان مصابيح الشوارع التي اشعلت لحظتئذ .

عند مدخل الفندق ازال جليبوف دثار الزحافة المصنوع من جلد الذئب وأمر كاساتكين المتلفع بهباب الثلج بالعودة لأخذه بعد ساعة .

– ستنقلني الى محطة بريست .

فردّ كاساتكين :

– سمعا وطاعة . اذن ستسافر الى الخارج .

– الى الخارج .

ادار كاساتكين حصانه الخاب العالي العجوز ، فانبعث صرير من عوارض زحافته ، وهز قبعته دليل عدم استحسانه وعدم موافقته :

– المرء حريص على تحقيق رغباته مهما كانت النتائج .

دهليز كبير ومهمل نوعا ما ومصعد واسع والصبي فاسيا ، ذو العينين الزاهيتين والنمش الاحمر على وجهه ، كان يقف متأدبا في زيّه ، بينما كان المصعد يمضي صاعدا ببطء الى الاعلى ، وبغتة شعر جليبوف بالاسف لمفارقة هذا الجو كله ، المعروف والمألوف لديه منذ زمن بعيد . «حقا ، لِمَ أسافر ؟» رنا الى صورته في المرآة : شاب ، نشيط ، كريم المحتد ، العينان متألقتان ، الصقيع على شاربيه الجميلين ، انيق الهندام فاخر الملبس . . . الجو في نيس الآن رائق ، و«هنريخ» رفيق ممتاز . . . والشيء الاهم يبدو دوما ان سعادة ما كبيرة توجد في مكان ما هناك ، ويتم لقاء ما . . . وقد تتوقف في موضع ما في طريق السفر ، – من عاش هناك قبلك ، وماذا علق ووضع في هذا الدولاب ، ومن صاحبة هذه المشابك النسائية المنسية في درج المنضدة بالقرب من السرير ؟ ستكون هناك مرة اخرى رائحة الغاز والقهوة والبيرة في محطة القطار بفيينا ، والملصقات على قناني اصناف النبيذ النمساوية والايطالية على الموائد في عربة المطعم التي تغمرها اشعة الشمس ، وسط

ثلوج زيميرينج ، ووجوه وملابس الرجال والنساء الاوربيات ، الذين ستغص بهم هذه العربة في موعد الافطار . . . ومن ثم الليل ، وبعدها ايطاليا . . . في الصباح ، في الطريق الممتدة بمحاذاة البحر الى نيس ، يمر القطار تارة عبر الانفاق وسط العتمة التي يسودها الهدير والدخان والمصابيح المضيئة بلون خافت في سقف المقصورة ، وتارة يتوقف ، ويجلجل شيء ما بعذوبة وباستمرار في المحطات الصغيرة المترعة بالورود المتفتحة ، بالقرب من خليج صغير ، يتنعم متلذذا بأشعة الشمس القائظة ، مثل خليط من الاحجار الكريمة . . . حث الخطى مسرعا فوق السجاجيد في الاروقة الدافئة بفندق لوسكوتنايا .

كان الجو في الغرفة دافئا ومريحا ايضا . وما زال يتراءى في النوافذ نور الغسق ، والسماء المنبعجة الشفافة . وقد رُتّب كل شيء فيها ، والحقائب جاهزة . ومرة اخرى استبدّ به شيء من الكآبة والحزن – اذيؤسفه مفارقة الغرفة المعهودة وكل حياة موسكو في الشتاء ، وناديا و«لي» . . .

وتوقع ان تدلف ناديا في اية لحظة لتوديعه . فعاجل بدسّ النبيذ والفواكه في الحقيبة ، والقى المعطف والقبعة على الاريكة وراء الطاولة المستديرة وفور ذلك سمع دقات سريعة على الباب . وما كاد يلحق في فتحه ، حتى دخلت واحتضنته ، وكلها باردة وينبعث منها اريج خفيف رقيق ، كانت تلبس

معطفا من فرو السنجاب ، وتعتمر قبعة فرو سنجاب ، وبدت بكل نضارة اعوامها الستة عشر والزمهرير ووجهها المتورد وعينيها الخضراوين البراقتين .

– اذا ، أنت مسافر ؟

– مسافر ، يا ناديوشا . . .

وتنهدت وانهارت على المقعد وراحت تفك ازرار معطف الفرو .

– اتعلم ، انني اصبت في الليلة الماضية ، والحمد لله ، بوعكة نسائية . . . آه ، لكم وددت ان اودعك الى المحطة ! لِمَ لا تسمح لي بذلك ؟

– ناديوشا . انت نفسك تعرفين ، بأن هذا مستحيل ، فسيودعني اناس لا تعرفينهم أبدا ، وستحسّين بأنك غريبة ووحيدة . . .

– أعتقد انني كنت سأضحي بحياتي من اجل السفر معك !

– وأنا؟ لكن انت تعرفين بأن هذا مستحيل . . .

وجلس على المقعد مزاحما اياها ، وطفق يلثم جيدها الدافئ ، واحس بدموعها على خدّه .

– ناديوشا ، ما هذا ؟

رفعت محياها وابتسمت جاهدة :

– لا ، لا ، لن أفعل هذا . . . لا أريد مضايقتك كما يفعل ذلك النساء ، انت شاعر ، وأنت بحاجة الى الحرية .

– أنت فتاة شاطرة – قال ذلك متأثرا بجديتها

وبمنظر وجهها الطفولي من الجانب – النقاوة ونعومة خديها وحمرتهما القرمزية الملتهبة والفتحة المثلثة لشفتيها المنفرجتين ، والاهداب المرفوعة المخضلة بالدموع والزاخرة بالبراءة . – أنت يا عزيزتي لست كالنساء الأخريات ، أنت نفسك شاعرة .

فدقّت الارض بقدمها :

– لا تجرأ على التحدث اليّ عن النساء الاخريات !

وهمست في اذنه بعينين محتضرتين ، ملاطفة اياه بالفرو وبأنفاسها :

– لحظة واحدة . . لا زال بالمستطاع اليوم . . .

كان مدخل محطة بريست مضاء في العتمة الزرقاء لتلك الليلة الباردة . ولدى ولوجه الى المحطة المترعة باللغط وراء الحمال المسرع ، رأى على التو «لي» : ممشوقة القد ، فارعة الطول ، ترتدي معطف فرو استراخان أسود لامع وتعتمر قبعة بيريه كبيرة من القطيفة السوداء ، تدلت من تحتها جدائل سوداء طويلة على طرفي خديها ، وتضع يديها في موفة كبيرة من فرو استراخان ، تطلعت نحوه بغضب بعينيها السوداوين المخيفتين لما تتسمان به من سحر وفتنة .

– رغم كل شيء انت مسافر ، يا نذل – قالت ذلك بلا مبالاة واضعة يدها تحت ابطه ، وحثت

شيء ، وكان اكثر ما اعجبني كيف حاولت شـــق الخطى معه ، بجزمتيها الرماديتيـــن العاليتين ، في اعقاب الحمال . – مهلا ، ستندم ، لن تجد أخرى مثلي ، وستبقى مع شاعرتك الحمقاء .

– ان هذه الحمقاء ما تزال طفلة تماما يا «لي» ، كيف لا تخجلين من التفكير بامور الله يعلم ما هي !

– اسكت . لست انا بحمقاء . وان وقع حقـا ذلك الذي ، الله يعلم ما هو ، فسأرش عليـــك حامض الكبريتيك .

انطلق ، بفحيح ، بخار رمادي ساخن تنبعث منه رائحة الكاوتشوك من تحـــت القاطرة المستعدة للتحرك ، والتي اضاءتها من الاعلى كرات كهربائيـة مغبّشة . وبرزت عربة الرحلات الخارجية المتميزة بالتكسية الخشبية المائلة للصفرة . تراءى فعـلا عالم ما وراء الحدود في داخل العربة ، في الدهليـز الضيق المفروش بسجاد احمر ، وفي اللمعان الزاهي لجدرانها ، المكسية بجلـد مزخرف ، وفي زجـاج الابواب السميك . فتح الكمساري البولوني ، الذي يرتدي جاكتة رسمية بنية اللون ، بـاب مقصورة صغيرة ، ساخنة جدا فيها فراش جاهز ، ومرتـب مشدود بقوة ، وهي مضاءة بنور خافت منبعث من مصباح المائدة الصغير ذي الغطاء الحريري الاحمـر اللون .

قالت «لي» :

– يا لك من سعيد ! يوجد لديك هنا حتى غرفة

مراحيض خاصة . ومن سيكون جارك ؟ لربما رفيقة سفر لئيمة ما ؟

وحاولت فتح باب المقصورة المجاورة :

– لا ، انها مغلقة . اذن ، لقد حالفك الحظ ! اسرع وقبلني ، سيرنّ الجرس الثالث ...

واخرجت مـــن الموفة يـــدا شاحبة تميل الى الزرقة ، أنيقة في نحافتها ، ذات اظافر طويلـــة حادة ، وتلوّت محتضنة اياه بعنف ، وبتألق مفرط في عينيها ، وطفقت تقبله وتعضه تارة في شفتيـــه وتارة في خديه وهي تهمس :

– أنا أعبدك ، أعبدك ، يا نذل !

كانت شرارات برتقالية كبيرة تمرق الى الخلـف وراء النافذة السوداء مثل شبـــح ساحرة من نار ، وتومض كثبان ثلجية بيضـــاء ينيرها ضوء القطار والاسوار الكثيفة السوداء لغابة الصنوبر ، الغامضة والعبوسة في جمودهـــا وغموض حياتها الليليـــة الشتوية . اغلق باب الموقد الحامي تحت الطاولة ، وانزل الستارة السميكة عـــلى الزجاج البارد وطرق الباب القريـــب من المغسل ، الـــذي يوصل الى المقصورة المجاورة . ففتح الباب من تلك الناحية ، ودخلت «هنريخ» ضاحكـــة . طويلة القامة جدا ، بفستان رمادي ، وبتسريحة يونانية لشعرها الاحمر الليموني ، وبقسمات وجه دقيقة وكأنها انجليزية ، وبعينين حيويتين بلون الكهرمان المائل الى البني .

– ماذا هل أنهيت الوداع ؟ لقد سمعت كل طريقها الى مقصورتي ونعتتني باللئيمة .

– هل بدأت تغارين ، يا هنريخ ؟

– لم ابدأ ، بل أواصل . لو لم تكن خطرة الى هذا الحد لطلبت منذ زمن بعيد قطع الصلات معها تماما .

– تلك هي المسألة . فهي خطرة . وليحاول المرء هجر مثل هذه المرأة دفعة واحدة ! ثم انني اتحمل صاحبك النمساوي ، وقضاءك الليلة معه بعد يوم غد .

– لا ، لن أمضي الليلة معه . انت تعرف حق المعرفة ، انني اسافر قبل كل شيء من اجل قطع الصلة معه .

– كان بوسعك القيام بهذا تحريريا . ولسافرت معي على أحسن وجه .

تنهدت وجلست معدلة شعرها بأصابع لامعة ، بلمسات خفيفة ، واضعة ساقا على ساق ، بحذاءين رماديين من جلد الشامواه ، تزينهما بكلتان فضيتان :

– لا يا عزيزي ، أريد مفارقته شرط ان تتوفر لي امكانية مواصلة العمل في مؤسسته . هو رجل حريص ، وسيقبل ان نفترق بصورة سلمية . واين سيجد من يستطيع مثلي تزويد مجلته بكل الفضائح المسرحية والادبية والفنية في موسكو وبطرسبورج ؟ ومن سيترجم ويدبر نشر قصصه العبقرية الفذة ؟ اليوم الخامس عشر من الشهر ، اذن ، ستصل الى

نيس في الثامن عشر منه ، اما انا فساصل في موعد لا يتعدى العشرين او الحادي والعشرين منه . وكفى الحديث عن هذا . فقبل كل شيء نحن صديقان ورفيقان طيبان .

– رفيقان . . . – قال ذلك رامقا بجذل وجهها الدقيق القسمات ذي الخدين المصطبغين بحمرة شفافة . – طبعا ، لن أجد رفيقا خيرا منك يا عزيزتي «هنريخ» ، أبدا . ومعك فقط أحس بالانشراح والانطلاق . يمكن الحديث معك عن كل شيء حديث صديق حقا ، لكن اتعرفين مصيبتي ؟ انني اعشقك اكثر فاكثر .

– أين كنتَ مساء يوم أمس ؟

– مساءا ؟ في البيت .

– مع من ؟ حسنا ، الله معك . لقد رآك البعض ليلا في مطعم «ستريلنا» ، كنت بصحبة رهط كبير في حجرة منفردة ومع الغجر . هذا لا يليق بك ، مصاحبة تلك الغجريات ، وعيونهن ذات السهام القاتلة . . .

– والسكارى في فيينا مثل بشيبيشيفسكي ؟

– لقيتهم ، يا عزيزي ، بالصدفة ، وهم ليسوا من اصحابي . هل حقا انها مليحة جدا ، ماشا هذه ؟

– الغجر ايضا ليسوا من أصحابي ، يا «هنريخ» . اما ماشا . . .

– هيا ، هيا ، صفها لي .

– ولكنك حقا تصبحين غيورة يا ايلينا

هنريخفنا . ما الذي سأصفه . . ألم تشاهدي الغجريات ؟ هيفاء القد جدا ، وحتى غير حلوة القسمات – شعر أسود لامع مستقيم ، ووجه اسمر بلون البنّ وغليظ ، ومحجران زائغا النظرات يميل بياضهما الى الزرقة ، وعظام الترقوة ضخمة كما لدى الخيل تتدلى عليها حلى ما كبيرة صفراء ، وبطن مستو . . . وهذا ، بالمناسبة ، شيء حسن جدا سوية مع الفستان الحريري الطويل بلون قشرة البصل المذهبة . او تعلمين – حين تمسك الشال المصنوع من الحرير العتيق السميك وتمضي راقصة مع الدف ويومض حذاءاها الصغيران تحت طرف تنورتها ، ويهتز القرطان الطويلان الفضيان ، – انها مجرد جائحة لا يصمد امامها أحد ! لكن دعنا نذهب لنتناول الغداء .

قامت وعلى ثغرها ابتسامة ساخرة :

– لنذهب . انت يا عزيزي ، لا يمكن اصلاحك . لكننا سنرضى بما يعطيه لنا الرب . انظر ما أروح حالنا هنا . غرفتان رائعتان !

– واحداهما زائدة عن الحاجة تماما . . .

القت على شعرها منديلا محيوكا صنع في اورنبورغ * ، وارتدى هو كاسكيتة السفر ، وسارا يتأرجحان في نفق العربات الذي لا نهاية له ، ويعبران الجسور الصغيرة التي تنبعث منها قرقعة ،

* مدينة في جنوب الاورال مشهورة بمناديلها الصوفية الناعمة . **المعرب** .

في الفواصل الباردة بين العربات حيث توجد شقوق تنفذ منها ندف الثلج .

عاد وحيدا . بقي جالسا في المطعم ودخن سيجارة ، بينما ذهبت قبله . وحين عاد أحس في المقصورة الدافئة سعادة ليلة عائلية تماما . كانت قد ازالت في الفراش طرف الغطاء والشرشف ، واخرجت ملابس النوم له ، ووضعت على الطاولة النبيذ ، وعلبة مصنوعة من لحاء اشجار الحور فيها كمثرات ، ووقفت ماسكة الدبابيس بين شفتيها ، ورفعت الذراعين العاريتين الى شعرها ، وبرز نهداها ، امام المرآة فوق المغسل ، وعليها قميص فقط وفي قدميها العاريتين خفّان مزينان بفرو الثعلب الابيض . وبدا خصرها رفيعا ، وعجزها مكتنزا ، والرسغان خفيفان ورشيقان . واصل تقبيلها فترة طويلة واقفا ، ثم جلسا على الفراش واخذا يحتسيان نبيذ الراين ، وعاودا تبادل القبلات بشفاه عليها برودة النبيذ .

قالت :

– وماذا عن «لي» ؟ وماشا ؟

في الليل وبينما كان مضطجعا الى جانبها في الظلام قال بكآبة ممزوجة بالمزاح :

– آه «هنريخ» ، لكم احب مثل هذه الليالي في عربات القطار ، وهذه العتمة في العربة المتأرجحة ، وانوار المحطات التي تومض وراء الستار – وانتن ،

أنتن «نساء البشر ، انتن مصيدة لغواية الانسان» ! هذه «المصيدة» شيء لا يمكن تفسيره وادراكه حقا ، ربانية وشيطانية في آن واحد ، وحين أكتب عن ذلك ، وأحاول التعبير عنه يلومونني متهمين اياي بالفسق ، وبالدوافع الخسيسة . . . اية نفوس دنيئة ! جميل ما جاء في أحد الكتب القديمة : «يحق للمؤلف ان يكون جريئا في تصويره للعشق والعشاق بالكلمات ، كما يحق هذا في كافة الازمان للرسامين والنحاتين : والنفوس الدنيئة وحدها تجد الدناءة حتى في الشيء الجميل او القبيح» .

وسألت هنريخ :

– ونهدا «لي» طبعا مدببان وصغيران ، يتدليان نافرين في طرفين متباينين ؟ هذه علامة مميزة للمصابات بالهستيريا .

– نعم .

– هل هي غبية ؟

– لا . . . على اي حال لا أعرف . في بعض الاحيان تبدو ذكية جدا ، وعاقلة ، وبسيطة ، وحلوة المعشر ومرحة ، وتفقه كل شيء من أول كلمة ، وفي احيان أخرى تقول كلاما سخيفا متخذلقا مبتذلا او خبيثاً وجارحا ، مما يجعلني أجلس وأصغي اليها متوتر الاعصاب وببلادة الأبله ، مثل الاصم والاخرس . . . ولكنني سئمت استفساراتك عن «لي» .

– سئمت لأنني لا أريد ان أكون رفيقة لك أكثر .

– وأنا ايضا لا أريد هذا . واكرر مرة اخرى : اكتبي الى هذا الوغد في فيينا ، بأنك سترينه في طريق العودة ، وانك متوعكة الآن ، ويتعين عليك الاستجمام في نيس بعد الاصابة بالانفلونزا ، وسنسافر دون ان نفترق ، ولكن ليس الى نيس ، بل الى مكان ما في ايطاليا . . .

– ولِمَ ليس الى نيس ؟

– لا أدري ، لقد شعرت فجأة بعدم الرغبة في السفر اليها لسبب ما والشيء الاساسي – نسافر معا !

– عزيزي ، لقد تحدثنا عن هذا . ولِمَ ايطاليا ؟ فانت كنت تؤكد لي بأن نفسك عافت ايطاليا .

– نعم ، حقا . انا زعلان عليها بسبب الحمقى ابناء جلدتنا من المتظاهرين بحب الجمال . «انا أحب في فلورنسا تريتشينتو * فقط . . .» بينما هو ولد في مدينة روسية صغيرة ولم يمض في فلورنسا سوى اسبوع واحد من حياته كلها . تريتشينتو وكفاتروتشينتو ** . . . وعافت نفسي كل هؤلاء فرا انجيليكو وغير لندايو والتريتشينتو والكفاتروتشينتو

---

* trecento (بالايطالية – ثلاثمائة) – تسمية القرن الرابع عشر – فترة التطور السريع للتيارات الانسانية في الثقافة الايطالية . **المعرب** .

** quattrocento (بالايطالية – اربعمائة) – تسمية القرن الخامس عشر – عصر ازدهار ثقافة النهضة المبكرة . **المعرب** .

وحتى بياتريس ودانتي النحيل الوجه الذي يرتدي رداءا نسائياً وعلى رأسه اكليل غار . . . ولكن ان لم نسافر الى ايطاليا فهيا بنا نتجه الى مكان ما في التيرول ، الى سويسرا او بوجه عام الى الجبال ، الى قرية صخرية ما ، وسط هذه الشياطين الجرانيتية التي تطاول السمـــاء والزاهيـــة الالوان المتدثرة بالثلوج . . . تصوري فقط : الهواء الحاد والرطب ، والاكواخ الحجرية المتوحشة بسقوفهـــا المائلـــة ، المتجمعة في كومة بالقرب من جسر حجري محدودب ، وتحته يجري بلغط سريع جدول مياهـــــه خضراء حليبية ، وجلجلة أجراس لقطيع غنم يمضي متزاحما ، وهناك صيدلية ومحل لبيع الالبينشتوكات * ونزل دافئ جدا ، وتتدلى فوق بابه قرون ايل متفرعة كما لو كانت قد حفرت عن قصد من حجر الخفاف . . . صفوة القول قعر وهدة تحيا فيها منذ آلاف الاعوام هذه القرية المتوحشة الغريبة عن العالم أجمع ، انها تلد وتقيم الاعراس وتدفن الموتى ، وتتطلع منذ اقدم الازمان من وراء الجرانيت الجاثم فوقها من علو شاهق القمة السرمدية لجبل ابيض مـــا ، مثل ملاك عملاق فارق الحياة . . . ما أجمل الفتيات هناك ، يا «هنريخ» ! مكتنزات ، بخدود موردة ، وصدريات سوداء ، واجربة صوفية حمراء . . .

قالت متثائبة بعذوبة :

* عصا مدببة الطرف يستخدمها متسلقو الجبـــال . **المعرب .**

– اوه ، يا لهؤلاء الشعراء ! مرة اخرى فتيات ، فتيات . . . لا ، ان الجو في القرية بارد يا حبيبي . ولا ارغب في اية فتيات أكثر . . .

بعد وصولهما الى وارشو ، حين انتقلا الى محطة فيينا ، عند العصر ، هبت على وجهيهما ريح رطبة ، مصحوبة بمطر بـارد متناثر القطـــرات كبيرها ، وتأرجح شاربان ليتوانيان على المحيـــا المتغضـــن للحوذي الذي كان يجلس بمقعده في العربة الفارهة ، وهو يستحث غاضبا الحصانين ، بينما كانت تسيح قطرات المطر من قبعته الجلدية ، وبدت الشوارع وكأنها شوارع مدينة صغيرة نائية .

لما انبلج الفجر رفع الستارة فرأى السهل الشاحب بسبب الثلج المائع ، ولاحت في بعض الاماكن منه بيوت حمراء من الطوب وفور ذلك توقف القطار وطال وقوفه في احدى المحطات الكبيرة ، حيث بدا كل شيء فيها صغيرا بعد روسيا ، – العربات الصغيرة فوق الخطوط والسكك الحديدية الضيقة والاعمدة الحديدية والصغيرة لمصابيح الشوارع وفي كل مكان تكومت كتل الفحم الحجري السوداء ، ومضى جندي صغير حاملا بندقية ، معتمرا قبعة عالية لها شكل دلو مقلوب ، ومرتديا معطفا عسكريا قصيرا ازرق لونه شبيه بلون الفأرة ، وعبر الخطوط الممتدة من حظيرة القاطرات ؛ وعلى الرصيف الخشبي البادي في اسفل نوافذ العربة كان يسير رجل طويل ونحيف ولـــه شاربان ، يرتدي

قمصلة ذات مربعات صنعت ياقتها من فرو الارنب ، وقبعة تيروليه خضراء تنتصب ريشـــة زاهية فى مؤخرتها . استيقظت «هنريخ» ورجته هامسة بأن ينزل الستارة . فأنزلها وانسل الى فراشها الدافئ تحت الغطاء . وضعت رأسها على كتفه وطفقت تنتحب . قال :

– «هنريخ» ، ماذا بك ؟

– لا أعرف يا حبيبي . انني غالبا ما أبكي عند الفجر . وحين استيقظ يصيبني بغتة الاشفاق على نفسي ايما اشفاق . . . بعد عدة ساعات ستسافر ، بينما سأبقى وحيدة ، وسأذهب الى المقهى لانتظار صاحبي النمساوى . . . وفي المساء المقهـــى مرة اخرى ، والاوركسترا الهنغارية ، وآلات الكمان تلك التي تقطع الحانها نياط القلب . . .

– بلى . . بلى . . وصيّار الصنوج الحاد . . . وها أنا أقول لك : ليذهب النمساوي الى الشيطان ولنواصل السفر معا .

– لا ، يا حبيبي ، غير ممكن . فكيف سأكسب رزقي إنْ تشاجرتُ معه ؟ لكن لك عهد عليّ ، بأن أى شيء لن يحدث بيننا . أتدري ، في المرة الأخيرة حين غادرت فيينا ، أوضحنا العلاقات بيننا ، كمـــا يقال – ليلا ، في الشارع ، تحت المصباح الغازي . وليس بوسعك تصور أى حقد ارتسم على وجهه ! كان وجهه أخضر شاحبا بتأثير نور الغاز والحنق ، زيتونيا وفستقيا . . . بيد ان الامر الرئيسي كيف أستطيع

الآن بعدك ، بعد هذه المقصورة ، التي جعلتنـــا قريبين الى هذا الحد . . .

– هل تقولين الحقيقة ؟

شدّته اليهـــا وراحت تمطره بأحرّ القبلات حتى احتبست أنفاسه .

– «هنريخ» ، أنا لم أكن اعرفك بهذه الحال .

– وأنا لم أكن أعرف نفسي . هيا ، تعال ، تعال اليّ . . .

– مهلا . . .

– لا ، لا ، في هذه اللحظة !

– قولي كلمة واحدة فقط : متى ستغادرين فيينا بالضبط ؟

– مساء هذا اليوم ، مساء اليوم !

تململ القطار ، ومضى رجال حرس الحدود بمحاذاة الباب في نعومة مجلجلين بمهاميزهم .

وصلا الى محطة القطار في فيينا . وفاحت رائحة الغاز والقهوة والبيرة ، فغادرته «هنريخ» ، انيقة الملبس ، وعلى ثغرها ابتسامة حزينة ، في عربة مكشوفة يجرها حصان اوربى عصبي المزاج ومهذب ، يقودها حوذي أحمر الأنف يرتدي طرحة بلا كمّين ويعتمر قبعة عالية صقيلة ويجلس في مقعد مرتفع بعربته . وبعد ان ازال الغطاء عن ظهر الحصان ، وراح يستحثه ويلوح بسوطه الطويـــل ، بدأ يمشي بقوائمـــه الارستقراطية الطويلة والمرضضة وانطلق باعوجاج

هازًا ذنبه المقصوص القصير في اعقـــاب الترام الاصفر . اما هو فقد بلغ به القطار زيميرينغ ورأى كل بهاء وجمال واحتفالية الظهيرة في الجبال خـارج بلاده ، كانت النافذة من جهة اليسار ساخنة في عربة المطعم ، وثمة باقة زهور ، نباتات الزينة والنبيذ الأحمر «فيسلاو» فوق المائدة الناصعة البياض بالقرب من النافذة ، وفي وقت الظهيرة تألقت الذرى الجليدية الناصعة البياض ، المتعالية المرتدية حلتها البهيجة المهيبة في الزرقة الغامضة الفردوسية ، وبدت على مرمى عصا من القطار ، الماشي ملتويا على المنحدرات فوق الوهاد الضيقة حيث ما برحت قائمة برودة ظلال الصباح الزرقاء ، الشتوية . واقبل المساء ، الشديد البرودة ، العذري الرائق ، الذي اصطبـــغ بالحمرة والزرقة لدى اقتراب الليل ، في احد المعابر الغارق بكل ما فيه من اشجار شوح خضراء في الثلوج الوفيرة النقية المنفوشة . ومن ثم توقفوا لفترة مديدة في شعب مظلم بالقرب من الحدود الايطالية ، وسط جبال سوداء كما في جحيم دانتي ، وثمة نور ملتهب في حمرته يتصاعد منه الدخان عند مدخل فوهة النفق المتفحمة . بعد هذا تغيرت الاجواء تماما ، وغدت لا تشبه البتة ما مرّ به سلفاً : محطة قطار ايطاليـــة قديمة مطلية بطلاء وردي استحال لونه ، وكبرياء جنود المحطة ذوي السيقان القصيرة ، الشبيهـــة بكبرياء الديكة وريش الديكة على خوذاتهم ، وبدلا من البوفيه في المحطة ثمة صبى وحيد ، يدفع بكســل

عربة صغيرة بمحاذاة القطار ، فيها برتقال وقناني نبيذ فقط . وبعد هذا مضى القطار منطلقا بسرعـــة متزايدة الى الاسفل والاسفل ، وهبت من النوافذ المفتوحة بنعومة ودفء أكثر فأكثر من الظلام رياح سهل لومبارديا ، المرصع بالانوار البعيدة الحنونة اللطيفة لايطاليا الحلوة . وقبل ان يدلهم ظلام مساء اليوم التالي ، الصيفي تماما ، بلغ محطـة نيس ، المزدحمة ارصفتها بالناس بمناسبة الموسم . . .

في ظلام الغسق الازرق ، حين انداحت انوار الساحل التي لا حصر لها مثل سلسلة ماسية ملتوية حتـى راس انتيب كشبح رمادي يتلاشى في الغرب ، وقف صاحبنا في الفراك وحده ، على شرفة غرفته في الفندق الكائن على الكورنيش ، مفكرا في ان درجة الحرارة بموسكو ساعتئذ عشرين درجة تحت الصفر ، وانتظر ان يُدق بابه بعد هنيهة ويسلم برقية من «هنريخ» . وبينما كان يتناول الغداء في مطعـــم الفندق تحت الثريات المتألقة في بريق ، وفي زحمة بدلات الفراك التي يرتديها السادة وفساتين السهرة النسائية ، كان يترقب ايضا ان يأتيه بعد لحظة صبي يرتدي جاكتة رسمية زرقاء والقفافيز البيضاء حاملا بتبجيل صينية عليها البرقية . ومضى يتناول ساهما حساءا خفيفا متبّلا ، ويحتسى نبيذ بوردو الأحمر وينتظر . تناول القهوة ودخن في البهـــو ، وطفق ينتظر مرة اخرى ، وقد تنامى قلقه واستغرابه : ماذا حلّ بي ، لِمَ اتحسس امراً كهذا منذ فتوتي المبكرة ! غير ان

البرقية لم ترد . كانت المصاعد تنزلق صاعدة وهابطة ببريق وومیض والصبيان يهرولون جيئة وذهابا ، حاملين السجائر والسيجار وصحف المساء ، وصدحت من المنصة الحان فرقة الوتريات ، — اما البرقية فلم ترد ، بينما بلغت الساعة الحادية عشرة ، علما ان قطار فيينا كان يجب ان يصل معها في الساعة الثانية عشرة . واحتسى مع القهوة خمسة اقداح كونياك ، ثم مضى الى غرفته بالمصعد ، يغالبه شعور من الانهاك والتقزز ، رامقاً الصبي ذا البزة بنظرات حانقة : «اي وغد سيشبّ من هذا الصبي الماكر والخدوم والفاسد تماما ! ومن الذي يبتكر لجميع هؤلاء الصبيان مثل هذه القبعات والجاكتات السخيفة ، فتارة زرقاء وتارة بنية ، مع كتّافيات وحواش !» .

لم ترد البرقية في الصباح أيضا . فدق الجرس ، وجاء خادم شاب يرتدي بزة فراك ، فتى ايطالي وسيم له عينا غزال ، حاملا القهوة له .

«Pas de lettres, monsieur, pas de télégrammes* »

وقف مرتديا البيجاما بالقرب من باب الشرفة المفتوح ، مضيقا عينيه بسبب الشمس والبحر المتراقص بالاشعة الذهبية ، متطلعا الى الكورنيش ، والى حشد المتنزهين الكثيف ، مصغيا الى الاغاني الايطالية المترعة بالسعادة ، المنسابة من الاسفل ، من تحت الشرفة ، وفكر بتلذذ :

* لا رسائل ، يا سيدي ، ولا برقيات (بالفرنسية) .

«لتذهب الى الشيطان ، كل شيء مفهوم !»

ثم سافر الى مونت كارلو ، ولعب القمار فترة طويلة ، وخسر مائتي فرانك ، وقفل راجعاً ، من اجل قتل الوقت في عربة يجرها حصان — وقضى في سفرته ما يكاد يعادل الثلاث ساعات : توب — توب ، توب — توب ، اوى ! وخضعة السوط في الهواء . . . كشّر عامل الفندق بجذل وقال :

Pas de télégrammes, monsieur ! —

ارتدى ملابسه ساهما استعدادا للغداء ، وفي راسه الافكار ذاتها .

لو دقّ الباب الآن فجأة ، ودلفت هي فجأة ، في عجلة واضطراب ، شارحة على الماشي الاسباب التي حالت دون ارسالها البرقية ، وسبب عدم وصولها يوم أمس ، لكنت ، كما اعتقد ، سأقضي نحبي من الفرح ! ولقلت لها انني لم أحب أحدا في الدنيا ابدا حبي لها ، وان الرب سيغفر لي الكثير من الآثام لقاء حبي هذا ، وسيغفر لي حتى قصتي مع ناديا ، — فافعلي بي كل ما يحلو لك ، يا «هنريخ» ! بلى ، لكن «هنريخ» كانت بلا ريب تتناول الآن الغداء مع صاحبها النمساوي . اوه ، اية لذة ستغمرني لو وجهت لها أشد صفعة ، ولو حطمت راسه بقنينة الشمبانيا التي يحتسيانها في هذه اللحظة معا !

بعد الغداء خرج الى الشوارع للتنزه وسط الحشد الغفير ، في الجو الدافئ ، والرائحة النتنة اللزقة

للسيجار الايطالي الرخيص ، وسعى نحو الكورنيش ، نحو البحر الأسود كالقطران ، وعاين قوس ساحله الشبيه بعقد الجواهر ، الذى يذوب بكآبة في الآفاق البعيدة من جهة اليمين ، عاج على البارات ، وما كان يكف عن الشرب . . تارة الكونياك وتارة الجين او الويسكى . ولمـــا عاد الى الفنـــدق بدا شاحبا كالطباشير ، بربطة عنق بيضاء وصديرية بيضاء ، ويعتمر قبعة عالية ، دنا من عامل الفندق بوقار وبلا اكتراث مغمغما بشفتين خدرتين :

— Pas de télégrammes ?

فرد عامل الفندق بتأهب مشوب بالابتهـــاج ، متظاهرا بأنه لا يلاحظ شيئا :

— Pas de télégrammes, monsieur !

كان السكر قد بلغ به اقصاه مما جعله يغفـــو حالما القى القبعة ونضا عنه المعطف والفراك فقط ، – فاستلقى على ظهره وعلى الفور غاص في ظلمة لا قرار لها ، مرصعة بنجوم ملتهبة .

في اليوم الثالث بسط النوم عليه جناحيه بعـــد الفطور ، فأغرقه في سبات عميق ، وعندما استيقظ أمعن الفكر على حين غرة في كل سلوكـــه البائس الشائن امعانا سليما وواعيا وحازما . وأمر بجلب الشاي الى غرفته ، وطفق يجمع حاجياته من الخزانة ويرتبها في الحقائب ، ساعياً الى عدم مواصلة التفكير

فيها ، وعدم التأسف على رحلته الضائعة التي لا معنى لها . وقبيل المساء هبط الى البهو ، وأمر بتقديـــم الحساب ومضى بخطوات هادئة الى مكتب شركة كوك واشترى تذكرة الى موسكو عبر البندقية في قطار المساء : سأقضي يوما في البندقية وفي الساعة الثالثة ليلا سأتوجه بطريق مباشر وبلا توقف عائـــدا الى الوطن ، الى فندق لوسكوتنايـــا . . . كيف يبدو النمساوي هذا ؟ اعتمادا على الصـــور واحاديث «هنريخ» فهو رجل فارع الطول مفتول العضل ، ذو نظرة عبوسة وحازمة – هذا تمثيل ، طبعا ! – ووجه يبدو مائلا من تحت القبعة الواسعة الحواشي . . . لكن ما الحاجة للتفكير بشأنه ! وما أكثر ما ستأتي به الحياة من أحداث ! غدا ، سأصل البندقية . ومرة أخرى الغناء والجيتارات في أيدي المغنين المتجولين على الكورنيش المقابل للفندق ، ويبرز وسط ذلك صوت نديّ ينـــم عن لامبالاة لامرأة سوداء الشعر حاسرة الرأس ينسدل على كتفيها شال ، يتردد في ترجيعة مع غناء رجل بصوت تينور ، قصير الساقين ، يبدو من الاعلى قزمـــا ، ويعتمر قبعة متسول . . . والشيخ ذو الأسمال ، الذي يساعد الراكبين على الصعود الى الجندول – في العام الماضي كان قد ساعده في الصعود مع حسناء صقليّة ذات مقلتين ناريتين ، يتدلى من أذنيها قرطان بلوريان متارجحان ، وتزين شعرها الفاحم بقبضة ميموزا مزهرة . . . ورائحة مياه القناة العفنة ، والجندول الصقيلة من الداخل وكأنها

تابوت ، وفي مقدمتهـــا تمتد فأس رهيبة مسننة ، تأرجح الجندول ، وجذاف شاب يقف على الكوثل عاليا وتلف خصره النحيل شملة حمراء ، وهو يدفع جسمه الى الامام برتابة ضاغطا المجذاف الطويـــل بجهد ، مادا ساقه اليسرى الى الوراء كما يبدو هذا في الالواح الكلاسيكية . . .

أقبل المساء ، وانداح البحر هادئا ومستويا في ذلك المساء مثل سبيكة مخضوضرة ذات بريـــق مبرقش ، وفوقه كانت طيور النورس تضجّ وتعجّ ، حانقة وشاكية ، شاعرة بسوء الطقس في غداة غد ، وبدا الغرب الازرق الرمادي وراء رأس انتيب عكراً مضبباً ، وتراءى فيه خابيا قرص الشمس الصغيرة ، مثل برتقالة زاهية اللون . حدق فيها فترة طويلة ، مسحوقا بكآبة رتيبة لا رجاء فيهـــا ، ثم ثاب الى رشده ، وغذ الخطى بنشاط آيبا الى فندقه .

« Journaux étrangers ! »* – هتف بهذا الصبي بائع الصحف الراكض نحوه ودسّ له على الماشي جريدة «نوفويه فريميا» . فجلس على مصطبة وطفق في ضوء الغسق الذي يوشك ان يخبو يقلب ويلقي ساهما نظرة على صفحات الجريدة التي ما زالت تفوح منها رائحة الحبر . وبغتة هبّ من مكانه وكأنما أفقده السمع والبصر توهج نور مفاجئ :

---

* الصحف الاجنبية ! (بالفرنسية) .

«فيينا . ١٧ ديسمبر . أطلق الكاتب النمساوي المعروف أرتـــور شبيغلر اليـــوم في مطعـــم « Franzensring » نيران مسدسه على صحفية روسية ترجمت الكثير من القصص النمساوية والالمانيـــة الحديثة ، وكانت تنشر أعمالهـــا بالاسم المستعار «هنريخ» .

١٠ نوفمبر ١٩٤٠

ناتالي

١

في ذلك الصيف ارتديت لأول مرة القبعة الرسمية للطلاب ، وكنت مسرورا بالسعادة الغامرة لبدء حياة الشباب الطليقة ، مما لا يعرفه المرء الا في هذه الحقبة . لقد ترعرعت في أسرة عريقة في نبالتها وصارمة ، في القرية ، وفي ايام فتوتي ، حين كنت أتوق بحرارة الى الحب ، كنت لا ازال طاهرا روحا وجسدا ، ويتضرج وجهي بالحمرة لدى سماع الأحاديث الخليعة لرفاقي في المدرسة الثانوية ، بينما كانوا يمتعضون : «خير لك يا ميشيرسكي ان تصبح راهبا !» اما في ذلك الصيف فلم يكن وجهي ليتضرج بالحمرة . ولما رجعت الى البيت لتمضية العطلة قر عزمي : «حان الوقت لكي اغدو كالآخرين ، ولأدنس طهارتي ، ولأبحث عن الحب بلا رومانسية ، وبحكم هذا القرار وكذلك لرغبتي في اظهار قبعتي الطلابية الزرقاء ، رحت أجوب الضياع المجاورة بحثا عن الصلات الغرامية ، بزيارة الاقارب والمعارف . وهكذا اتفق لي مرة ان عجت على ضيعة تشير كاسوف ، خالي ، الضابط المتقاعد من كتيبة الفرسان الذي ترمل منذ وقت بعيد ، وله ابنة وحيدة ، هي صونيا . . .

وصلت في وقت متأخر ، ولم يستقبلني في البيت سوى صونيا . حين ترجلت من العربة الصغيرة ، وهرعت الى غرفة المدخل المظلمة ، خرجت هي الى هناك ، بروب نوم من الفانيلا ، ماسكة عاليا بشمعة في يدها اليسرى ، ومدت لي خدها لكي أبوسه ، وقالت هازة رأسها بسخريتها المعهودة :

— آه ، ايها الشاب المتأخر دوما وابدا !

فاجبتها :

— لكن هذه المرة لم تكن جريرتي البتة . ولم يتأخر الشاب بل القطار !

— هس . . . الكل نائمون . لقد تلهفوا طوال المساء منتظرين وفي نهاية المطاف فقدوا الأمل في مجيئك . وبابا أوى الى مضجعه غاضبا ، ووصفك بالطائش الارعن ، اما يفريم الذي بدا انه بقي للمبيت في المحطة حتى مجيء قطار الصباح فوصفه بالاحمق العجوز . وناتالي مضت مستاءة ، وانصرف الخدم أيضا ، وبقيت أنا وحدي صبورة ووفية لك . . . اخلع قبعتك وهيا بنا لتناول طعام العشاء .

أجبت وأنا أتمتع بمرأى عينيها الزرقاوين وذراعها المرفوعة العارية من الكتف :

— شكرا ، يا عزيزتي . يسعدني على الأخص الآن الاقتناع بوفائك واخلاصك لي — فقد أصبحت آية في الحسن ، ولديّ تجاهك أكثر النوايا جدية . أية ذراع

وجيد وهذا الروب الناعم لكم يبعث على الاغراء ، ويبدو ان وراءه لا شيء !

فضحكت :

– لا شيء تقريبا . وأنت أصبحت وسيم الطلعة ، ولاحت فيك علائم الرجولة . النظرات سريعة والشاربان مبتذلان . . . لكن ماذا جرى لك ؟ فخلال هذين العامين اللذين لم أرَك فيهما تحولت من صبي يحمر وجهه دائما من الحياء والخجل ، الى وقح جذاب . وهذا يعدنا بالكثير من اللذائذ الغرامية ، كما كانت تقول جداتنا ، لولا ناتالي ، التي ستقع صباح الغدّ في هواها على الفور والى الأبد .

– ومن هي ناتالي هذه ؟ – سألتها ماشيا خلفها الى غرفة الطعام التي ينيرها مصباح ساطع الضوء معلق من السقف ، وفتحت النوافذ فيها لتطل على فحمة الليل الصيفي الدافئ والساكن .

– انها ناتاشا ستانكيفيتش ، صديقتي في المدرسة الثانوية ، وقد حلّت ضيفة علىّ . انها حسناء حقا ، ولا تقارن بي . فتصوّر : انها جميلة الرأس ، يزينه ما يسمى جدائل «ذهبية» ، سوداء المقلتين ، وهما ليستا بعينين بل «شمسان سوداوان» كما يقول الفرس ، والأهداب طويلة وسوداء طبعا ، ومحياها ذهبي البشرة رائع ، وكذا لون الكتفين وغير ذلك .

– وما «غير ذلك» هذا ؟ – سألتها معجبا اكثر فأكثر بالمنحى الذي اتخذه حديثنا .

– سنذهب ، انا وهي ، في الصباح غدا للاستحمام – ومشورتي لك ان تتسلل الى الدغل ، وحينئذ سترى كل ما غير ذلك . ميساء القدّ مثل حورية فتية . . .

كانت على المائدة في غرفة الطعام كستليته باردة وقطعة جبن وقنينة نبيذ أحمر من كروم القرم .

– لا تزعل فلا يوجد شيء غير هذا – قالت ذلك وهي تجلس وتصبّ النبيذ لي ولها نفسها . – ولا توجد فودكا ، على اي حال ليمنحنا الرب ، لنقرع الكؤوس حتى ولو كانت مترعة نبيذا .

– ماذا بالذات يمنحنا الرب ؟

– ان اجد خطيبا يظل في كنف بيتنا . فقد ولجت عامي الحادي والعشرين ، وليس بوسعي الزواج والابتعاد عن البيت ابدا : فمع من سيبقى ابي ؟

– ليمنحنا الرب !

قرعنا كاسينا ، واحتست الكأس كله مستأنية ، وطفقت ترنو اليّ مجددا بابتسامة ساخرة غريبة ، والى كيف كنت أتعامل مع الشوكة ، وراحت تقول وكأنها تتحدث مع نفسها :

– نعم ، أنت ظريف ، تشبه جورجيّا ، ووسيم الطلعة نوعا ما ، سابقا كنت نحيفا للغاية وسحنتك شاحبة كل الشحوب . وعموما لقد تغيّرت كثيرا ، وغدوت حلو المحضر ، سوى ان عينيك لا تستقران في موضعهما .

– هذا لانك تربكينني بمحاسنك . فانت أيضا ما كنت كذلك سابقا . . .

وطفقت أتفحصها بجذل . كانت تجلس على الطرف الآخر للمائدة ، وقد لملمت كلتا ساقيها على الكرسي ، واضعة اياهما تحتها واحدى الركبتين الممتلئتين فوق الاخرى ، ونأت عني بجانبها قليلا ، لمعت في نور المصباح سفعة بشرتها المتسقة ، وتلألأت لاحظتاها الزرقاوان المشوبتان بالبنفسج والساخرتان ، ومال شعرها الكستنائي الكثيف والناعم الى الحمرة الخفيفة ، وقد عقصته استعداداً للنوم في ضفيرة كبيرة ؛ وبان خلف ياقة الروب المكشوفة قليلا جيدها المدور الأسفع وبداية صدرها بنهديها الصائرين الى امتلاء ، ولاح عليه ايضا مثلث اسفع ؛ وبانت شامة على خدها الأيسر تنمو منها جديلات شعر أسود جميلة .

– كيف حال بابا ؟

واصلت التحديق بنظراتها الساخرة ذاتها واخرجت من جيبها علبة سجاير فضية صغيرة وعلبة ثقاب فضية وراحت تدخن بشيء من الخفة وحتى بالافراط فيها ، معدلة فخذها تحتها :

– بابا والحمد لله بصحة وعافية . عنيد وصلب كشأنه سابقا ، يقرع الأرض بعكازه ، وينفش «عرفه» فوق رأسه الأشيب ، ويعمد سرا الى صبغ شاربيه وفوديه بصبغة داكنة ما ، ويرمق خريستيا بنظرات فارس . . . سوى انه بات أكثر من

السابق يهز ويؤرجح رأسه . كما لو انه لا يتفق مع احد بصدد أي شيء – قالت ذلك واستغرقت في الضحك . – أتريد سيجارة ؟

دخنت سيجارة ، رغم انني لم اكن آنذاك قد بدأت التدخين ، وصبّت مرة أخرى النبيذ في كأسي وكأسها ، ورنت الى الظلمة وراء النافذة المفتوحة وقالت :

– الحمد لله الأمور تمضي ، حتى الآن ، بخير . والصيف رائع ، والليل رائق أليس كذلك ؟ غير ان العنادل قد كفّت عن التغريد . والحق أنا سعيدة جدا بمقدمك . وقد بعثت يفريم ليأتي بك منذ الساعة السادسة ، اذ خشيت ان يتأخر هذا الخرف على القطار . انتظرت بنفاد صبر أكثر من الآخرين . ومن ثم حتى كنت راضية لانصراف الجميع الى مضاجعهم ، ولتأخرك ، بغية ان نجلس لوحدنا في حالة قدومك . ولسبب ما دار في خلدي انك قد تغيّرت جدا ، يحدث ذلك دوما لمن هم مثلك . لو تدري ، انها لمتعة كبيرة ان يجلس المرء وحيدا في البيت كله أبان ليلة صيف ، ينتظر أحدا ما سيصل بالقطار ، وفي نهاية المطاف تتناهى الى سمعه جلبة قدوم العربة ، وجلجلة الأجراس ، وهي تقترب من السطحة . . .

أمسكت يدها بقوة عبر المائدة وأبقيتها في يدي ، وقد شعرت بانجذاب الى جسدها كله . بينما

كانت تنفث من شفتيها بهدوء جذل حلقات الدخان .
ثم تركت اليد وقلت كما لو كنت أمزح :
– ها أنت تتحدثين عن ناتالي ، لا تمكن مقارنة اية ناتالي بك . . . بالمناسبة ، من هي ، من أين جاءت ؟
– انها من منطقتنا ، من فورونيج ، من عائلة كريمة المحتد ، كانت في زمن ما غنية جدا ، اما الآن فهي مدقعة تقريبا . يتكلمون في بيتهم بالفرنسية وبالانجيزية ، بينما لا يجدون ما يأكلونه . . فتاة طريفة جدا ، ممشوقة القد ، كما انها رقيقة . ذكية ، لكنها منطوية على نفسها جدا . ولا يدرك المرء دفعة واحدة فيما اذا كانت ذكية ام غبية . . . ان عائلة ستانكيفيتش من الجيران القريبين لابن عمك اليكسي ميشيرسكي ، وتقول ناتالي انه أخذ يكثر من زياراته لهم ويشكو من عزوبته . لكنه لا يحظى بأعجابها ، وعلاوة على هذا فهو ثري ، وسيظن الناس ان زواجها تم طمعا في ماله ، وتضحية بذاتها من أجل والديها .
قلت :
– طيب . لنرجع الى حديثنا الأصلي . ناتالي ، ناتالي ، وغرامنا نحن الاثنين ، كيف سيكون مصيره ؟
فردّت :
– ناتالي لن تفسد علينا غرامنا . أنت ستفقد عقلك ولها بها ، بينما ستتبادل القبل معي .

وستبكي على صدري شاكيا من قساوتها ، اما أنا فسأخفف عنك وأواسيك .
– لكنك تعرفين انني موله بك منذ أمد بعيد .
– بلى ، لكن هذا كان الشغف العادي بابنة الخال ، زد على انه كان مكتوما للغاية ، فكنت آنذاك مضحكا ومملا فحسب . لكن ، الله معك ، انا اغفر لك حماقتك السابقة ، ومستعدة لبدء قصتنا الغرامية غداة غد ، وعلى الرغم من وجود ناتالي . اما الآن ، هيا الى الرقاد . فعليّ الاستيقاظ مبكرا غدا لتدبير الأمور المنزلية .
نهضت ، وهي تجمع أطراف الروب ، وأخذت من الدهليز الشمعة التي أوشكت ان تحترق كلها ، وقادتني الى غرفتي . وعند عتبة هذه الغرفة ، كان قد استبد بي الابتهاج والعجب مما عجبت وابتهجت له في قرارة نفسي طوال فترة العشاء ، لكون الحظ السعيد في تحقيق آمالي الغرامية قد حالفني هكذا على حين غرّة في بيت عائلة تشيركاسوف ، فقبلتها قبلة طويلة وبنهم وحصرتها الى ساكف الباب ، اما هي فكانت مغمضة العينين وواجمة هابطة أسفل فأسفل الشمعة التي تسيل منها القطرات الذائبة . ولما ابتعدت عني محمرة الوجه لوحت بأصبعها منذرة وقالت بصوت خافت :
– عليك بالحذر الآن ، فيجب الا تجرا غدا على التهامي بنظراتك الشرهة أمام الجميع ! ولا قدّر الله ان يلاحظ ابي شيئا . انه شديد الخوف مني ،

وانا اخافه أكثر . كما لا أريد ان تلاحظ ناتالي شيئا ما ، فانني كثيرة الاستحياء ، ولا تحكم عليّ رجاء من سلوكي معك . واذا لم تنفذ أمري ، فستغدو على الفور كريها الى نفسي . . .

خلعت ملابسي وهويت على الفراش ورأسي يدور . لكن النوم بسط علي جناحيه واستغرقت في سبات لذيذ وعلى الفور ، وقد بلغ بي الاعياء اقصاه من السعادة والضنى ، دون ان تخامرني اية هواجس بصدد النازلة العظيمة التي تنتظرني فيما بعد ، وان هزل صونيا لم يكن هزلا .

في الاوقات اللاحقة كنت استعيد في ذاكرتي اكثر من مرة حدثا اعتبرته نذير تشاؤم : فحين دلفت الى غرفتي ، وشخطت عود الثقاب ، من اجل اشعال الشمعة انقضّ عليّ بخفة ونعومة خفاش ضخم ، انقض قريبا جدا من وجهي مما جعلني ارى بوضوح حتى في ضوء عود الثقاب جسده المخملي القاتم البشع ، ووجهه المتوحش ، ذا الاذنين المنتصبتين والأنف الافطس ، وكأنه شبح الموت . ثم غاص مارقا في النافذة المفتوحة وسط الظلام ، بحركة تململ كريهة . لكني نسيته فورا آنذاك .

٢

رأيت ناتالي لأول مرة في صباح اليوم التالي لكن بصورة خاطفة : فقد مرقت بغتة من الدهليز الى

غرفة الطعام ، واسترقت نظرة نحوي . لم تكن قد عدلت تسريحة شعرها بعد ، وترتدت روبا خفيفا فقط من قماش برتقالي ما ، واختفت عن ناظري ، بعد ان ومضت بهذا الشيء البرتقالي ، وبشعرها الذهبي اللامع ، وعينيها السوداوين . كنت آنذاك لوحدي في غرفة الطعام ، وانهيت لتوه احتساء القهوة ، حيث كان الضابط العجوز قد أنهى احتساءها من قبل وانصرف ، وحين نهضت من المائدة التفت الى الوراء بالصدفة . . .

استيقظت في وقت مبكر من ذلك الصباح والسكون المطبق يسود البيت كله . وما اكثر غرف البيت حتى اني كنت احيانا أضل طريقي فيها . استيقظت في غرفة نائية ما ، تطل نوافذها على الجانب الظليل من الحديقة ، وقد نلت قسطا كافيا من النوم ، فاغتسلت بكل ارتياح ، وارتديت ملابس نظيفة ، وسرني على الأخص ارتداء القميص الروسي الحريري الأحمر ، ومشطت شعري المبلل في تسريحة أنيقة بعد ان قصصته يوم أمس في فورونيج . طلعت الى الرواق واستدرت ماشيا الى آخر ووجدت نفسي أمام مكتب هو في الوقت ذاته غرفة نوم الضابط العجوز . ولعلمي بأنه يستيقظ صيفا في نحو الساعة الخامسة طرقت الباب . ولم يرد أحد ، ففتحت الباب ، وتطلعت وتأكدت مسرورا ان اي شيء لم يتغير في هذه الغرفة القديمة الفسيحة ذات النافذة الايطالية المتألفة من

اقسام ثلاثة ، التي تطل على شجرة حور فضية عمرها مائة عام : من جهة الشمال كان الجدار كله تغطيه خزانات الكتب ، وفي موضع ما ، بين اثنتين منها ، انتصبت ساعة من الخشب الماهوجوني ، ذات بندول نحاسي ساكن بلا حركة ، وفي موضع آخر ثمة كومة من الغلايين زينت شبوقاتها بالنمنم ، وعلق فوقها مضغاط ، وفي موضع ثالث يوجد مكتب عتيد من خشب الجوز يرجع عهده الى ايام الاجداد ، ذو غطاء مفتوح غدا قماش الجوخ الأخضر عليه اصهب كالح اللون . وتوجد على قماش الجوخ كلابة ومطارق ، ومسامير ، ومنظار نحاسي . وعلى الجدار بالقرب من الباب ، وفوق كنبة خشبية ضخمة ثقيلة ، ثمة معرض كامل من لوحات البورتريه الكابية ذات الاطر البيضوية الشكل ، وهناك منضدة كتابة ومقعد وثير تحت النافذة – وكلاهما ضخمان ايضا . ومن جهة اليمين علقت لوحة كبيرة فوق السرير العريض جدا المصنوع من خشب البلوط : الخلفية اللامعة قد علاها الاسوداد ، وعليها أكوام سحب لا تكاد ترى سمراء رمادية وأشجار شاعرية خضراء مشوبة بالزرقة ، وفي المقدمة تتالق حسناء عارية ممتلئة القد ، بيضاء كما لو كانت من زلال بيض متجمد ، وتكاد تكون بالحجم الطبيعي ، نأت عن الناظرين بجانبها واقفة بمحياها الأبي وبكل ظهرها الثقيل والعجز المكتنز وسمانة ساقيها الضخمتين ، وتستر بصورة

مغرية بالاصابع الطويلة المنشورة لاحدى يديها حلمة ثديها ، وبالأخرى تستر أسفل البطن ذى الطيات الثخينة . بعد ان تفحصت هذا كله سمعت خلفي الصوت الجهوري للضابط العجوز الذي دنا مقتربا مني متكئا على عكازه من جهة غرفة المدخل :

– لا ، ياصاحبي ، لن تجدني في غرفة النوم في مثل هذا الوقت . فأنتم ترقدون في الفراش حتى البلوطات الثلاث .

لثمت يده العريضة الجافة وسألت :

– أية بلوطات يا خالي ؟

– هذا ما يقوله الفلاحون – ردّ هازا عرفه الأشيب محدقا أياي بعينيه الصفراوين ، النفاذتين والذكيتين حتى الآن . – يقول الفلاحون : ها ان الشمس قد بلغت علو ثلاث بلوطات بينما أنت ما زلت راقدا ووجهك مدسوسا في المخدة . هيا نتناول القهوة . . .

«شيخ رائع ، وبيت رائع» ، – هذا ما جال في خاطري وأنا أدلف وراءه الى غرفة الطعام ، التي تراءت في نوافذها المفتوحة خضرة الحديقة في الصباح ، وكل رخاء الضيعة الريفية أبان الصيف . تولت خدمتنا مربية عجوز ، صغيرة الحجم ، محدودبة الظهر . وتناول الضابط العجوز الشاي الثقيل ممزوجا بالقشدة من قدح زجاجي سميك ذي حمّالة فضية ، ماسكا في القدح بأصبع عريض القبضة الملولبة الطويلة الرفيعة للملعقة المدورة

الذهبية العتيقة ، وتناولت أنا شرائح الخبز الأسود مع الزبدة الواحدة تلو الأخرى ، وما لبثت أصب لنفسي القهوة من إبريق فضي ؛ كان الضابط العجوز يهتم بأموره فقط ، فتحدث عن الجيران من مالكي الاطيان دون ان يستفسر مني عن شيء ، واسترسل في كيل صنوف الشتائم اليهم والسخرية بهم ، وتظاهرت بالاصغاء اليه ، ورحت أرنو الى شاربيه وسالفيه والشعيرات الطويلة على أرنبة أنفه ، بينما كنت أنتظر بفارغ الصبر ظهور ناتالي وصونيا مما جعلني لا أستقر في مكاني : ما هذه الناتالي ، وكيف سألتقي صونيا بعد ما جرى ليلة أمس ؟ كنت أشعر بالبهجة والامتنان نحوها ، وصارت تجول في خاطري الأفكار الفاجرة حول غرفتي نومهما ، هي وناتالي ، وحول كل ما يدور في غرفة المرأة حين يسودها التشوش اثناء الصباح . . . لربما روت صونيا مع ذلك الى ناتالي شيئا ما عن غرامنا الذي بدأ ليلة أمس ؟ ولو حدث هذا فانني سأحس بما يشبه الحب تجاه ناتالي ايضا ، ليس لانها حسناء ، حسب الزعم ، بل لانها غدت شريكا سريا لنا – أنا وصونيا . ولمَ لا يستطيع المرء الوقوع في غرام الاثنتين ؟ انهما ستلجان بعد قليل الغرفة بكل نضارتهما في الصباح ، وستريانني ، بملاحتي الجيورجية ، وقميصي الروسي الأحمر ، فتبدآن الأحاديث والضحك وتجلسان الى المائدة ، وتصبان القهوة بحركات رشيقة من هذا الابريق الساخن ، – شهية

الشباب في الضحى ، انفعال الشباب في الضحى ، بريق العيون التي نالت قسطها من النوم ، وطبقة المساحيق الخفيفة على الخدود ، التي تبدو وكانها غدت أكثر شبابا بعد الكرى ، وهذه الضحكات تنطلق بعد كل كلمة ، انها غير طبيعية تماما ولكنها مع ذلك ساحرة . . . وقبيل الفطور ستسعيان الى النهر عبر الحديقة ، وستنضوان ملابسهما في موضع الاستحمام وستنير جسديهما العاريين زرقة السماء بنورها من فوق ، ولمعان المياه الصافية من تحت . . . لقد كان خيالي خصبا على الدوام ، وتصورت كيف ستقف صونيا وناتالي على سلم موضع الاستحمام ماسكتين بعارضته وتنزلان بوجل درجاته الغائصة في الماء ، والمبللة والباردة ، والزلقة بسبب الطبقة الخضراء الكريهة النامية فوقها ، وكيف ترمي صونيا الى الوراء برأسها الكثيف الشعر وتهوى في الماء فجأة بحزم على نهديها النافرين ، – وترى بصورة غريبة في الماء بكامل جسدها الطباشيري الضارب الى الزرقة ، ملوحة جانبا بيديها وساقيها وكأنها ضفدعة . . .

– حسنا . . . الى اللقاء عند الغداء . أنت تذكر طبعا ان الغداء يقدم في الساعة الثانية عشرة – قال الضابط العجوز هذا بهزّة انكار عصبية من رأسه ونهض ، بذقنه الحليقة ، وبشاربيه البنيين المقوسين والمتصلين بسالفين باللون ذاته ، وقامته الطويلة المتصلبة بفعل الشيخوخة ، وهو يرتدي بدلة

فضفاضة من قماش التيسور وينتعل حذاءين عريضي البوزين ، ويمسك عكازا بيده المنقطة ببقع دقيقة بنية ، وطبطب على كتفي ، ثم انصرف بخطوات سريعة . في تلك اللحظة حين نهضت أيضا بغية الخروج عبر الغرفة المجاورة الى الشرفة دلفت هي الى الغرفة ، مرقت ثم اختفت ، بعد ان صعقتني بنشوة الاعجاب . خرجت الى الشرفة مذهولا : انها حسناء فعلا ! – وقفت فترة طويلة كما لو كنت أستجمع حبل أفكاري . وانتظرت قدومهما الى غرفة الطعام متحرقا شوقا ، لكن عندما سمعت حديثهما في غرفة الطعام من موضعي في الشرفة ، نزلت راكضا على حين غرة الى الحديقة ، – اذ استبد بي رعب ما ، اما حيالهما كلتيهما الاثنتين ، وكان قد ربطني باحداهما فعلا سرّ آسر ، واما حيال ناتالي بقدر أكبر ، وحيال مروقها آنذاك الذي صعقت به لدى مرآها مسرعة قبل نصف ساعة خلت . تمشيت في أرجاء الحديقة الكائنة شأنها شأن الضيعة كلها في منخفض النهر ، وفي نهاية المطاف تغلبت على نفسي ، ودخلت الغرفة مصطنعا البساطة ، والتقيت جراة صونيا المرحة ومزحة ناتالي الظريفة ، التي اندفعت نحوي ورمقتني مبتسمة من تحت رموشها الكحيلة بسواد عينيها الساطع والعجيب خاصة مع لون شعرها الذهبي :

– لقد التقينا سابقا !

ثم وقفنا على الشرفة ، متكئين على السياج

الحجري ، متحسسين حرارة الشمس على رؤوسنا الحاسرة بتلذذ لا يتحسسه المرء الا في الصيف ، وكانت ناتالي تقف الى جانبي ، اما صونيا فطفقت تغني ، محتضنة اياها متطلعة الى مكان ما ، وكأنها شاردة الفكر مرددة : «في ضجة الحفلة الراقصة صدف ان . . .» . ثم عدلت قامتها :

– حسنا ، لنستحم ! نحن أولا ، ثم أنت !

هرعت ناتالي لجلب المناشف ، أما صونيا فقد تلبثت وهمست لي :

– تفضل منذ الآن بالتظاهر بأنك وقعت في غرام ناتالي . والويل لك ، ان تبين انك لم تعد تحتاج الى التظاهر .

أوشكت ان أجيب بجسارة طروب ان نعم ، لم تعد حاجة للتظاهر ، اما هي فقد اضافت مسترقة النظر نحو الباب تقول هامسة :

– سآتي اليك بعد الغداء . . .

حين عادتا توجهت أنا الى منصة السباحة – ومضيت في البداية في درب طويل تنتصب على جانبيه أشجار بتولا ، ومن ثم عبر شتى الأشجار العتيقة النامية على ضفة النهر ، حيث كانت تفوح الأنسام حاملة رائحة النهر دافئة ، وتعيط غربان القيظ فوق قمم الأشجار ، مضيت وفكرت مرة أخرى بشعورين متناقضين تماما في ناتالي وصونيا ، وفي انني سأستحم في الماء ذاته الذي استحمتا فيه لتوه . . .

بعد الغداء ، ووسط كل تلك الاجواء السعيدة الخالية من الهدف والطليقة والهادئة الوديعة التي

تتراءى في الحديقة من النوافذ المفتوحة – السماء والخضراء والشمس – بعد فترة غداء طويلة قدم فيها حساء الاوكروشكا * والفراخ المشوية وتوت العليق مع القشدة – والتي قبعت خلالها متسمرا بمشاعر البهجة لوجود ناتالي ، وبانتظار تلك الساعة حين يعمّ السكون البيت كله ، بعد الغداء ، وصونيا (التي جاءت الى الغداء مزينة شعرها بوردة حمراء قانية مخملية) ، ستهرع اليّ خلسة من أجل مواصلة ما جرى بالامس ، لكن ليس على عجل وكيفما اتفق ، وفور ذلك اعتكفت في غرفتي ، واغلقت العريشات . اخذت أنتظرها ، مستلقيا على اريكة تركية ، مصغيا الى سكون الضيعة القائظ ، وزقزقة الطيور الفاترة بعد الظهر في الحديقة ، التي كان يفوح منها الهواء الحلو المفعم بروائح الزهور والأعشاب ، وفي رأسي تدور أفكار لم أجد حلولا لها : كيف سأحيا الآن في هذه الازدواجية – لقاءات غرامية سرية مع صونيا ، والى جانب ناتالي ، التي كان مجرد التفكير فيها يثير فيّ نشوة الهيام الطاهر ، والتطلع الجائح الى رؤيتها فقط بذلك الاعجاب البهيج الذي رنوت فيه منذ فترة وجيزة الى قدّها الممشوق الملتوي ، والى مرفقيها البضين المدببين اللذين كانت ترتكز بهما شبه واقفة على السياج الحجري القديم الساخن بحرارة الشمس .

* حساء بارد من شراب الكفاس واللحم والخضروات . المعرب .

اما صونيا فكانت تتكئ الى جانبها وتطوق كتفيها بساعدها ، بدت بردائها الدقيق الهفهاف المنزلي الطويل ، تشبه امرأة شابة تزوجت منذ عهد قريب ، اما ناتالي فكانت ترتدي تنورة كتانية وقميصاً مطرّزا اوكراني الطراز تراءى خلفهما كل كمال قوامها الفتي ، وبدت أشبه بصبية . ولقد كمنت أسمى آيات النشوة بالذات في انني حتى لم أكن لأتجرأ في خيالي على تقبيلها بالمشاعر ذاتها التي راودتني ليلة أمس حين قبلت صونيا ! وفي ردن القميص الخفيف الواسع المطرز في الكتفين بزخارف حمراء وزرقاء لاحت يدها الرفيعة التي كانت تغطيها شعيرات شقراء ، تطلعت نحوها وجال في خاطري : ما ستكون أحاسيسي لو تجرأت على لمسها بشفتي ! ولما شعرت بنظراتي وجهت نحوي بريق سواد عينيها ، وكل رأسها الخلاّب ، الذي تطوقه ضفيرة ملفوفة كبيرة . فابتعدت وعاجلت في خفض ناظري ورأيت ساقيها عبر طرف التنورة التي تخترقها اشعة الشمس ، ورسغيها الرفيعين القويين الاصيلين في الجوربين الرماديين الشفافين . . .

فتحت صونيا وقد ثبتت وردة في رأسها الباب ثم أغلقته ، وهتفت بصوت خافت : «ما هذا ، أكنت نائماً ؟ !» فانتفضت – كلا ، كلا . . وهل كان بوسعي النوم ! – أمسكت بيديها . – «اغلق الباب بالمفتاح . . .» وهرعت الى الباب ، بينما جلست هي على الاريكة مسبلة العينين – «هيا ، تعال اليّ»

– وعلى الفور فقدنا كل شعور بالحياء والعقل . أبان هذه اللحظات لم تبدر عنّا حتى كلمة واحدة تقريبا ، وسمحت هي بكل ملاحة جسدها الدافىء بتقبيلها في كل مكان – بتقبيلها فقط – واغمضت عينيها أكثر فأكثر ، وطفقت الحمرة تصبغ وجهها بقدر أكبر فأكبر . ومرة أخرى هددت بهمس وهي تنصرف وتعدل شعرها :

– اما بخصوص ناتالي فأكرر . . . الويل لك ان تجاوزت حد التظاهر . ان طبعي ليس وديعا كما يتراءى للناس !

كانت الوردة ملقية على الأرض . فأخفيتها في درج المنضدة ، وبحلول المساء صار لونها الاحمر المخملي خابيا وبنفسجيا .

٣

مضت حياتي في مجراها الظاهري المعهود ، لكن في قرارة نفسي لم أكن اعرف لحظة من الطمأنينة ، وما لبثت ان تعلقت بصونيا أكثر فأكثر ، وبالعادة الحلوة في اجراء لقاءات غرامية شبقة مضنية معها في الليالي – وصارت تاتي اليّ الآن في الهزيع الأول من الليل فقط ، حين يبسط النوم جناحيه على البيت كله – وفي الوقت ذاته كنت أتابع سرا ناتالي بعذاب ونشوة متزايدتين ، وكل حركة من حركاتها . مضت الأمور كلها بالصورة المعتادة في أيام الصيف : اللقاء صباحا ، والسباحة قبل الغداء ، وتناول

الغداء ، ثم يعتكف كل منا لنيل قسط من الراحة في غرفته ، وبعد ذلك التنزه في الحديقة ، وكانتا تنهمكان في أعمال التطريز جالستين في درب أشجار البتولا ، وترغمانني على قراءة رواية للكاتب غونتشاروف بصوت عال ، او كانتا تصنعان المربب في فسحة وارفة الظلال تحت أشجار البلوط ، بالقرب من البيت ، عن يمين الشرفة . وفي الساعة الخامسة يقدم الشاي في فسحة أخرى وارفة الظلال ، من جهة الشمال . وفي المساء نتنزه او نمارس لعبة الكروكيت في الفناء الفسيح أمام البيت أنا وناتالي ضد صونيا ، أم صونيا وناتالي ضدي ، وعند الغسق نتناول العشاء في غرفة الطعام . . . بعد العشاء يأوي الضابط العجوز الى مضجعه ، بينما نحن لانبرح الشرفة المظلمة ، ونتبادل انا وصونيا المزحات وندخن ، أما ناتالي فتجلس لائذة بالصمت . في نهاية المطاف تقول صونيا : «حان وقت النوم !» – فاتمنى لهما ليلة سعيدة وأنصرف الى غرفتي . كنت انتظر بارد اليدين تلك الساعة المشهودة ، حين يتدثر البيت كله بالعتمة ، ويلفه السكون المطبق بحيث تتناهى الى سمعي التكتكة المتواصلة ، وكأنها خيط لا ينقطع ، لساعة الجيب التي كانت على المنضدة الصغيرة بالقرب من رأسي تحت الشمعة المغطاة بالهباب ، وما أنفك أعجب وافزع : لِمَ عاقبني الرب مثل هذا العقاب الشديد ، ولم أعطاني دفعة واحدة حبيبتين ،

متباينتين غاية التباين ، وكلفت بهما هذا الكلف ، فاولعت هذا الولع المضني بفتنة ناتالي ، واغرمت بهذه اللذة الجسدية مع صونيا . لقد كنت أشعر باننا على وشك فقدان صبرنا على هذا الوصال المنقوص ، وساعتئذ سأجنّ تماما بانتظار لقاءاتنا الليلية ، وتحسسها فيما بعد آناء النهار كله . وكان هذا كله يجري وناتالي قريبة ! وبدأت صونيا تبدي الغيرة ، وفي بعض الأحيان تنفجر بالوعيد ، وفي الوقت ذاته كانت تقول لي أبان خلوتنا :

– أخشى اننا نتحدث بحضور ناتالي وراء المائدة بشيء من الكلفة يتجاوز الحد . أظن ان بابا أخذ يلاحظ بعض الأمور ، وناتالي أيضا ، أما المربية فهي طبعا واثقة كل الثقة من وجود غرام بيننا ، واحسبها تهمس بالنمائم في أذن بابا . لتكثر انت من الجلوس سوية مع ناتالي في الحديقة ، واقرأ لها تلك الرواية الثقيلة الظل «الجرف الساقط» * ، واذهب معها أحيانا للتنزه في الأمسيات . . . هذا فظيع ، فأنا الاحظ كيف تلتهمها بنظراتك البليدة اليها . وفي بعض الأحيان يتملكني المقت تجاهك ، واجدني مستعدة مثل الفلاحة اوداركا لأنشب

* رواية للكاتب الروسي غونتشاروف (١٨١٢ – ١٨٩١) . تقييم صونيا لها لا يوافق رأى المؤلف اذ كتب عام ١٩١٩ : «انها طويلة . . . ولكن المؤلف عبقري حقا» . **المعرب** .

أظافري في فروة رأسك ، لكن ما باليد من حيلة ، فما العمل ؟

لعل أفظع شيء ، كما بدا لي ، ان ناتالي بدأت اما بمعاناة الكرب واما بالغيظ ، وتحسس وجود أمر خفي ما يربطني بصونيا . فهي الصموتة اصلا ، غدت أكثر صمتا ، وسواء لعبت الكروكيت ام انهمكت في التطريز تجدها تقوم بهذا بهمّة مفرطة دون الاهتمام بما حواليها . وبدا كما لو اننا اعتدنا على أحدنا الآخر ، وجمعت ما بيننا أواصر المودة ، لكن حدث مرة ان قلت مازحا ، عندما كنت جالسا معها في غرفة الاستقبال ، حيث كانت تقلب صفحات النوتات ، شبه مستلقية على الكنبة :

– لقد سمعت يا ناتالي اننا ربما سنصبح أقارب .

رمقتني بحدة :

– كيف هذا ؟

– ابن عمي ، اليكسي نيكولايفتش ميشيرسكي . . .

لم تسمح لي باكمال عبارتي :

– آه ، تلك هي القضية ! أرجو المعذرة ، ان ابن عمك هذا البدين ، الذي يغمره كله الشعر الأسود اللامع ، العملاق الألثغ ذو الفم الأحمر المبلل دوما . . . ومن أعطاك الحق في طرق مثل هذه الأحاديث معي ؟

فزعت . ثم طفقت أقول وانا أمسك بيدها :

– ناتالي ، ناتالي ، مالك صارمة هكذا معي ؟

حتى المزاح معـــك ممنوع ! أرجـــو المغفرة ، سامحيني . . .

لم تسحب يدها وقالت :

– أنا لا أفهمك . . ولا أعرفك حتى الآن . لكن يكفي الكلام عن هذا . . .

وبغية الا أرى حذاءي التنس الابيضين في قدميها اللذين يجذبـــان انظاري بصورة ممضة ، وقـــد رفعتهما على الكنبة بشكل مائل ، نهضت وخرجت الى الشرفة . زحفت سحابة من وراء الحديقة ، وخمـــد الهواء ، واجتاح الحديقة لغط صيفي خفيف متزايدا ومقتربا أكثر فأكثر ، وهبت ريح سهبية ممطـــرة ، حلوة العبير ، وعلى حيـــــن غرة تملكتني بحلاوة وانطلاق الشباب سعادة لا سبب لها وموافقة عـــلى كل شيء ، مما جعلني أهتف :

– ناتالي ، لحظة رجاء !

فدنت من عتبة باب الشرفة :

– ماذا ؟

– خذي نفسا ، أية ريح ، بأية بهجة يمكن ان يمضي كل شيء في الحياة !

لاذت بالصمت برهة .

– نعم .

– ناتالي ، لكم أنت غير ودودة معي ! هل أنت زعلانة مني ؟

فهزّت كتفيها بكبرياء :

– لماذا أزعل منك ؟

في المساء استلقينا في المقاعد المضفورة عـــلى الشرفة وسط العتمة والتزمنا الصمت ثلاثتنـــا جميعا ، كانت النجـــوم تومض فقط ها هنا وهناك بين السحائب القاتمة ، وهبّت أنسام خفيفـة فاترة من جهة النهر ، ونقنقت هناك الضفادع كما لو كانت غافية . وقالت صونيا وهي تحبس تثاؤبها :

– يستبد بي النعاس لأن المطر سيهطل على ما يظهر . قالت المربية ان الهلال طلع ، و«سيغتسل» خلال أسبوع تقريبا . – وبعد هنيهة أضافـــت تقول : – ناتالي ، ما رأيك بالحب الأول ؟

ردّت ناتالي من الظلام :

– لديّ قناعة أكيدة هي بـــأن ثمة اختـلاف كبير بين الحب الأول لدى الفتى والفتاة .

استغرقت صونيا في التأملات :

– الفتيات يختلفن أيضا . . .

ونهضت من مقعدها بحزم :

– لا ، يجب النوم ، النوم !

فقالت ناتالى :

– انا ساغفو قليلا هنا ، الليل يروق لى .

ثم همست لدى سماعى خطوات أقدام صونيـــا مبتعدة :

– لقد كان حديثنا قبل هذا غير لطيف اليوم !

فأجابت :

– بلى ، بلى . . . لم يكن حديثنا لطيفا . . .

فى اليوم التالى بدا لقاؤنا وكأن كل شيء على ما

يرام وقد هطل مطر هادئ ليلا ، لكن الجو غدا صاحيا في الضحى ، وبعد الظهر ساد الجفاف والقيظ . وقبيل تناول الشاى فى الساعة الخامسة حين جلست صونيا فى غرفة مكتب الضابط العجوز لانجاز بعض الحسابات الخاصة بالشؤون المنزلية ، جلسنا ، انا وناتالى ، فى درب أشجار البتولا ، حاولنا مواصلة قراءة رواية «الجرف الساقط» بصوت عال . انهمكت هي منحنية فى حياكة شيء ، ويدها اليمنى تومض أمامى بحركات سريعة ، بينما كنت أقرأ وأرمق بين الفينة والفينة بكآبة لذيذة يدها اليسرى ، المنبجسة من الردن ، والشعيرات الشقراء الناميـة فـى أعلى المعصم ، ومثل هذه الشعيرات تنمو فى القذال حيث تلتقى الرقبة بالكتفين ، وواصلت القراءة بسرعة متزايدة دون ان أفقه كلمة . فى نهاية المطاف قلت :

– الآن حان دورك للقراءة . . .

انتصبت ، ولاحت تحت البلوزة الرقيقة نقطتان ترسمان نتوئى نهديهـا ، ووضعت اشغال الابرة جانبا ، ثم انحنت مرة أخرى وخفضت رأسها الغريب والمليح ، وابانت لى قذالها وبداية كتفها ، ووضعت الكتاب فى حضنها ومضت تقرأ بصوت حثيث غير واثق . رنوت الى يديها ، وركبتيها تحت الكتاب ، رازحا تحت وطأة لواعج الحب نحوها وترجيعـة صوتها . زقزقت طيور الصفّارية فى لغط متقطع ابان طيرانها فى مواضع متباينة من الحديقة قبل ان يدلهم الظلام ، وتدلى وتعلق قبالتنا فى الأعالى نقّار

خشب رمادى مشوب بالحمرة ، ملتصقـا بجذع صنوبرة ، تنمو وحيدة فى الدرب ، وسط أشجار البتولا . . .

– ناتالى ما أجمل لون شعرك ! والضفيرة الأغمق لونا وكأنها الذرة الناضجة . . .

بينما واصلت هى القراءة .

– ناتالى ، نقار خشب ، أنظرى !

تطلعت نحو الأعلى :

– نعم ، نعم ، لقد رأيته من قبل ، رأيته اليوم وأمس ايضا . . . لا تلهنى عن القراءة .

لذتُ بالصمت . ثم اردفت :

– أنظرى ، لكم يشبه هذا الديدان الرمادية اليابسة .

– ماذا ، اين ؟

أشرت لها الى المصطبة بيننـا ، الى ذرق جاف متكلّس :

– حقا ؟

وامسكت وضغطت على يدها متمتما وضاحكا من السعادة :

– ناتالى ، ناتالى !

رنت الىّ طويلا وبهدوء ، ثم قالت :

– لكنك تحب صونيا !

غدوت فى حمرة القرمز ، مثل محتال ضبط متلبسا بالجرم ، لكننى عاجلت متحمسـا بانكار علاقتى بصونيا ، حتى ان شفتيها انفرجتا قليلا من الدهشة :

– هذا غير صحيح ؟

– غير صحيح ، غير صحيح ! اننى احبها كثيرا ، ولكن كاخت ، فنحن نعرف احدنا الآخر منذ الطفولة !

٤

فى اليوم التالى لم تبارح غرفتها صباحا ولا فى موعد الغداء – صونيا ، ماذا حدث لناتالى ؟ – سأل الضابط العجوز . فردت صونيا بضحكة خبيثة :

– ترقد منذ الصباح فى قميص النوم ، دون ان تمشط شعرها ، ويبدو على وجهها انها انتحبت ، وحين جاؤوا اليها بالقهوة لم تشرب القدح كله . . . ماذا حدث ؟ «احسّ بوجع فى الرأس» . فهل وقعت فى الغرام ؟

ألمع الضابط العجوز مؤيدا ، وهو يرمقنى ، ولكن مع ذلك هزّ رأسه هزة انكار عصبية :

– بكل بساطة .

لم تخرج ناتالى الا فى موعد تقديم الشاى فى المساء ، لكنها دلفت الى الشرفة بخفة وحيوية ، وابتسمت لى بلطف ، وكأنها مذنبة لحد ما ، مما أثارت دهشتى بهذه الحيوية والابتسامة وبشىء جديد من التبرج فى زينتها : إذ جمعت شعرها مشدودا ، وفى المقدمة مجعدا قليلا ، فقد امتدت اليه مكواة الشعر لتجعله متموجا ، وارتدت فستانا آخر ، من قماش أخضر ما ، ومن قطعة واحدة ، بسيطا جدا ،

وانيقا جدا بالاخص عند الخصر . وكانت تنتعل حذاءين أسودين بكعبين عاليين – ذهلت فى دخيلة نفسى من النشوة الجديدة . كنت جالسا فى الشرفة اطالع «الوقائع التاريخية» اذ اعطانى الضابط العجوز بضعة مجلدات منها ، حين دخلت فجأة بكل هذه الحيوية وببشاشة مصحوبة بشىء من الارتياح وقالت :

– مساء الخير . لنذهب لشرب الشاى . اليوم سأجلس انا عند السماور ، لان صونيا متوعكة .

– كيف ؟ تارة انت ، وتارة هى ؟

– لقد اصابنى وجع فى الرأس فقط ، صباحا . يخجلنى القول اننى الآن فقط اعتنيت بهندامى . . .

– ما أروع هذا الفستان الأخضر مع هاتين العينين وشعرك ! – قلت ذلك . وبغتة سألت وقد اصطبغت بالحمرة . – هل صدقتنى يوم أمس ؟

فاحمرّ وجهها أيضا ، حمرة وردية خفيفة ، واشاحت بوجهها :

– ليس على الفور ، وليس تماما . ثم أدركت على حين غرة اننى لا أمتلك المسوغات لعدم تصديقك . . . وفى واقع الامر ، ما علاقتى بالعواطف التى تربطك بصونيا ؟ هيا بنا . . .

فى موعد العشاء بارحت صونيا غرفتها ايضا واسترقتْ لحظة لكى تقول لى :

– لقد مرضت بالعادة . وهذا الوجع يسرى لدىّ إليما جدا دائما . وأنا أرقد طريحة الفراش نحو

خمسة أيام . اليوم بوسعى الخروج ، ولكن غدا لن استطيع ذلك . ليكن سلوكك بدونى سلوك رجل عاقل . انا مولهة بحبك ، وغيورة أشد الغيرة .

– هل يعقل انك لن تاتى الىّ الليلة ؟

– انت أحمق !

لقد كان ذلك من مسرات حياتى ومساءاتها : خمسة أيام من الحرية الكاملة مع ناتالى ، وخمسة أيام لا ارى فيها صونيا فى غرفتى ليلا !

تولت ناتالى على مدى أسبوع تدبير شؤون المنزل ، توجيه الأوامر الى الجميع ، مرتدية صديرية بيضاء ، ساعية عبر الفناء الى جناح الخدم ، ولم يحدث ان رايتها بعد بهيئة امراة عملية كحالها آنذاك ، وبدا ان الاضطلاع بدور نائبة صونيا وربة البيت الحريصة يجلب لها مسرة كبيرة ، وانها كانت كما لو تستجم من متابعة احاديثنا – انا وصونيا – وتناظرنا سرا .

طوال هذه الأيام ، وبعد ان كانت فى البداية تعانى فى اثناء الغداء من الهواجس فيما اذا كان كل شىء على ما يرام ، ثم من الارتياح بان كل شىء على ما يرام ، وان الطباخ العجوز والوصيفة الاوكرانية خريستيا كانا يحملان الطعام ويقدمانه فى الوقت المناسب دون اثارة انزعاج الضابط العجوز ، كانت تعود بعد الغداء الى غرفة صونيا ، حيث لم يسمح لى بالدخول ، وتبقى لديها حتى موعد تقديم الشاى فى المساء ، وبعد العشاء تجلس معها المساء باكمله . وبدا واضحا انها كانت تتفادى الانفراد بى ، وكنت

ارتبك واستأم واعانى من الوحدة . لِمَ اصبحت لطيفة معى بينما تتجنبنى ؟

هل تخاف صونيا ام نفسها ، ومشاعرها تجاهى ؟ واستبدت بى رغبة شديدة فى الاعتقاد بانها تخاف نفسها ، واخذت اتلذذ بالحلم الدفين : فاننى لست مرتبطا بصونيا الى ابد الابدين ، ولن ابقى ضيفا هنا الى الأبد ، وكذلك حال ناتالى ، وبعد اسبوع او اسبوعين لابد لى على كل حال من الرحيل – وانذاك ستحل نهاية عذاباتى . . . وسأجد الذريعة للذهاب الى أسرة ستانكيفيتش والتعرف عليها ، حالما تعود ناتالى الى البيت . . . ان الرحيل بعيدا عن صونيا ، وكذلك بالخداع ايضا ، وهذا الحلم المكتوم بناتالى ، والامل فى كسب قلبها ويدها ، سيكون مؤلما جدا طبعا ، فهل اننى اتبادل القبلات مع صونيا ارضاءا للشهوات فقط ، وهل اننى لا أضمر الحب لها ؟ – لكن ما العمل ، لا مناص من وقوع هذا ان عاجلا او اجلا . . . ما برحت افكر بذلك بلا توقف ، ويعتمل فى نفسى الاضطراب بلا توقف ، بانتظار أمر ما ، وسعيت لدى لقاء ناتالى ، الى ان يكون سلوكى متحفظا ولطيفا اكثر – الصبر والصبر الى حين من الزمن .

طفقت اعانى من الضجر والشوق ، وكما لو حدث ذلك عن قصد فقد هطل المطر نحو ثلاثة أيام ، تساقط برتابة ، وراح يطرق السقف بالاف البراثن والاذرع ، واحلولك جو البيت ، ورقد الذباب على

السقف والمصباح فى غرفة الطعام ، لكننى تجمّلت بالصبر ، وأحيانا كنت أجلس الساعات الطوال فى غرفة مكتب الضابط العجوز ، مصغيـــا الى شتى احاديثه . . .

عاودت صونيا الخروج من مخدعها ، بادئ ذى بدء مرتدية الروب ، لفترة ساعـــة او ساعتين ، وعلى ثغرها ابتسامة فاترة كما لو كانت تعتذر لضعفهـــا ووهنها ، فترقد فى المقعد المطوى على الشرفـــة ، ولفزعى كانت تتحدث معى بنزق وبلطف مفرط ، دون خجل من حضور ناتالى :

– اجلس الى جانبى ، فيتيـــك ، اشعر بالالم ، بالكآبة ، بالحزن ، حدثنى شيئا ما مضحكا . . . ان الهلال قد «اغتسل» حقا ، يبدو انه قد كف عن الاغتسال ، تحسّن الجو وبدأ يفوح عبير الزهور اللذيذ . . .

كنت اجيبها ، منزعجا فى دخيلة نفسى :

– ما دامت الزهور ذات عبير نفاذ ، فمعنى ذلك انه سيغتسل مرة اخرى .

فلطمتنى على يدى :

– لاتجسر على معارضة فتاة مريضة !

فى نهاية الأمر اخذت تخرج لترتاد مائدة الغداء ولاحتساء الشاى فى الأماسى ، الا انها مابرحت شاحبة ، وكانت تعطى الأمر باعداد مقعد وثير من اجلها عند مائدة الطعام . الا انها ما كانت تخرج بعد لتناول العشاء وللجلوس فى الشرفة بعد العشاء . واتفق مرة ان

قالت لى ناتالى بعد شاى المساء ، حين اوت صونيا الى مخدعها ، وحملت خريستيا السماور الى المطبخ :

– صونيا غاضبة لكونى اجلس بالقرب منها طوال الوقت ، وأنت تزجى الوقت وحيداً على الدوام . انها لم تبرأ تماما بعد ، بينما انت تستوحش بدونها .

فاجبت :

– اننى فى وحشة اليك وحدك ، حينما تكونين غائبة عنى . . .

تغيّرت سحنتها ، لكنهـــا تمالكت نفسهـــا ، وابتسمت جاهدة :

– لكننا اتفقنا على عدم الشجار اكثر . . . الافضل ان تستمع الى ما اقول : لقـــد لبثت فى البيت فترة طويلة ، فاذهب للتنزه حتى موعد العشاء وبعد ذلك ساجلس معك فى الحديقة ، ان التنبؤات بصدد الهلال لم تتحقق ، والحمد لله ، وستكون الليلة رائعة . . .

– ان صونيا تشفق علىّ ، وانت لا تشفقين علىّ البتة ؟

– اشفق بالغ الشفقة ، – ردت واطلقت ضحكة مرتبكة ، واضعة اوانى الشاى فوق الصينية – لكن ، لله الحمد ، ان صونيا تماثلت للشفاء وقريبا لن تحس بالوحشة . . .

لدى قولها «ساجلس معك فى الحديقـــة» انقبض قلبى بلذة وبترقب مبهم ، لكننى فكرت على التو : لا ، انها كلمة ملاطفـــة فقط ! ومن ثم مضيت الى غرفتى ورقدت ردحا طويلا من الزمن محدقـــا فى

السقف . وفى نهايـــة المطاف نهضت ، واخذت من الدهليز القبعة وعصا ما ، وغادرت الضيعة على غير هدى ، نحو الطريق العريضة الممتدة بين الضيعة والقرية الاوكرانية الكائنة اعلى منها قليلا فوق رابية قفراء فى السهوب . وتقود الطريـــق الى الحقول الخاوية فى الامسية الساجية . انبجست التلال فى كل مكان ، بيد انها مترامية الاطراف ، والرؤية جيدة فى اقاصيها البعيدة . وعن شمالى كان يقوم منخفض النهر ، ووراءه تنداح حقول خاوية ايضا متعالية قليلا باتجاه الافق ، هناك غربت الشمس لتوها ، وتوهج نور الاصيل . وعن يمينى انعكس نوره الاحمر فى الجهة المقابلة على صف مستقيم من الاكواخ البيضاء المتماثلة ، كما لو كانت قرية ميتة ، ورحت انظر بكآبة تارة الى الاصيل وتارة اليها . عندما قفلت راجعا كانت الريح تلفح وجهى تارة دافئـــة وتارة ساخنة تقريبا ، واضاء فى السماء الهلال الفتى ، الذى ما كان يعد باى خير : اذ كان يلمع احد نصفيه لكن النصف الاخر كان يرى ايضا مثل شبكة العنكبوت ، بينما بدا كله اشبه بثمرة البلوط .

عند العشاء ، وقد تناولناه فى هذه المرة فى الحديقة ايضا ، فقد كان الجو قائظا فى البيت ، قلت للضابط العجوز :

– ما رايـك بالطقس يا خالى ؟ اظن ان المطر سيهطل غدا .

– لماذا يا صاحبى ؟

– لقد تنزهت منذ قليـــل فى البرية ، وفكرت بحزن باننى سافارقكم عما قريب . . .

– لماذا ؟

ورفعت ناتالى بصرها نحوى ايضا متسائلة :

– هل تعتزم الرحيل ؟

فضحكت بتصنع :

– اننى لا استطيع . . .

هزّ الضابط العجوز رأسه بحيوية على الاخص ، وهذه المرة كانت هزته عن حق :

– هراء ، هراء ! بابا وماما يمكن ان يصبرا تماما على فراقك . لن أسمح لك بالرحيل قبل اسبوعين . كما انها ايضا لن تسمح لك .

فقالت ناتالى :

– ليس لدى أية حقوق على فيتالى بتروفيتش .

وهتفت شاكيا :

– ايها الخال ، امنـــع ناتالى من مخاطبتى بهذه الصورة !

صفق الضابط العجوز بيده على المائدة :

– انا امنعك . وكفى ثرثرة عن رحيلك . امـــا بصدد المطر فانت على حق ، من الممكن تمامـــا ان يفسد الطقس مرة اخرى . فقلت :

– كان الجو صافيا ورائقا جدا فى البرية . كما ان القمر صاف جدا الى منتصفه ، ويشبـــه ثمرة بلوط ، والرياح تهب من الجنوب . اترون هناك كيف تلوح بعض السحب . . .

التفت الضابط العجوز ، وتطلع الى الحديقة ، حيث كان ضوء القمر يتألق تارة ويخبو تارة أخرى :

– ستصبح ، يا فيتالى ، بروسا * آخر . . .

فى الساعة العاشرة ولجت الى الشرفة ، حيث بقيت جالسا فى انتظارها كئيبا كاسف البال مفكرا : هذا كله هراء ، هيهات لو كانت لديها عواطف ما تجاهى ، فانها غير جادة اطلاقا ، وذات نزوات ، ومتقلبة . . . بدا الهلال صافيا ، بلا شبكة العنكبوت ، يتلألا أعلى فأعلى وأكثر سطوعا فى زحمة السحائب المتلبدة ، البيضاء المغبشة ، التى غطت السماء بجلال . وحين طلع من ورائها بنصفه الأبيض الشبيه بصورة جانبية لوجه انسان ، متألق وشاحب شحوب الموتى ، انار ضوؤه الفوسفورى وغمر كل شىء . وبغتة التفت ورائى فقد داهمنى شعور بوجود احد ما . . . كانت ناتالى تقف عند العتبة ، ويداها وراء ظهرها ، وتتطلع نحوى صامتة . نهضت من مكانى فسألتنى بلا مبالاة :

– أما زلت مستيقظا ؟

– لقد قلت لى . . .

– أرجو المعذرة ، اذ بلغ بىّ الاعياء اقصاه اليوم . لنتمش فى الدرب ، وبعد ذلك سأذهب للنوم .

تبعتها ، وتوقفت على درجات الشرفة ، متطلعا الى

* بروس (١٦٧٠ – ١٧٣٥) – رجل دولة عاش فى عهد بطرس الاكبر ، وعالم، ومترجم للكتب الاجنبية ، وواضع تقويم عام ١٧٠٩ الشهير بروسيا . المعرب .

قمم الأشجار ، التى تصاعدت من ورائها سحائب ثقال من الغيوم ، مترجرجة ، ومرقت منها سهام برق دون سماع هدير الرعد . ثم دلفت تحت السقيفة الطويلة والشفافة لدرب أشجار البتولا ، حيث كان يسود البرش من بقع الضوء والظل . لحقت بها وقلت لمجرد التحدث بشىء ما :

– ما أبهى منظر أشجار البتولا من بعيد ، لا يوجد شىء اكثر سحرا وروعة من المجئ الى الغابة فى ليلة مقمرة ، وهذا التألق الأبيض الحريرى لجذوع البتولا البادية فى أعماقها . . .

توقفت ورنت الىّ عن كثب بعينيها الفاحمتين وقد غدتا اكثر قتاما فى الغسق .

– هل حقا أنت مسافر ؟

– نعم ، حان الوقت .

– لكن لم هكذا فجأة وبهذه السرعة ؟ أنا لا اخفى عنك : لقد صعقت اليوم حين قلت بانك سترحل .

– ناتالى ، هل يمكننى المجئ للتعرف الى أهلك حين تعودين الى البيت ؟

لاذتْ بالصمت . فأخذت يديها ولثمت اليمنى وقد انحبست أنفاسى .

– ناتالى . . .

– نعم ، نعم ، أنا أحبك – قالت ذلك بسرعة وبلا تعبير ، ومضت آيبة نحو البيت . بينما تبعتها كالمسحور .

– ارحل غدا فورا – قالت وهى ماشية دون ان تلتفت – وسأعود الى البيت بعد بضعة أيام .

٥

حين دخلت غرفتى جلست على الأريكة دون اشعال الشمعة ، جمدت متسمرا فى مكانى ، حريصا على ذلك الأمر الرائع والرهيب الذى وقع فى حياتى على حين غرة وبلا انتظار . جلست فاقدا كل تصور عن الزمان والمكان . كانت الغرفة والحديقة قد غاصتا فى الحلكة الناجمة عن السحب ، وساد الحديقة وراء النوافذ المفتوحة لغط وحفيف ، وكان غالبا ما ينيرنى بضوء يزداد سطوعا اللهيب الاخضر المشوب بالزرقة الذى كان ينطلق بسرعة ، ومن ثم يختفى فى اللحظة ذاتها . وازدادت شيئا فشيئا سرعة وشدة هذا الضوء الذى لا يصحبه الهزيم . ثم اضاء الغرفة فجأة نور حتى بان كل شىء فيها بصورة لا يحتملها العقل ، وهبت علىّ ريح نضرة ، وضجت الحديقة مضطربة كما لو اجتاحها الفزع : ها هى ذا تشتعل السماء والأرض بسعير ! قفزت من مكانى وأغلقت النوافذ الواحدة تلو الاخرى بعد جهد جهيد ، متشبثا باطرها ، مغالبا الريح التى تقاومنى ، وهرعت على رؤوس أصابعى مهرولا فى الطرقة المظلمة الى غرفة الطعام : لقد بدا ان ما يهمنى ساعتئذ ليس النوافذ المفتوحة فى غرفتى الطعام والاستقبال ، حيث كان ثمة احتمال

بان تحطم العاصفة زجاج النوافذ ، لكننى هرعت مع ذلك ، وحتى بهمّة كبيرة . لقد ظهر ان جميع النوافذ فى غرفتى الطعام والاستقبال موصدة ، ورأيت هذا فى الوهج الأخضر المائل للزرقة الذى كان فى تلاوينه وتألقه يبدو شيئا ما سماويا حقا ، ينكشف دفعة واحدة وفى كل مكان ، كما لو كان عيونا سريعة اللحظ ، ويجعل كافة أطر النوافذ هائلة ومرئية بكل تفاصيل شبكاتها ، من ثم يغمر الكون بظلمة قاتمة فورا ، مخلفا للحظة فى البصر المنبهر آثار شىء صفيحى أحمر . لما دلفت الى غرفتى مسرعا ، كما لو كنت أخشى حدوث شىء ما فى غيابى ، سمعت فى الظلمة همسة غاضبة :

– أين كنت ؟ أنا خائفة ، اشعل النور بسرعة . . .

فرشقت عود الكبريت ورأيت صونيا جالسة على الاريكة ، بقميص النوم وحده ، وتنتعل بابوجين ، عارية القدمين ، وقالت بعجلة من امرها :

– لكن . . لا ، لا حاجة . تعال اليّ بسرعة ، احتضنى فأنا خائفة . . .

جلست طائعا واحتضنت كتفيها الباردتين . فهمست :

– هيا قبّلنى ، قبلنى ، خذنى كلى ، فلم التق بك على مدى أسبوع كامل !

ودفعتنى بقوة وطرحتنى معها على وسادة الاريكة .

فى اللحظة ذاتها انبجست ناتالى عند عتبة باب الغرفة المفتوحة مرتدية الروب حاملة شمعة بيدها .

شاهدتنا فورا ، ومع هذا صرخت بلا وعى :

– صونيا ، اين انت ؟ انا خائفة جدا . . .

واختفت على الفور . فاندفعت صونيا فى أعقابها .

٦

بعد مضى عام تزوجتْ ميشيرسكى . وجرت مراسيم عقد قرانها فى ضيعته بلاجوداتنويه ، فى كنيسة خالية من الضيوف . ولم تتلق الدعوة لحضور الزفاف لا نحن ولا غيرنا من أقارب ومعارف العروسين . ولم يقم العروسان بالزيارات المعهودة بعد الزفاف ، بل سافرا فورا الى القرم .

فى يناير من العام التالى ، فى عيد تاتيانا • أقيمت حفلة بالو طلابية فى نادى النبلاء بمدينة فورونيج . وكنت آنذاك طالبا فى موسكو أمضى أيام عطلة عيد الميلاد عند أهلى فى القرية . فى تلك الأمسية توجهت الى فورونيج . وقد وصل القطار ابيض كله ، وتصاعدت منه ندف الثلج بسبب العاصفة . وفى الطريق من المحطة الى المدينة ، وبينما كان الحوذى ينطلق بى فى الزحافة الى فندق دفوريانسكايا ، ما كانت ترى الا بعد لأى فوانيس

• عيد الطلاب الروس فى روسيا ما قبل الثورة . يصادف فى ١٢ (٢٥ يناير) – يوم القديسة تاتيانا . **المعرب .**

الشارع بأنوارها التى تومض عبر العاصفة الثلجية . لكن بعد أيامى فى القرية أثارت لدى هذه العاصفة الثلجية وهذه الانوار فى المدينة شتى الانفعالات ، ووعدتنى باقتراب متعة ولوج الغرفة الدافئة ، والدافئة جدا ، فى فندق مركز المقاطعة العتيق ، وطلب السماور والبدء بتبديل ملابسى والاستعداد لحفلة البالو التى ستتواصل الليل كله ، والسكر مع الطلاب حتى مطلع الفجر . خلال تلك الفترة التى انصرمت منذ الليلة الرهيبة فى بيت تشيركاسوف ، ومن ثم زواجها ، ثبت الى رشدى شيئا فشيئا ، وعلى أى حال اعتدت وضع الانسان المريض النفس الذى كنته فى سرّى ، اما ظاهريا فقد عشت مثل الجميع .

عندما وصلت كانت الحفلة قد بدأت لتوها . لكن غصّت بالوافدين اليها سلالم المدخل الرئيسي والبسطة فوقها ، وصدحت من القاعة الرئيسية ذات الشرفات الخاصة بالموسيقيين الالحان الهادرة للاوركسترا العسكرية ، التى تدوىّ بايقاعات الفالس الحزينة والمهيبة . صعدت البسطة ، بعد ان استنشقت لتوه الانسام النقية فى الزمهرير ، مرتديا بزّة جديدة ، ولهذا شققت طريقى وسط الزحام بأدب جمّ فوق السجاد الأحمر على السلالم . فوجدت نفسى فى الحشد المكتظ الساخن المتجمهر أمام باب القاعة ، ولسبب ما واصلت المضى أبعد بالحاح بالغ حتى ان الناس اعتقدوا كما يبدو اننى مدير الحفلة أسعى الى القاعة لاداء أمر عاجل . وفى نهاية

المطاف بلغت الارب ، وتوقفت عند العتبة ، مصغيا الى صداح وهدير الاوركسترا فوق رأسى مباشرة ، متطلعا الى اللمعان المتموج للثريات والى عشرات أزواج الراقصين ينسابون تحتها بحركات متباينة مع الحان الفالس ، وبغتة تراجعت متقهقرا : اذ برز على حين غرة وسط هذا الحشد الدائر زوج من الراقصين ، ينطلق بنقلات سريعة وخفيفة بين الاخرين مقتربا منى أكثر فأكثر . تراجعت الى الوراء ، ملاحظا اياه محدودبا قليلا فى الرقص ، ضخم الجثة ، متين البنيان ، أسود كله ، بشعره الأسود اللامع وببدلته الفراك ، خفيف الحركة ، تلك الخفة التى يبديها أبان الرقص بعض الناس ذوى الجثث الثقيلة . اما هى فبدت عالية الهامة جدا فى تسريحة الشعر العالية الاحتفالية ، وفى الفستان الأبيض الاحتفالى ، والحذاءين المذهبين الرشيقين ، كانت تدور متدلية الراس قليلا بعيدا عن رفيقها فى الرقص ، مسبلة العينين ، واضعة على كتفه ذراعها فى قفاز أبيض طويل يبلغ المرفق بانثناءة تجعل الذراع شبيهة بعنق طائر التم . وللحظة رمقتنى أهدابها السوداء بنظرات مباشرة الىّ ، وتلألأ سواد مقلتيها قريبا جدا منى ، لكنه ادارها بحدة بهمة رجل ضخم منزلقا بخفة على بوزى حذاءيه اللامعين ، وانفرجت شفتاها عن زفرة لدى الانعطاف ، ولمع طرف فستانها ببريق فضى ، ثم ابتعدا قافلين من حيث جاءا بنقلات راقصة . عدت مرة أخرى الى زحمة حشد الواقفين على البسطة ،

وخرجت من الزحام ، ووقفت . . . فى الباب المفتوح المقابل لى من الجانب ، والمؤدى الى القاعة التى كانت ما تزال خالية وباردة تماما ، بدت طالبتان فى رداءين اوكرانيين ، تقفان فى الانتظار وراء منصة بوفيه عليها قنانى الشمبانيا ، – شقراء مليحة وحسناء قوزاقية نحيفة سمراء المحيا ، تكاد تعلو هامتها بمقدار الضعفين على زميلتها . دلفت الى القاعة ومددت محييا ورقة بنكنوت من فئة مائة روبل ، فاصطدمتا برأسيهما لدى الانحناء وانتشلتا من تحت المنصة ، من دلو الثلج ، قنينة ثقيلة وتناظرتا مرتبكتين – فلم تكن ثمة قنانى مفتوحة . دلفت الى ما وراء المنصة وبعد لحظة فتحت سدادة القنينة بشطارة ، فانطلقت بفرقعة . ثم عرضت عليهما بمرح احتساء قدح معى – gaudeamus igitur • وشربت الباقى لوحدى القدح تلو الآخر . فى البداية تطلعتا الىّ باندهاش ، ثم بشىء من الشفقة :

– اوى ، أنت شاحب الوجه أصلا !

افرغت القنينة ورحلت على الفور . وفى الفندق طلبت قنينة من الكونياك القوقازى ، وطفقت اجرعه باقداح الشاى رجاة ان أقضى بنوبة قلبية .

انصرمت فترة عام ونصف عام آخر . وحدث فى أواخر مايو حين جئت من موسكو الى أهلى مرة أخرى ان جلب رسول خاص من المحطة برقية منها مرسلة

• هيا لنمرح (باللاتينية) .

من بلاجوداتنويه : «توفى صباح اليوم اليكسى نيكولايفتش بالسكتة الدماغية» . رسم أبى علامة الصليب على صدره وقال : « – له ملكوت السموات . يالللفظاعة ! ليغفر لى الرب ، اننى لم أكن له المودّة أبدا ، ومع ذلك فهذا شىء فظيع . فهو لم يبلغ سن الأربعين بعد . وأسفى الشديد عليها أيضا – أرملة فى مقتبل العمر ، مع طفل صغير . . . اننى لم أرها أبدا ، فقد كان ظريفا لحد انه لم يكلّف نفسه عناء المجىء بها الىّ ولو مرة واحدة . لكن يقال انها حسناء فاتنة . فما العمل الآن ؟ طبعا لا أستطيع لا أنا ولا ماما ، وقد تقدمت بنا السن ، تحمل وعثاء السفر لمسافة مائة وخمسين فرسخا . عليك ان تسافر أنت» .

وما كنت لأستطيع الرفض ، – ولأى سبب يمكننى ان أرفض ؟ كما اننى ماكنت لاستطيع الرفض فى شبه الجنون الذى استبد بى بغتة لهذا الخبر المفاجىء . كنت أعرف شيئا واحدا : اننى سأراها ! وذريعة اللقاء فظيعة ، بيد انها مشروعة .

بعثنا برقية جوابية ، وفى اليوم التالى ، وعند الأصيل فى مساء يوم من شهر مايو نقلتنى من المحطة الخيول ، المرسلة من بلاجوداتنويه ، الى الضيعة . ولدى اقترابى منها فوق قمم الروابى ، وبمحاذاة المروج التى تغمرها مياه الفيضان ، رأيت من بعيد الجانب الغربى من البيت المواجه للغسق ، الذى ما فتىء يطل بنوره ، وقد اغلقت كافة نوافذ

القاعة فيه . جفلت حين دارت فى ذهنى فكرة رهيبة : كان يرقد خلفها «هو» وتوجد «هى» هناك !

فى الفناء الذى غطته الحشائش الريانة قرب عنبر العربات رنّت جلاجل عربتى ترويكا ما . لكن المكان قد خلا من البشر باستثناء الحوذيين الجالسين فى مقعديهما فى العربتين ، – فقد وقف الوافدون وخدم البيت داخله لحضور مراسيم التابين . وساد فى كل المكان هدوء الأصيل فى الريف أبان شهر مايو ، ونقاوة الربيع ، ونضارة وحداثة كل شىء – هواء البرية والنهر ، وتلك الحشائش الريانة الكثيفة فى الفناء ، والحديقة المزهرة الكثيفة الزاحفة نحو البيت من الخلف ومن الناحية الجنوبية ، اما على السطحة الامامية الواطئة ، عند الابواب المفتوحة على مصراعيها ، فقد كان ينتصب مائلا على الجدار غطاء كبير أصفر أملس للنعش . وفى البرودة الخفيفة لنسيم المساء فاحت الرائحة النفاذة الحلوة لزهور أشجار الكمثرى ، التى بدت بيضاء حليبية كثيفة فى القسم الجنوبى الشرقى من الحديقة على صفحة السماء المنبسطة المغبشة بهذا البياض الحليبى ، حيث كان يسطع «المشترى» ببريق وردي وحيدا . وتمزق فؤادى فجأة بالكرب والنشوة والحاجة الى الحب لدى مرأى غضارة وجمال هذا كله ، والتفكير بحسنها وشبابها ، وبانها أحبتنى فى يوم ما ، مما جعلنى حين قفزت من العربة بالقرب من السطحة أشعر وكأننى أقف على شفير الهاوية – فكيف أدخل هذا البيت ، وأقابلها

مجددا ، وجها لوجه بعد ثلاث سنوات من الفراق ، ارملة واما ! مع ذلك دخلت الى العتمة وعبير البخور بهذه القاعة الرهيبة المرقطة بانوار الشموع الصفراء ، والى فحمة حشد الواقفين حاملى الشموع أمام النعش ، الذى كان ممددا بصورة مائلة وجهة الرأس تعلو نحو ركن الايقونات ، وينيره من الأعلى سراج كبير أحمر امام الأطر الذهبية للايقونات وفى الاسفل ثلاثة شموع كنسية عالية يسيح منها الشمع بقطرات لامعة فضية ، – دخلت بمصاحبة صلوات وانشاد القسس الذين كانوا يدورون حول النعش بالمبخرة والانحناءات . أطرقت برأسى فورا ، بغية الا أرى الغطاء الأصفر القماشى المقصب على النعش ووجه المرحوم ، وكان أكثر ما أخشاه ان أراها هى . مد لى احدهم بشمعة مشتعلة فتناولتها وأمسكتها ، شاعرا كيف كانت تهتز وتدفىء وتنير وجهى الملفع بالشحوب . واصغيت بخنوع وذهول الى تلك التلاوات وقعقعة المبخرة ، ورأيت من تحت الحاجبين دخانها المتصاعد نحو السقف ، ذى الرائحة المفرطة الحلاوة والمهيبة ، وعلى حين غرة رأيتها مع ذلك عندما رفعت رأسى – كانت تقف أمام الجميع بملابس الحداد ، وبيدها شمعة تنير خدّيها وخصلات شعرها الذهبية – دقيقتئذ لم أعد أستطيع ابعاد بصرى عنها وكأنها ايقونة . وحين انتهى اللغط وساد السكون وفاحت روائح الشموع المطفأة ، وتحرك الجميع حذرين وطفقوا يتقدمون اليها ويلثمون يدها ،

انتظرت لكى أكون آخر المتقدمين . حين اقتربت منها رمقت بنشوة ورهبة رشاقتها فى الرداء «الرهبانى» الأسود ، الذى جعلها نقية طاهرة على الاخص ، والى الجمال الفتى الرائق لمحياها وأهدابها ومقلتيها ، اللتين انسدلتا لدى رؤيتى ، وانحنيت واطئا واطئا لالثم يدها ، وقلت بصوت لا يكاد يسمع كل ما كان ينبغى ان أقوله فى مثل هذه الاحوال ، وبما تمليه اللياقة وصلة القرابة ، وطلبت السماح بالانصراف على الفور وقضاء الليلة فى الحديقة ، فى الجناح القديم الذى كنت أنام فيه حينما كنت لا ازال تلميذا ابان زياراتى الى بلاجوداتنويه ، – توجد هناك غرفة نوم ميشيرسكى وكان يلوذ بها فى ليالى الصيف القائظة . فردت دون ان ترفع بصرها :

– سآمر الآن بأخذك الى هناك وتقديم طعام العشاء اليك .

فى الصباح رحلت فور انتهاء صلوات الجنازة والدفن .

ولدى الوداع تبادلنا بضع كلمات فقط مرة اخرى . ومرة أخرى لم تتقابل نظراتنا .

٧

أنهيت الدراسة . وسرعان ما فقدت بعد هذا أبى وأمى اللذين توفيا فى الوقت نفسه تقريبا . وانتقلت للعيش فى القرية . وطفقت ادّبر شئون

الضيعة ، وربطتنى الصلة بفلاحة يتيمة اسمهـــا جاشا ، تربت عندنا فى البيت ، وعملت خادمة فى حجرات أمى . . . والآن صارت تخدمنى سوية مع ايفان لوكيتش ، من فلاحينا الأقنان سابقـــا ، لحد الاخضرار ، وعظام لوحي الكتفين البارزين . كانت العجوز الممعن فى الشيخوخة ذى الشعـــر الأ شيب هيئتها أشبه بطفلة – صغيرة الحجم ، نحيلـــة ، سوداء الشعر ، بعينين فاحمتين خاليتين مـــن اى تعبير ، صموتة بصورة غامضة ، كما لو انهـــا لا تهتم بأى شىء ، وبشرتها الناعمة بالغة السمرة حتى ان أبى قال ذات مرة : «لابد وان هاجر * كانت شبيهة بها» . كنت أجدها حلوة المحضر ، ويروق لى ان أحملها بين ذراعى ممطرا أياها بالقبلات . كان يجول فى خاطرى : «هذا كل ما بقى لى فى الحياة !» وبدا انها تفقه ما يدور فى رأسى . وحين رزقـت بطفل صغير أسود الشعر وكفت عن القيام بأعمال الخدمة ، انتقلت للعيش فى غرفتى أيام الطفولة ، وأردت الزواج بها ، بيد انها أجابت : «لا ، لا حاجة لى بذلك ، سأشعر بالخجل فقط أمام الجميع ، فاية سيدة أنا ! وأنت ما حاجتك لهذا ؟ عندئذ سيزول حبك لى بسرعة . عليك بالسفر الى موسكو ، والا فسيصيبك السأم تماما معى . أما أنا فلن أعـرف السأم – قالت هذا ناظرة الى الطفل الـــذى كان

* المقصود جارية النبى ابراهيم المصرية التى انجبت له اسماعيل . **المعرب** .

يرضع من ثديها . – ارحل واغرف من مباهج الحياة ما شاء لك هواك . لكن تذكر شيئا واحدا : لئن اغرمت باحداهن وعقدت العزم على الزواج ، فلـن اتوانى لحظة عن الانتحار غرقا سوية معه .

رنوت اليها – كان من المستحيل الا أصدقها . وخفضت رأسى : نعم ، لكننى فى السادسة والعشرين من العمر فحسب . . . الوقوع فى الغرام والزواج – تلك أمور ما كان بوسعى تصورها ، لكن كلمـات جاشا ذكرتنى مرة أخرى بحياتى التى لا مستقبـل لها .

فى وقت مبكر من الربيع سافرت الى الخـارج . وأمضيت هناك نحو أربعة أشهر . ولدى عودتى فى نهاية يونيو عبر موسكو فى طريق الاياب الى بيتى ، فكرت كالآتى : ساقضى الخريف فى القرية ، وفـى الشتاء سأسافر ثانية الى مكان ما . فى الطريق مـن موسكو الى تولا طفح قلبى بشعور من الكآبـــة الهادئة : هآنذا عائد الى البيت مرة أخرى ، ولماذا ؟ تذكرت ناتالى – وفكرت : نعـم ، ان ذلك الحب «حتى الموت» الذى تنبأت لى به صونيا بسخريـة موجود فعلا . لكننى اعتدت عليه ، كما يعتـــاد الانسان مع مرور السنين على الأمر حين تبتر يده أو ساقه مثلا . . . وبينما كنت جالسا فى المحطـة بمدينة تولا بانتظار تغيير القطار بعثت فجأة ببرقية : «أنا مسافر من موسكو بطريقكـــم . سأصل الى محطتكم فى التاسعة مساء ، اسمحى لى بزيارتكـــم

لمعرفة أحوالكم» .

استقبلتنى على السطحة ، وأنار وراءها مصباح بيد الوصيفة ، ومدت لى كلتا يديها وعلى ثغرهـا نصف ابتسامة :

– أنا مسرورة للغاية !

– مهما بدا الأمر غريبا فانك قد كبرت أكثـر قليلا ، – قلت هذا وأنا اقبل يديها وأتحسسهما تتألـم . ورنـوت الى قيافتهـا كلها على ضـوء المصباح ، الذى رفعته الوصيفة وحامت حول زجاجه فراشات وردية صغيرة فى الهواء الرائق بعد المطر : عيناها السوداوان أخذتا تنظران الآن بثبات وبثقة أكبر ، وكيانها كله ينم عن الازدهار الكامل لحسن امرأة شابة ، كانت ميساء القد ، أنيقة ببساطة ، ترتدى فستانا من قماش التيسور الأخضر .

فاجابت بابتسامة حزينة :

– نعم ، اننى ما برحت أنمو .

كما فى السابق كان يتدلى سراج أحمر كبير فى ركن القاعة ، أمام الايقونات المذهبة القديمة ، غير انه لم يشعل . أسرعت فى ابعاد ناظرى عن ذلك الركن ، ومضيت خلفها الى غرفة الطعام . وكان هناك فوق غطاء ناصع ابريق شاى فوق موقـد الكحـول ، وأوعية شاى لامعة من خزف صينى دقيق . وجلبت الوصيفة لحم عجل باردا ، وخيارا مخللا ، وسراحية فودكا ، وقنينة نبيـذ «لافيت» . وشرعت بصب الشاى :

– أنا لا أتناول العشاء ، واكتفى باحتساء الشاى . لكن عليك أولا تناول شىء من الطعام . . . أنت قادم من موسكو ، ولماذا ، مايفعل المرء هنـاك صيفا ؟

– انا عائد من باريس .

– هكذا ، اذن ! هل أمضيت فترة طويلة هناك ؟ آه ، لو كان بوسعى السفر الى مكان ما ! لكـن ابنتى فى الرابعة من العمر فحسب . . . يقال انك تجتهد فى تدبير شئون الضيعة .

شربت قدح فودكا بدون تناول شىء من الطعام . ورجوتها السماح لى بالتدخين .

– آه ، تفضل !

طفقت أدخن وقلت :

– ناتالى ، لا حاجة لابداء المجاملات الرسمية ، ولا تلقى بالا خاصا الىّ ، اننى جئت لرؤيتك فقط ، ثم اتوارى عن الانظار مرة اخرى . ولا تحرجـى نفسك ، فان كل ما حدث أصبح بحكم الماضى وقـد ولىّ بلا رجعة . لابد وأنت ترين انى موله بك مرة اخرى . لكن اعجابى بك لا يمكن ان يغدو مصـدر ضيق لك أبدا . – فهو الآن بلا قصد مغـرض وهادىء .

أرخت رأسها وأهدابها ، – لم يكن بالمستطاع أبدا التعوّد على التناقض الساحر بين هذا وتلك ، – وصار محياها يصطبغ بلون وردى رويدا رويدا .

– هذا صحيح تماما ، – قلت هذا ووجهى يميل

الى الشحوب ، لكن بصوت ينم عن حزم اشد ، مؤكدا لنفسى اننى اقول الحقيقة . – فكل شىء فى الدنيا يمضى مع الايام . أما بشأن جريرتى الشنعاء ازاءك فأنا واثق من انها غدت منذ وقت بعيد منسية ، ومفهومة وقابلة للغفران أكثر بقدر كبير من السابق : رغم كل شىء ان جريرتى لم تقع بارادتى ، وحتى فى ذلك الوقت كانت خليقة بالتسامح لحداثة سنى ولسير الاحداث العجيب الذى أضحيت فيه . ثم اننى نلت العقاب الكافى لقاء جريرتى – بتحطم حياتى كلها .

– تحطم حياتك ؟

– أليس الأمر كذلك ؟ أنت لا تفهمينني ولا تعرفيننى كما قلت آنذاك ؟

لاذت بالصمت .

– لقد شاهدتك فى حفلة البالو بفورونيج . . . لكم كنت فتية آنذاك ، ولكم كنت تعيسة أشد التعاسة ! لكن هل يوجد حب تعيس ؟ – قالت ذلك رافعة محياها ومتسائلة بكل سواد عينيها الواسعتين ورموشهما . – ألا تمنح السعادة أكثر الموسيقى حزنا فى العالم ؟ لكن حدثنى عن نفسك . هل من المعقول ان المقام قد استقر بك فى القرية الى الأبد ؟

سألت بعد جهد جهيد :

– معنى انك كنت لا تزالين آنذاك تحبيننى ؟

– بلى .

صمتُ شاعرا بان وجهى ملتهب كالنار .

– هل صحيح ما سمعته من ان لديك غراما وطفلا ؟

قلت :

– هذا ليس بالغرام . الشفقة البالغة والحنان فقط ، لا غير .

– حدثنى عن كل شىء .

ورويت لها كل شىء ، لحد ما قالته لى جاشا حين نصحتنى بان «أسافر وأغرف من مباهج الحياة ما شاء لى هواى» . وأنهيت حديثى كالآتى :

– أترين الآن ، اننى محطم من كافة النواحى . . .

قالت سارحة مع أفكارها :

– ضع فى بالك ان كل الحياة ما برحت أمامك . لكن الزواج بالنسبة اليك مستحيل طبعا . انها من النساء اللواتى لا يرحمن حتى الطفل ناهيك عن نفسها .

فقلت :

– المسألة لا تكمن فى الزواج . يا الهى ! أنا أتزوج !

حدقت فىّ متأملة :

– بلى ، بلى . يا للغرابة . لقد تحققت نبوءتك ، وربطتنا أواصر القرابة . أتشعر ، انك الآن بمثابة ابن عمى ؟

ووضعت يدها على يدى .

– لكنك منهك بالغ الانهاك من السفر ، حتى لم

تمس شيئا من الطعام . لقد بلغ بك الاعياء أقصاه . كفى الحديث اليوم ، اذهب . لقد أعد الفراش لك فى الجناح .

لثمت يدها طائعا ، واستدعت الوصيفة ، ومضت هذه حاملة المصباح ، رغم ان البدر البادى على علو منخفض وراء الحديقة كان ينير المكان جيدا ، وقادتنى فى البداية فى الممر الرئيسى ومن ثم فى الجانبى الى الفسحة الواسعة ، نحو الجناح العريق فى القدم ذى الاعمدة الخشبية . وجلست عند النافذة المفتوحة ، فى المقعد بالقرب من الفراش ، ورحت أدخن مطلقا لأفكارى العنان :

– عبثا ان أقدمت على هذا الفعل السخيف المفاجىء ، وعبثا جئت ، لقد وضعت رجائى على رباطة جأشى ، وقوة ارادتى .

كانت الليلة هادئة للغاية ، وكان الوقت متأخرا . لابد وان زخة مطر صغيرة قد هطلت أيضا – اذ غدا الهواء دافئا ورائقا أكثر . ومع روعة هذا الدفء الصامت والسكون ، أخذت الديكة الباكرة تصيح من بعيد فى شتى انحاء القرية بصوت مديد وحذر . وبدا كما لو ان قرص البدر الساطع المعلق مقابل الجناح وراء الحديقة قد جمد فى مكانه ، وكما لو كان يرنو منتظرا ، ثم تألق وسط الأشجار البعيدة وأشجار التفاح القريبة المتفرعة الاغصان ، قارنا نوره بظلالها . وبدا النور ساطعا زجاجيا فى

المواضع التى شق النور دربه فيها ، أما فى الظل فبدا مبرقشا وغامضا . . . ثم تراءت هى برداء ما طويل وغامق يلمع كالحرير دون ان تسمع خطواتها ودنت من النافذة بغموض ايضا . . .

ثم تلألأ البدر فوق الحديقة وغدا يحدق فى الجناح مباشرة ، وواصلنا الحديث بالتعاقب – هى راقدة على الفراش ، بينما كنت راكعا على ركبتى ماسكا بمعصميها :

– فى تلك الليلة الرهيبة ذات البروق والرعود كنت أحبك وحدك ، ولم يكن فى قلبى تجاهك اى هيام ، سوى الهيام الأكثر نشوة ونقاء .

– نعم ، لقد أدركت كل شىء بمرور الزمن . ومع ذلك عندما كنت أتذكر بغتة تلك البروق والرعود بعد قليل من الذكريات عما حدث فى الدرب المشجر قبل ساعة من ذلك . . .

– ليس هناك امرأة تضارعك فى العالم أجمع . فمنذ برهة قليلة حين تطلعت الى قماش التيسور الأخضر هذا ، والى ركبتيك تحته ، أحسست باننى مستعد لأموت لمجرد لمسه بشفتى ، لمسه هو فقط .

– انك لم تنسنى أبدا ، أبدا طوال هذه الأعوام ؟

– كنت أنساك فقط كما ينسى المرء انه يعيش ويتنفس . وأنت قلت الحقيقة : لا يوجد حبٌ تعيس . آه ، ذلك القميص البرتقالى الذى كنت ترتديه ، كيانك كله حين كنت صبية تقريبا ،

الذى ومض أمامى فى ذلك الضحى ، الضحى الأول لهيامى بك ! ثم يدك فى ردن القميص الاوكرانى . وبعده انحناءة الرأس ، عندما كنت تقرأين «الجرف الساقط» ، وغمغمت أنا : «ناتالى ، ناتالى !»

– نعم ، نعم ،

– ثم رأيتك فى حفلة البالو ، كنت فارعة الطول وافزعتني بفتنتك الانثوية الساحرة ، – لكم وددت ان أموت فى تلك الليلة فى نشوة الحب والموت ! بعد ذلك رأيتك حاملة الشمعة بيدك ، وبلباس الحداد وطهارتك فيه ، وتراءى لى ان الشمعة القريبة من وجهك أصبحت مقدسة ايضا .

– ها أنت معى مرة اخرى والى الابد . لكن حتى لقاءاتنا ستكون نادرة – فهل بوسعى أنا زوجتك فى السر ان أصبح عشيقتك فى العلن ، امام الجميع ؟

فى ديسمبر انتقلت روحها الى بارئها على ضفاف بحيرة جنيف أبان معاناة الام الوضع قبل الاوان .

٤ أبريل ١٩٤١

حانة على النهر

كانت الثريا تتلألأ في مطعم «براغ» ، وتعزف جوقة برتغالية للآلات الوترية وسط الضجيج واللغط في فترة الغداء ، ولم توجد مائدة خالية واحدة . فوقفت متطلعا حوالي وكدت أهم بمغادرة المكان حين رأيت طبيبا عسكريا من معارفي ، دعاني على الفور للجلوس الى مائدته عند النافذة ، التى فتحت لتطل على الليل الربيعي ، وعلى شارع اربات حيث تهدر عربات الترام . تناولنا طعام الغداء معا ، وشربنا قدرا كبيرا من الفودكا ونبيذ كاخيتينسكويه ، متحدثين عن دورة دُوْمَا * الدولة التي دعيت للانعقاد مؤخرا ، وطلبنا القهوة . وأخرج الطبيب علبة سجايره الفضية القديمة ، ومدّ لى سيجارة من سجائره القوية . وراح يدخن وقال :

– نعم ، كفانا الحديث عن الدُوْمَا والدُوْمَا . . . ما رايك لو شربنا الكونياك ؟ أراني كئيبا كاسف البال نوعا ما .

اخذت قوله على سبيل المزاح . فقد كان رجلا

---

* دُوْمَا الدولة – هيئة تشريعية استشارية تمثيلية في الامبراطورية الروسية (١٩٠٦ –١٩١٧) .

رزينا جاف الطبع ، قوي البنيـــة موبوع القامة ، تناسبه تماما البزة العسكرية ، شعره احمر خشن ، ووخط الشيب صدغيه ، بيد انه اضاف قائلا بجدّ :

– لا بد وانه بتأثير الربيـــع . ان المرء حين تتقدم به السن ، علاوة على كونه أعزب ميالا الى الاحلام ، يغدو عاطفيا اكثر عمومـــا مما في أيام الشباب . ألا تشم اريج اشجار الحور ، ألا تسمع كيف تجلجل عربات الترام برنين ؟ بالمناسبـــة ، لنغلق النافذة ، فالجو غير لطيف نوعا ، – قال هذا منتصبا من مكانه : ايفان ستيبانيتش ، هات قنينة «شوستوفسكي» . . .

بينما مضى النادل العجوز ايفان ستيبانيتش لجلب «شوستوفسكي» لاذ هو بالصمت ساهما . وحيـن قدّم الكونياك وصبت كأس لكل منا أبقى القنينة على المائدة ، وأردف مرتشفاً الكونيـــاك مع القهوة الساخنة :

– المسألة ايضا ان بعض الذكريات تعاودني . لقد عرج على هذا المكان قبلك الشاعر بريوسوف * مع فتاة نحيفة صغيرة الحجم تشبه طالبة فقيرة ، فصرخ بعبارات واضحة وحادة وغاضبة بصوته الالثغ

---

* بريوسوف ، فاليري (١٨٧٣ – ١٩٢٤) – شاعر رمزي روسي . انخرط بنشاط بعد ثورة اكتوبر في بناء الثقافة السوفييتية ، ومارس نشاطا اجتماعيا – تربويا فعالا . **المعرب .**

المنطلق كالعواء من أنفه ، مخاطبـــا مدير المطعم الذي هرع اليه معتذرا كما يبدو بسبب عدم وجود موائد خالية – ، وكان قد تم حجز المائدة بواسطة التلفون كما يظهر ، بيد ان الحجز لم يتم ، – ثم انصرف بغطرسة . انت تعرفه حق المعرفة ، وأنا أيضا لي بعض المعرفة به ، اذ كنت التقي به في حلقات هواة الايقونات الروسية القديمة ، فأنا أولع بها أيضا منذ أمد بعيد ، منذ أيام وجودي في مدن الفولجا حيث أديت الخدمة العسكرية على مدى بضع سنين ، علاوة على ذلك انني سمعت الكثير عنه ، وكذلك عن مغامراته الغرامية ، ممـــا جعلني أحس بشيء من الشفقة على هذه التي هي بلا ريب معجبة به وضحية أخرى له . كان مظهرها مؤثرا بائسا ، فكانت تتطلع بارتباك وابتهاج تارة الى هذا البريق في قاعة المطعم غير المألوف كليا بالنسبة لها ، وتارة اليه ، وهو يقذف نباحه في عبارات متقطعة ، مراقصا عينيه السوداوين ورموشه مثل ابليس . وهذا كله اعاد اليّ ذكريات الماضي . وسأروي لك واحدة منها ، أثارها فيّ هو بالذات ، ولحسن الحظ ان الجوقة تهمّ بالانصراف ، وبات ممكنا الجلوس بهدوء . . .

كان وجهه قد اصطبغ بالحمرة بفعل الفودكا ، والنبيذ «كاخيتينسكويه» ، والكونياك ، شأن الشقر الذين تحمرّ وجوههم دوما بتأثير النبيذ ، لكنه صب كأسين اخريين . ثم اردف يقول :

– لقد تذكرت ، كيف حدث قبل عشرين سنة خلت ان مضى مرة طبيب عسكري في مقتبل العمر ، كان هو ، طبعا ، أنا بالذات ، فى شوارع احدى مدن الفولجا . كنت أسعى لقضاء حاجة تافهة ، هي وضع رسالة ما فى صندوق البريد ، وقد طابت نفسي واشرق مزاجي كما يحدث للمرء أحيانا بلا اي سبب حين يكون الجو رائعاً . كان الجو رائعا حقا يومذاك ، أمسية هادئة وجافة ومشمسة في مطلع سبتمبر ، حين يكون فحيح الاوراق المتساقطة تحت اقدامك طيب الوقع على الارضية . ولأمر ما رفعت بصري بعد اغراق في التأملات فرأيت كيف كانت تغذ الخطى مسرعة أمامي فتاة ممشوقة القوام ورشيقة جدا ، ببدلة رمادية ، وقبعة رمادية مطوية الحوافي باناقة ، بيدها مظلة رمادية ، ولفت يدها بقفاز زيتوني اللون من جلد الجدي . لقد رأيت وأحسست ان فيها ثمة أمرا يعجبني ايما اعجاب ، وعلاوة على ذلك يبدو غريبا نوعاما ، فلأي غرض وما الذي يدعوها الى هذه العجلة ؟ وبدا ألا حاجة هناك للعجب ، فما أكثر الأمور العاجلة لدى الناس . مع هذا فان أمرها قد أثار اهتمامى ، وطفقت أحث الخطى أيضا بلا وعي مني ، وكدت ألحق بها – وظهر انني لم أفعل هذا عبثا . اذ تراءت أمامي عند الناصية كنيسة عتيقة واطئة ، وشاهدت انها تتوجه اليها مباشرة ، رغم ان ذلك اليوم لم يكن من ايام العطلة ، ولا تقام الصلوات في الكنائس في مثل هذا

الوقت بعد . ثم صعدت طنف الكنيسة وفتحت الباب الثقيل بجهد ، بينما واصلت' تعقبي لها ، ولما دخلت' توقفت' عند العتبة . كانت الكنيسة خاوية ، وخطت هي مسرعة ودون ان تراني باتجاه المنبر ، فرسمت شارة الصليب وركعت برشاقة ، ثم رفعت راسها وضغطت بيديها على صدرها فسقطت المظلة على الارض ورنت الى المذبح بنظرات من يبتهل ويلح في الدعاء ، كما يفعل هذا الناس الذين يطلبون معونة الرب حين يستبد بهم كرب خانق او تتملكهم حاجة ماسة الى أمر ما . تراءى في الشباك الحديدى لنافذة ضيقة من يساري النور الشاحب الأصفر للمساء الهادئ' وكأنه قديم عتيد أيضا ، وغارق في التأملات . وأمامي ساد ظلام الغسق في اعماق الكنيسة ، تحت عقودها الواطئة ، فلم يومض سوى اللمعان الذهبي لأطر الايقونات على جدار المذبح المطروقة الخشنة المظهر رائعة الروعة التى تميز الصناعات القديمة ، بينما لم تكن هي تبعد مقلتيها عنها راكعة . كان يتراءى لي خصرها الضامر وقيثارة عجزها وكعبا حذاءيها الرفيعين الرشيقين اللذين اندس بوزاهما في الارضية . . . ثم ضغطت بمنديلها على مقلتيها مرات عديدة ، ورفعت المظلة من الارض بسرعة ، كما لو قر عزمها على أمر ما فنهضت بخفة ، وهرعت الى المخرج ، وبغتة لمحت وجهي – فصعقت' من سحر فزعها الرهيب البادى على عينيها المخضلتين بالدموع المتألقة . . .

انطفأت الثريا فى القاعة المجاورة – كان المطعم قد خلا من رواده – ورنا الطبيب الى ساعته .

فقال :

– لا ، ليس الوقت متاخرا . الساعة العاشرة لا أكثر . أنت لست فى عجلة من أمرك ؟ اذن لنجلس قليلا . سأكمل لك رواية هذه القصة الغريبة جدا . وغرابتها تكمن قبل كل شيء في انني التقيتها مرة اخرى في المساء ذاته ، او بالأحرى في وقت متاخر من المساء . فقد ازمعت على حين غرة على الذهاب الى حانة صيفية على الفولجا ، كنت قد ارتدتهـــا مرتين او ثلاثا لا أكثر خلال الصيف كله ، زد على اننى ذهبت الى هناك لمجرد استنشاق الهواء عند النهر بعد اليوم القائظ في المدينة . والله وحده يعلم لِمَ ذهبتُ في تلك الامسيـــة التي أضحت باردة : كما لو كانت ترشدني قوة ما . طبعا يمكن القول انها مجرد مصادفة : فقد ذهب المرء الى هناك لانه لم يجد ما يفعلـــه ، ولا يوجد ما يبعث على العجب في هذا اللقاء الجديـــد الذي جرى بمحض الصدفة . لا ريب في ان هذا القول صائب تماما . لكن لم حدث شيء آخر أيضا ، اي انني التقيتها ، الله وحده يعلم أين ، وتحققت بغتة التخمينات والهواجس المبهمة التي تملكتني حين رأيتها في أول مرة ، وما استبد بها من تركيز الذهن ذاك والهدف الباعث على القلق ذاك عندما كانت تسعى الى الكنيسة ، وهناك ابتهلت بتوتر وصمت بالغين ، اي بما هو الشيء

الاساسي والصميمي للغاية عندنا ، متوسلة الى الرب تلبية دعاء ما لها ؟ جئت وكنت قد نسيتها تماما ، وجلست فترة طويلة وحيدا في تلك الحانة على النهر ، وهي بالمناسبة غالية جدا ، ومعروفة بحفلات القصف والعربدة التي يقيمها التجار هناك وغالبا ما تهدر فيها آلاف الروبلات ، وكنت أعب بين الفينة والفينة بيرة «جيغولوفسكويه» بدون اي تلذذ ، متذكراً الرايـــن وبحيرات سويسرا ، التي امضيت فيها صيف العـــام الماضي ، مفكرا في ان اماكن اللهو ، خارج المدن في اطراف روسيا ، جميعا تبدو في غاية الابتذال والفظاظة ، ومنها في مناطـق الفولجا . هل اتفق لك ان زرت مدن الفولجا ، ومثل هذه الحانات المقامة على ركائز فوق الماء ؟

فأجبت بأن معرفتي بالفولجا ضئيلة ، ولم يتفق لي ان عجت على مثل هذه الحانات عـلى الماء ، لكنني لا أجد عسرا في تصورها .

فقال هو :

– طبعا . . ان أطراف روسيا متشابهة في كـل مكان كل التشابه . ثمة أمر واحد متبايـن هناك – هو نهر الفولجا نفسه . فمنذ باكورة الربيع وحتـى الشتاء يبدو رائعا دوما وفي كـــل مكان ، مهما كان الطقس ، في الضحى والليل . وقد يحدث ان تجلس ليلا في حانة كهذه ، متطلعا عبر النوافذ التى تأتلف منها ثلاثة جدران فيها ، وحين تفتح كلها عـــلى مصراعيها في الليل صيفاً ، تتطلـــع الى عتمة وقتام

الليل مباشرة ، وتحس بصورة خاصة كل هذا الجلال الوحشي لرحابة المياه وراءها : فترى آلاف الأنوار الزاهية المتناثرة ، وتسمع طرطشة الطوافات العائمة بمحاذاة الجرف ، وأصداء أصوات العمال عليها او في الصنادل ، والمواعين ، وتحذير أحدهما الآخر بالصراخ ، والالحان المختلفة التلاوين لصفارات السفن التي تهدر رفيعة تارة وجهورية تارة أخرى ، وترجيعات مراكب نهرية صغيرة ما ، تنطلق مسرعة ، فتندغم بها ، وتتذكر كل تلك التسميات التي جاءت من قطاع الطرق والتتر : بالاخنا ، فاسيل-سورسك ، تشيبوكساري ، جيغولي ، باتراكي ، خفالينسك * – وحشود الحمالين الرهيبة على ارصفتها ، ثم ذلك الجمال الذي لا يضارع المميز للكنائس القديمة بمناطق الفولجا – فلا يسعك سوى ان تهز رأسك : ما أروع بلادنا روسيا هذه التي لا نظير لها ! وحين تتطلع حواليك – ما هي هذه الحانة في واقع الحال ؟ انها مبنى يقوم على ركائز ، عنبر من جذوع الاشجار ، ذو نوافذ باطارات خشنة المظهر ، تنتشر فيه موائد عليها اغطية بيضاء ولكنها ليست بالنظيفة ، وادوات المائدة ثقيلة ورخيصة ، ويختلط في الممالح الملح بالفلفل ، وتفوح من المناديل رائحة صابون الغسيل ، ومنصة من الالواح

* مدن على الفولجا . **المعرب** .

الخشبية تمثل خشبة لمشاهد البهللة ، من أجل عازفي البالالايكا والارمونيكا وعازفات القيثارة ، ينير جدارها الخلفي ضوء مصابيح كيروسين ذات عاكسات لماعة من الصفيح ، وندل شعورهم شقراء ، وصاحب الحانة رجل اصله من الموجيك ، سميك الشعر ، له عينان أشبه بعيون الدببة – وكيف يرتبط هذا كله مع واقع ان ما يشرب هناك من نبيذ «مومو» و«ريديرير» في احيان كثيرة خلال ليلة واحدة يعادل ثمنه ألف روبل ! ان هذا كله روسيا ايضا . . . ألم تسأم من حديثي ؟

– لا ، طبعا ، ما هذا القول !

– اذن ، اسمح لي بانهاء القصة . انني حدثتك بهذا لتدرك في اي مكان مبتذل لقيتها مرة أخرى فجأة بكل جمالها الطاهر النبيل ، ومع أي رفيق أنس ! حين بلغ الليل نصفه بدأت تدب الحركة في الحانة وتغصّ بالرواد : أنير تحت السقف فانوس كبير وساخن جدا ، اشعلت مصابيح على الجدران ، ومصابيح على الجدار وراء المنصة ، وخرج فوج كامل من الندل ، وانهمر سيل من الرواد : انهم طبعا اولاد تجار وموظفون ومقاولون وربابنة سفن وفرقة من ممثلين يقدمون تمثيلياتهم في المدينة . . . وطفق الندل يسعون حاملين الصواني متمايلي الاجساد بخلاعة ، وغمر جماعات الجالسين وراء الموائد اللغط والقهقهات ، وتصاعد دخان التبغ ، واعتلى المنصة عازفو البالالايكا وجلسوا في صفين

على جانبيها ، مرتدين القمصان الفلاحية الزائفة كما في عروض الاوبـــرا ، وعلى أرجلهم لفائف نظيفة واخفاف قروية جديدة ، واعقبتهم جوقة من عاهرات صبغت وجوههن بالأحمر والمساحيق واصطففن في صدر المنصة واضعات أيديهن وراء ظهورهن بهيئة مماثلة ، فانطلقن بالانشـــاد بأصوات حادة وبوجوه خالية من اي تعبير بمصاحبة الحان البلالايكا المجلجلة مرددات أغنية بطيئة مديدة حزينة عن «مقاتل» تعيس ما ، يزعم انه عاد من الاسر في تركيـــا بعد غيبة طويلة : «سأل . . الاهل المقاتل . . . من أنت ، فما عرفوه . . .» ثم خرج المدعو «ايفان غراتشيوف الشهير» حاملا ارمونيكا ضخمة بيديه ، وجلس على كرسي عند طرف المنصة وهز شعره الاشقر الكث المرتب بتسريحة غليظة الهيئة : وجهه غليظ الملامح كوجه خادم وقـــح والقميص أصفر مطرز في الياقة العالية والاذيـــال بخيوط حريرية حمراء ، الحزام المبروم أحمر تتدلى منه الشراريب الطويلة ، وجزمتاه جديدتـــان صنع قسماهمـــا العلويان من الجلد الصقيل . . . هز شعر رأسه ووضع على ركبتـــه المرفوعة الارمونيكـــا الثلاثية الصفوف ذات القِرَب السوداء المطعّمة بالذهب ، ووجّه عينيه الجامدتين البليدتين نحو مكان ما في الأعلى ، وانزلقت أصابعه على مفاتيح الارمونيكـــا بحركة سريعـــة ، فزمجرت وصدحت ، وراح يبعج ويلوي ويجرجر القِرَب مثل أفعى غليظة ، عازفا على المفاتيح أعجب الالحان ،

بصوت يزداد علواً وشدةً وتنوعا ، ثم رفع وجهه واغمض عينيه وأنشد بصوت نسائي : «رحت أتنزه في الروضة ، لكي أطرد الكآبة عن روحي . . .» في تلك اللحظة بالذات وقع بصري عليهـــا ، ولم تكن لوحدها طبعا : لقد حدث دقيقتئذ ان نهضتُ لاستدعاء النادل وتسديد ثمن البيرة ، فصعقتُ لمشاهدتهما : اذ فتح الباب وراء المنصة من الخارج وبدت «هي» مرتدية قبعة شبه عسكريـــة بلون الخاكى وبمعطف واق من المطر من اللون ذاته ومتمنطقة بحزام ، حقا بدت رائعة الحسن بهذا كلـــه ، شبيهة بفتى طويل القامة ، واعقبها متأبطاً اياها من المرفق رجل مـــا قصير القامة يرتدي معطفاً رخيصا مما يلبسه الخدم ويعتمر قبعة نبلاء ، أسمر الوجه ومخدد بالتجاعيد ، ذو عينين سوداوين متراقصتين ، ولحظتئذ – وصدقني – جنّ جنوني ! اذ عرفت فيه احد معارفي ، كان نبيلا بدد ثروته وصار يعاقر الخمرة ، ويمارس الفجور ، وكان ضابطا سابقا في كتيبة فرسان طرد منها ، فاندفعتُ الى الأمام دون ان أفقه شيئـــا ، وبلا تفكير ، بين الموائد بخطوات سريعة للغاية مما جعلني أصل اليها واليه عند المدخل تقريبا – وكان ايفان غراتشيوف مـــا برح يعيط «وبحثت عن زهرة لأهديهـــا الى حبيبي . . .» . حين دنوت منهما رمقني هو ووجد الفرصة للهتـــاف بصوت جذل : «آه ، دكتـــور ، مرحباً !» ، بينما أصابها شحوب الاموات ، لكنني دفعته جانباً وهمست لها كالمجنون : «أنتِ في هذه

الحانة ! في منتصف الليل مع سكير عاهر ومحتال معروف فى الاقليم كله وفي المدينة كلها ! قبضت على معصمها وهددته بتحطيم عظامه ان لم تنسحب الآن من هناك في تلك اللحظة ذاتها الى الخارج معي . فتسمّر في مكانه مصعوقا – ما بوسعه العمل حين كان يعرف انني أستطيع كسر حدوة حصان بيديّ هاتين ! استدارت هي مطرقة الرأس وتوجهت نحو المخرج . لحقت بها عند اول مصباح في الكورنيش المرصوف بالحجارة . تأبطت ذراعها ، لكنها لم ترفع رأسها ، ولم تسحب يدها . ثم توقفت بعد المصباح الثاني بالقرب من مصطبة ودفنت وجهها في صدري وانخرطت في النحيب . أجلستها على المصطبة ماسكا بيد معصمها الحلو البض الرفيع المبلل بالدموع ، واحتضنتها بالأخرى من كتفها . فطفقت تهرف فى القول : «لا ، غير صحيح ، غير صحيح ، انه طيب . . . انه تعيس شقي ، لكنه طيب سمح القلب لا يعرف الهموم . .»

لذت بالصمت اذ كان من العبث ابداء المعارضة . ثم اوقفت حوذيا مرّ بنا . كفت عن النحيب وتوجهنا صامتين نحو المدينة . حين بلغنا الساحة قالت بصوت خافت : «الآن ، دعني أذهب ، سأمضي ماشية ، لا أريد ان تعرف أين أعيش» ، وفجأة لثمت يدي ، وقفزت من العربة ، وعبرت الساحة بخطوات مرتبكة دون ان تلتفت . . . بعد ذلك لم

ارها أبدا ، انني لا أعرف حتى الآن من هي ، وما قصتها . . .

حين سددنا الحساب ، وارتدينا معطفينا تحت ، وغادرنا المطعم ، رافقني الطبيب حتى ناصية شارع اربات ، فتوقفنا لنودع أحدنا الآخر . كان الشارع خاليا وهادئا – حتى الوقت حين تدب الحركة مجددا عندما ينتصف الليل ، وحتى موعد الانصراف من المسارح ، وتناول العشاء في المطاعم ، في المدينة وخارجها . احلولكت السماء . وتألقت المصابيح النظيفة الساطعة تحت خضرة الاشجار اليانعة في بولفار بريتشيستينسكي ، وعبق المكان بشذى العبير الخفيف للمطر الربيعي الذي بلل الشارع بينما كنا جالسين في «براغ» .

قال الطبيب وهو يتطلع حواليه :

– أتدري ، لقد أسفت فيما بعد لانني أنقذتها ، كما يقال . لقد وقعت لي حوادث مماثلة أخرى من هذا النوع . . . لماذا ، واسمح لي بالسؤال ، تدخّلت في الأمر ؟ أليس سواء أين وكيف يجد المرء سعادته ! والعواقب ؟ انها رغم كل شيء موجودة دائماً : اذ تبقى في الروح الآثار القاسية لكل شيء ، اي الذكريات ، التي تغدو قاسية على الاخص ومؤلمة حين تستعاد ذكرى سعيدة ما . . . حسنا ، الى اللقاء ، يسرني جدا لقاءك . . .

٢٧ اكتوبر ١٩٤٣

عرّابة

بيوت ريفية في غاب صنوبر بضواحي موسكو . بحيرة ضحلة ومنصة للاستحمام بالقرب من الشطئان الموحلة .

بيت من افخر البيوت الريفية القريبة من البحيرة : البيت شيد بالطراز السويدي ، اشجار صنوبر عتيقة رائعة الحسن ، واحواض زهور زاهية الالوان امام سطحة فسيحة .

تمضي ربة البيت سحابة نهارها في رداء ماتينيه انيق خفيف مزّين بالدنتلا ، متألقة في اعوامها الثلاثين بجمالها البارع المنعم ، والغبطة الوادعة للحياة في الصيف . ان زوجها ينصرف الى مكتبه في موسكو عند الساعة التاسعة صباحا ، ويؤوب في الساعة السادسة مساء ، متين البنيان ، منهك القوى ، جائعا ، وفور ذلك يتوجه للاستحمام في البحيرة قبيل الغداء ، وينضو عنه ملابسه بشعور من الارتياح في موضع الاستحمام الذي يغدو ساخنا على مدى النهار ، وتفوح منه رائحة العرق المعافى ، والجسد القوي المميز لعامة الناس . . .

مساء يوم من ايام أواخر يونيو . لم يرفع السماور من المائدة المنصوبة على السطحة بعد . وإنهمكت

ربة البيت في تنظيف ثمار العليق من اجل صنع المربب . بينما كان صديق زوجها ، الذي حل ضيفا على البيت الريفي لبضعة ايام ، يدخن ويراقب ذراعيها الناعمتين المكتنزتين العاريتين حتى المرفقين . (رجل من هواة اقتناء الايقونات الروسية القديمة المتضلع بها ، وسيم الطلعة ونحيف البدن ، له شاربان قصيران حليقان ، وعينان تفيضان حياة ، يرتدي ملابس هواة رياضة التنس) . كان يراقبها ويقول :

– يا عرّابة ، هل يمكن ان اقبّل يدك ، انا لا استطيع النظر اليك بلا انفعال .

– يداي ملطختان بالعصير ، – وقدمت له مرفقها اللامع .

لثمه بلمسة خفيفة من شفتيه وقال متلعثما :

– يا عرّابة .

– ما القضية يا عراب ؟

– اسمعي هذه القصة : اضاع احدهم قلبه فقال لعقله – وداعا !

– كيف اضاع قلبه ؟

– هذا من ابيات سعدي ، الشاعر الفارسي .

– اعرف ، لكن ما معنى اضاع قلبه ؟

– معنى هذا ان الرجل ولهان . مثلما انا ولهان بك .

– يبدو انك ايضا قلت لعقلك : وداعا !

– نعم ، يا عرابة ، هذا ما قلت .

ابتسمت ذاهلة كما لو انها مشغولة بعملها فقط .

– لك التهاني مني .

– انا جاد .

– بالعافية .

– انها ليست عافية يا عرابة ، بل مرض مبرّح .

– مسكين . لا بد من تلقي العلاج . وهل اصبت به منذ امد بعيد ؟

– منذ امد بعيد ، يا عرابة . اتعلمين منذ متى : من اليوم الذي شاركنا بغتة فيه بتعميد الطفل في اسرة سافيلييف ، – لا افهم ما الذي دعاهم الى استدعائنا نحن الاثنين من اجل تعميده . . . اتذكرين العاصفة الثلجية في ذلك اليوم ، وكيف قدمت ملفعة بالثلج ، منفعلة بالتنقل السريع وبالعاصفة الثلجية ، وكيف نزعت عنك بنفسي معطف فرو السمور ، فدلفت الى القاعة برداء حريري ابيض بسيط ، وتدلى على صدرك المفتوح قليلا صليب صغير مرصع باللؤلؤ ، ثم اخذت الطفل بين يديك مرفوعة الاكمام ، ووقفت الى جانبي عند حوض التعميد ، متطلعة اليّ مبهوتة وطغت على ثغرك شبه ابتسامة . . . حينئذ جمع ما بيننا شيء خفي ، صلة آثمة ، قرابة ما ، لهذا ألمت بنا صبابة خاصة .

— Parlez pour vous. . . •

– ثم جلسنا معا لتناول الفطور ، ولم افقه –

• تحدث عن نفسك . . (بالفرنسية) .

هل كان ذلك عبير الزنابق على المائدة ، عبير السناء والفتوة والنضارة ، ام شذاك . . . ومنذ ذلك الحين ألمّ بي المرض . ليس بوسع احد ان يشفيني عداك .

خزرته بنظرة من تحت حاجبيها :

– نعم ، انا اذكر ذلك اليوم جيدا . اما بشأن العلاج فمن المؤسف ان ديمتري نيكولايفيتش سيبيت الليلة بموسكو ، والا لكان قد استدعى لك على الفور طبيبا جيدا .

– ولِمَ يبيت بموسكو ؟

– في الصباح قال قبيل التوجه الى المحطة ان اليوم سيعقد اجتماع الشركاء المساهمين قبل حلول موسم الاستجمام الصيفي . الجميع سيسافرون ، البعض الى كيسلوفودسك والبعض الآخر الى الخارج

– لكن كان بوسعه العودة بقطار الساعة الثانية عشرة ليلا .

– وحفلة عشاء التوديع والسكر بعد الاجتماع في مطعم «موريتانيا» !

في اثناء الغداء لاذ بالصمت في كآبة ، ثم القى المزحات على حين غرة :

– ماذا لو أسافر الى «موريتانيا» أنا ايضا في قطار الساعة العاشرة ، فأولم واقصف ، واشرب نخب المودّة «برودرشافت» مع مدير المطعم ؟

رنت اليه طويلا :

– تسافر وتتركني وحيدة في البيت الخـــاوي ؟ هكذا تتذكر الزنابق !

ووضعت ساهمة ، كما لو كانت غارقة في التأملات ، راحة يدها على يده الراقدة على المائدة . . .

في الساعة الثانية ليلاً إنسل من مخدعها مرتديا الروب دي شامبر وحده متلمسا طريقه في البيت المظلم الصامت بمصاحبة الدقات المنتظمة للساعات في غرفة المطعم عائدا الى غرفته ، التى كان يتراءى في قتامها عبر النوافذ المفتوحة في الشرفة المطلة على الحديقة ، توهج نور السحر البعيد الجامد الذي لا يخمد طوال الليل . فاح شذى طراوة الغابـــة في الليل . فانطرح منتشيا على الفراش فوق ظهـره ، وتلمس على الطاولـــة الصغيرة الثقاب وعلبـــة السجائر ، دخن بنهم واغمض عينيه ، مستعيـــدا تفاصيل سعادته غير المرتقبة .

في الصباح فاحت عبر النوافذ رطوبة المطـــر الهادئ ، وتناهت من الشرفة الدقات المنتظمـــة لقطراته المتساقطة . فتح عينيه وتحسس في كيانه بتلذذ البساطة الحلوة للحياة العادية ، وفكـــر : «سأسافر اليوم الى موسكو ، وبعد غد سأتوجه الى التيرول او الى بحيرة جاردا» ، ثم استسلم للكرى مرة أخرى .

حين جاء لتناول الفطور لثم يدها بتبجيل ، جلس الى المائدة متواضعاً ، ونشر المنديل . . . قـالت ساعية الى جعل لهجتها على أقصى قدر من البساطة :

– ارجو المعذرة ، لدينا دجاج بارد ولبن رائب فقط . ساشا ، هات النبيذ الاحمر ، لقد نسيت مرة اخرى . . .

ثم قالت دون ان ترفع ناظريها :

– ارجـــوك ، إرحل اليوم . وابلغ ديمتـــري نيكولايفتش بأن لديك رغبة شديدة في السفـر الى كيسلوفودسك ايضا . وسآتي الى هناك بعد نحو اسبوعين ، بينما سابعث به الى القرم لزيـــارة والديـــه ، لديهم هناك بيت ريفي رائـــع في ميسخور . . . شكرا ، ساشا . انت لا تحب اللبن الرائب ، هل تريد جبنة ؟ ساشا ، هات الجبنة رجاء . . .

– «سئل المنافق مرة هل تحب أكل الجبنة» ، – قال ذلك وبدرت عنه ضحكة خرقاء . – يا عرابة . . .

– عرابة بلا قرابة !

امسك بيدها عبر المائدة قائلا بهمس :

– احقا ستأتين ؟

فردّت بصوت عادي ، متطلعة اليه وعلى فمها ابتسامة ساخرة خفيفة :

– وماذا فكرت ، هل انني اخدعك ؟

– كيف لي ان اعبر عن امتناني لك .

فور ذلك دار في خاطره : «هناك ، اغلب الظن سابغضها في الحال كل البغض حين تضع هاتيـــن الجزمتين اللامعتين وتلبس رداء الفروسية «امازونكا» وقبعة السلندر» !

٢٥ سبتمبر ١٩٤٣

البداية

– انا يا سادة عشقت لاول مرة ، او بالاحرى فقدت طهارتي ، في نحو الثانيـــة عشرة من العمر . كنت آنذاك تلميذاً وسافرت من المدينة الى اهلي في القرية بمناسبة أعياد الميلاد ، في احد تلـــك الايام الدافئة الكالحة التي غالباً ما تهلّ في فترة مـا قبل عيد رأس السنة . مضى القطـار وسط غابات الصنوبر غائصا في الثلوج العميقـــة . كانت نفسي طافحة بالسعادة الطفولية والوداعة ، كنت متحسسا ذلك اليوم الشتائي الكالح ، وتلك الثلوج واشجار الصنوبر ، حالمـــا بالزلاقات التـــي تنتظرني في البيت . جلست وحيدا تماما في قمرة الدرجة الاولى المدفأة بشـــدة ، في العربة القديمـــة الطراز – «ميكست» ، المؤلفة من قسمين فقط ، اي من اربع ارائك من القطيفة الحمراء ذات المساند العالية ، – وبدا لي ان هذه القطيفة تجعل الجو اكثر سخونـــة ووخامة ، – واربع كنبات صغيرة من القطيفة ايضا تنتصب عند النوافذ من الجانب الآخر ، وثمة ممـر بينها وبين الارائك . امضيت هناك اكثر من ساعة بلا هموم في وداعة ووحدة . لكن في المحطة الثانيـة بعد المدينة فتح الباب في طرقة العربة ، وفاحـــت

ببهجة رائحة الهواء الشتائي ، فدخل حمال بحقيبتين مغلفتين وجوال مصنوع من القماش الاسكتلندي ، وتبعته سيدة شابة شاحبـــة الوجه بشدة سوداء العينين ، تضع قبعة من الاطلس الاسـود وترتدي معطفا من فـــرو استراخان ، ووراءها سيد فارع الطول بعينين صفراوين كعيني البوم ، يضع قبعة من فرو الايائل مرفوعة الطرفين ، بحذاءين مـــن اللباد تعلوان فوق الركبتين ، كما يرتدي معطفـــا لامعا من جلد الايائل المبطن بالفرو . اما أنا فقـد نهضت على الفور ، بصفتي فتى مهذبا ، وانتقلـــت من الاريكـــة الكبيرة الكائنة بالقرب مـــن الباب المؤدي الى الطرقة الى القســـم الثاني ، ولكن ليس الى الاريكة الاخرى بل الى الكنبة الصغيرة المحاذية للنافذة ، ووجهي يقابل القسم الاول ، بغية ان تتاح لي فرصة مراقبة القادمين : فالاطفال يبدون الاهتمام والفضول ذاتيهمـــا بالاشخاص الجـدد ، كالكلاب ازاء الكلاب الجديدة . وهناك بالذات ، على تلـــك الاريكة ، ضاعـــت عفّتي وطهارتي . حين وضـع الحمال المتاع في الشبكة المعلقة فوق الاريكة التي كنت اجلس عليها لتوي ، وقال للسيد الذي دسّ بيده ورقـــة من فئة روبل : «رحلـــة سعيدة ، يا صاحب السعادة» ، وغادر العربة بعد تحرك القطار ، فاستلقت السيدة فورا على الاريكة تحت الشبكة ، واسندت قذالها على مسند الاريكة القطيفي ، امـــا السيد فسحب الجوال الى الاريكة المقابلة بحركـة

خرقاء وبيدين ما اعتادتا القيام باي عمل ، واخرج منه وسادة بيضاء وناولها اليها دون النظر نحوها . قالت بصـــوت خافت : «شكرا يا عزيـــزي !» ، ودستها تحت راسها واغمضت عينيها ، اما هو فقد نزع المعطف ورماه على الجوال ثـــم وقف بمحاذاة النافذة ، بين كنبتي قسمه ودخن سيجارة ثخينـــة ناشرا في جو العربة الوخيـــم سحب دخانها العطر بغزارة . كان يقف بكل قامته الضخمـــة ، وينتصب الى الاعلى طرفا قبعته المصنوعة مـــن فرو الايائل ، وبدا كما لو انه لا يبعد بصره عن اشجار الصنوبر الجارية الى الوراء ، بيد انني لم ابعد بادئ الامـــر بصري عنه ، ولم اشعر سوى بامر واحد : الحقـــد البالغ عليه لكونه لم يلاحظ البتة وجودي ، وحتـــى لم يرمقني بنظرة ، ولو مرة واحدة ، كما لو لـــم اكن موجودا في العربة ، وبحكم هذا على كل مـــا عداه : لغروره ولاطمئنانه بصفته سيداً ، ولقيافته التي فيها صفات الامراء والموجيك ، ولعينيـــه المدورتين الشرستين ، ولشاربيه وذقنه الكستنائي الذي اهمل لحاله كيفمـــا اتفق ، وحتى لبدلتـــه السميكة والفضفاضة البنية اللون ، ولحذاءيه اللباد الناعمين كالقطيفة الممتدين الى ما فوق الركبتين . لكن لم تمض لحظة واحدة حتى نسيته : اذ تذكرت بغتة ذلك الشحوب المميز للاموات ولكنـــه رائع ، الذي هزّني مـــن الاعماق بلا وعـــي لدى دخول السيدة ، التي ترقد الآن على ظهرها على الاريكـــة

المقابلة لي . فحوّلـــت انظاري اليها – لم اعد ار شيئا اكثر سوى محياهـــا وجسدها ، حتى بلوغ المحطة التالية ، حيث وجب عليّ مغـادرة العربة . تنهدت واستلقت بصورة مريحة اكثر ، انزلـــت راسها الى الاسفل اكثر ، نشرت دون ان تفتـــح ماقيها المعطف الفرو وبان تحتـــه فستان فانيلا ، ونزعت الجرموقين الدافئين بدفع قدم بالاخرى على الارض عن حذاءيها المفتوحين المصنوعين من جلد الشامواه ، نزعت قبعة الاطلس والقتها الى جانبها ، – فبدا شعرهـــا الاسود ولدهشتـــي الكبيـرة مقصوصا بتسريحة قصيرة كالصبيان ، – ثم فكّت من اليمين واليسار شيئا ما عن الاجربة الحريريـة الرمادية ، ورفعت طرف الرداء حتى الجسد العاري بين هذا الشيء والاجربة ، واصلحت وضعية طرف الرداء واستسلمت لغفوة : انفرجت قليلا شفتاهـا القرمزيتان كازهار شجرة اليمام ، لكن النضرتان بانوثة ، وكان ينمو فوقها زغب خفيف قاتم ، وفقد اي تعبير محياها الشاحـــب حتى البياض الشفّاف والناصع ذو الحاجبين والرموش السوداء البارزة جدا عليـــه . . . نـــوم المرأة ، التـــي تشتهيها ، وتجذبك اليها بكل كيانـــك ، – أتعرف ما هذا ! لقد حـــدث لي لاول مـــرة في الحياة ان رأيتـــه وتحسسته ، – قبل هذا كنـــت أرى نوم شقيقتي وأمي ، – وطفقت احدق واحدق بعيني المسمرتين ، وقد جف ريقي في فمـــي ، الى هذا الرأس الاسود

الشعر ذي هيئة امرأة – صبي ، الى محياها الجامد ، الى صفاء بياضه الناصع الذي ينبجس فيه بصورة ساحرة الحاجبان الاسودان الرفيعان والاهداب السوداء الملمومة ، الى الزغب الاسود فوق الشفتين نصف المنفرجتين ، اللتين تعذباننى كل العذاب بجاذبيتهما ، وبدأت ادرك وابتلع كل ما لا يمكن وصفه في جسد المرأة الراقد ، من إكتناز الفخذين ودقة الرسغين ، كما ورايت في ذهني بسطوع بالغ لون البشرة الرقيق الفاتح الحلو لجسد المرأة الذي لا تمكن مقارنته بشيء ، والذي اظهرته لي بمحض الصدفة ، حين فكّت شيئا ما عن الجورب تحت الفستان الفانلا . حين اعادتني الى رشدي فجأة دفعة القطار الذي توقف امام محطتنا ، خرجت من العربة الى الهواء الشتائي الحلو متأرجحا في مشيتي . كانت تقف وراء مبنى المحطة الخشبي زحافة مخصصة لكي تجرها ثلاثة خيول ، مقرونة الى حصانين رماديين ، ترن عليهما الجلاجل ، ووقف ينتظر بالقرب من الزحافة حوذينا العجوز حاملا معطفا من فرو القندس في يديه ، قال لي بلهجة جافة :

– امرت السيدة بان ترتديه فورا من كل بدّ . . .

اندسست طائعا في معطف فرو جدّي هذا ، الذي تفوح منه رائحة الفرو وقرّ الشتاء المنعش وذي الياقة الكبيرة الطويلة الشعر التى استحال لونها الى

الصفرة ، غصت في الزحافة الناعمة الفسيحة ، وتأرجحت مصحوبا بدمدمة الجلاجل الصماء الخافتة فوق الطريق العميقة الثلوج الصامتة وسط الدرب المطروق في غابة الصنوبر ، مغمضا عيني وما برحت متلذذا بما عانيته لتوه ، وافكاري كلها موجهة اليه فقط بغموض وبمرارة مشوبة بالحلاوة ، وليس الى ذلك الشيء الظريف الذي كنت اصبو اليه سابقاً ، وينتظرني في البيت مع الزلاقات والدغفل الذي أُخذ صيفا من وجار ذئبة قتيلة ، ويربض الآن عندنا داخل حفرة في الحديقة ، كانت تنبعث منها رائحة وحش شديدة ورائعة تحسستها منذ الخريف حين جئت الى اهلي لقضاء يومين بمناسبة عيد شفاعة العذراء .

٢٣ اكتوبر ١٩٤٣

«دوبكي»

عهد ذاك كنت يا اصدقائي قد بلغت الثالثة والعشرين من العمر فحسب ، فترون ان القصة قديمة ، منذ أيام نيكولاي بافلوفيتش * اكرم الله ذكراه ، وكنت قد حصلت لتوه على رتبة ملازم ثان في سلاح الفرسان ، وفي شتاء ذلك العام المشهود بالنسبة لي منحت اجازة لفترة أسبوعين ، للتوجه الى ضيعتي في مقاطعة ريازان حيث عاشت أمي وحيدة بعد إنتقال ابي الى رحمة ربه ، وحينما وصلت وقعت بعد قليل في غرام لاشفاء منه : اذ جئت مرة الى ضيعة جدي الخاوية منذ أمد بعيد الواقعة في قرية اسمها بتروفسكويه مجاورة لضيعتنا وأخذت بعدها اتذرع بشتى الذرائع للمجيء الى هناك أكثر فأكثر . والقرية الروسية غير متحضرة حتى يومنا هذا ، بالاخص في الشتاء . فما حالها في أيامي ! وكذا كان حال بتروفسكويه والضيعة الخاوية تلك في أطرافها ،

---

* المقصود الامبراطور الروسي نيكولاي الأول (١٧٩٦ ـ ١٨٥٥) . **المعرب** .

والتي أطلقت عليها تسمية «دوبكي» * ، بسبب نمو عدة اشجار بلوط في مشارفها ، وقد غدت في زماني عتيقة وجبارة ، وتحتها ثمة كوخ قديم بسيط ووراءه منشآت تهدمت بمرور الزمن ، وأبعد منها فسحات خالية لبستان قطعت أشجاره ، تغطيها الثلوج ، وخرائب بيت السادة ذات الفوهات المعتمة للنوافذ الخالية من الاطر . وفي هذا الكوخ الواقع تحت أشجار البلوط كنت أمضي أوقاتي في كل يوم تقريبا ، مسترسلا بالثرثرة حول صغائر شئون الضيعة ، مع لافر عمدتنا الذي كان يعيش فيه ، حتى عمدت بدناءة الى كسب صداقته ، وكنت أسترق النظرات الكئيبة الى أنفيسا زوجته الصموت ، التي كانت أشبه باسبانية منها الى فلاحة روسية من الاقنان . كانت أصغر سنا بما يكاد يعادل الضعفين من لافر ، الرجل المفتول العضل ، ذي الوجه القرميدي واللحية الحمراء القاتمة ، الجدير بان يغدو رأس عصابة من قطاع الطرق في ضواحي موروم . في الضحى كنت أطالع كل ما يقع بين يدي ، وأعزف على البيانو بلا مهارة مردداً الاغاني بصبابة «متى دعوتني يا روح الى الهلاك او الهيام . .» ، وبعد تناول الغداء كنت أسعى الى «دوبكي» لأبقى هناك حتى المساء دون ان أعير أهمية للرياح القارسة

---

* كلمة «دوبكي» ـ تصغير لكلمة «دوب» الروسية تعني أشجار البلوط . **المعرب** .

وللعواصف الزاحفة الينـــا باستمرار من سهوب ساراتوف . هكذا مضت أيام ما بعد عيد الميلاد حتى عيد التعميد ، واقترب موعد عودتي الى الخدمة . وهذا ما ألمعت إليه الماما الى لافر وانفيسا متظاهراً بعدم التكلف . أبدى لافر ملاحظة معقولة هي ان خدمة القيصر تأتي في المرتبة الأولى ، وعندئذ غادر الكوخ لأمر ما ، اما انفيســا التي كانت منهمكة باشغال الابرة في يديها فقد اسقطت هذه الاشغال في حضنها على حين غرة ، وتطلعت في أعقاب زوجها بمقلتيها الاسبانيتين ، وحالما اصطفق الباب وراءه حولتهما بسرعة نحوي بشبق وقالت بهمس ينم عن انفعال :

– سيدي ، غداً سيسافر الى المدينة والمبيت هناك فتعال الي لتزجية أوقات المساء وتوديعك . لقد تكتمت والآن سأخبرك – سيحزنني فراقك !

اما أنا فقد صعقت لمثل هذا الاعتراف ، ولحقت فقط في الايماء برأسي علامة الموافقة – إذ عاد لافر الى الكوخ .

بعد ذلك استبد بي – كمـــا تدركون – نفاد الصبر في انتظار حلول يوم غد . ولم أدر ما أفعله بنفسي ، وانحصر فكري في أمر واحد : سأبصق على مستقبلي ، واترك الكتيبة ، وأبقى في القرية الى الأبد ، واربط مصيري بمصيرها بعد وفاة لافر – وهكذا دواليك . . . «اذ قعدت به السن – جال هذا بخاطري رغم ان لافر لم يبلغ بعد الخمسين من العمر – ولا بد ان يتوفاه الاجل قريبا . . .» . في نهاية

المطاف أدبر الليل ، ظللت حتى مطلع الفجر تارة أدخن الغليون ، وتارة احتسي «الروم» ، دون ان أثمل ، وما أنفك أوغل في احلامي الطائشة متحرقا ، ثم انقضى النهار الشتوي القصير ، وبدأ يدلهـــم الظلام ، وتعالت في الفناء عاصفة ثلجية هوجاء . فكيف اغادر البيت في مثل هذا الجو وما الذي سأقولـــه لأمي ؟ أنا حائر مرتبك ، لا أعرف ما ينبغي علىّ فعله .وعلى حين غرة مرقت فكرة بسيطة في رأسي : سأذهب خفية ، وتحل المشكلة ! تظاهرت بالتوعك ، وقلت انني لن اتناول طعـــام العشاء ، وسأمضي لأوي الى مضجعي . وحالمـا تناولت امي طعامهـــا وانصرفت الى مخدعها ، – فقد اقبل الليل الشتائي المبكر – ، ارتديت ملابسي بعجلة بالغة ، وهرعت الى كوخ السائسين وأمرت باعداد زحافة خفيفة وانطلقت فيها . اجتاحت الفناء عاصفة ثلجية فلم يعد يرى شيء في ظلامها الأبيض لكن الحصـــان كان يعرف الطريق ، فتركته يمضي لشأنه ، ولم يكد يمضي نصف الساعة حتى لاحت وسط الظلام الأشبـــاح القاتمة لأشجار البلوط الهادرة فوق الكوخ المنشود ، وومضت نوافذه عبر الثلج . ربطت الحصان الى شجرة بلوط ، والقيت عليه الغطاء ، – واندفعت هائجا ، عبر الكثيب الثلجي الى مدخل الكوخ المظلم . تلمست طريقي فيه وتجاوزت متخطيا العتبة ، فوجدتها في أبهى حلة ومتبرجة في زينتها ، وكانت تجلس في ضوء عود انارة متألق ينبعث منه دخان أحمر على مصطبة

بالقرب من المائدة المنصوبة بكل ما لذ وطاب وعليها غطاء أبيض ، وكل نظراتها تنم عن انتظاري ، كان كل شيء حوالي يومض متأرجحاً ومهتزا في هذا التالق والدخان ، لكن مقلتيها تبدوان عبرهما بجلاء ، فقد كانتا واسعتين وتنظران بالحـــاح بالغ ! لقد وضع عود الانارة في مسنده فوق عارضة الموقد وتحته وعاء خشبي فيه ماء ، كانت تنبعث منه زمزمة ويعشي البصر بلهيبه السريع القاني ، وتنطلق منه الشرارات التي تنزّ بفحيح لدى سقوطها في الماء ، وعلى المائدة ثمة طبق جوز وبقصم هش ، وقنينـــة شراب ، وقدحان ، اما هي فجلست بالقرب من المائدة وظهرها الى النافذة البيضاء بفعل الثلج ، وترتدي سارافانا حريريا ليلكي اللون ، وقميصا قطنيـــا ذا ردنين فضفاضين ، وتحلى جيدهـــا بعقد من المرجـــان – وشعرها الفاحم الاسود الذي يمكن ان تفتخر به اية حسناء ارستقراطية قد صفف بتسريحة مستقيمـــة ومفروق من الوسط ، وتدلى قرطان فضيـــان من أذنيها . . . حين وقع بصرهـــا عليّ هبت للقائي فاسقطت عني في لحظة خاطفة القبعة المغطاة بالثلج والمعطف المبطـــن بفرو الثعلب ودفعتني نحـــو المصطبة ، وفعلت هذا كله كما لو كانت في نوبة جنون ، خلافا لكل أفكاري السابقة عن كونها منيعة لا تلين ، – اندفعت الى أحضاني وطوقتني بذراعيها ضاغطة الى وجهي خديها الساخنين . . .

– ما لك تكتمت ولم تفصحي عن نفسك فانتظرت

لحظة افتراقنا ؟

فاجابت باستماتة :

– اه ، وماذا كنت أستطيع ان أفعل ؟ كان قلبي يستبد به الكرب حين كنت تأتي الينا . ولاحظت لواعج نفسك ، كما انني شديدة العزم فكبحت جماح عواطفي ! وانىّ لي ان اكشف لك عن عواطفي ؟ فلم يتفق لي ان أبقى معك وجها لوجه ، بينما لا استطيع بحضوره الكشف عن ذاتي حتى بنظرة ، فهـــو ثاقب البصر كالنسر ، ولئـــن لاحظ أمراً فسيقتلني ، بلا رحمة !

وراحت تحتضنني مرة أخرى ، وتضغط على يدي الوجلة ، وتضعها على ركبتها . . . كنت أتحسس جسدها على ساقيّ عبر السارافان الخفيف ، ولم أعد قادرا على ضبط نفسي ، وبغتة اعتدلت في جلستها بحدة وبحذر ، ونهضت متطلعة في وجهي وكأنهـــا بيثيا * .

– أتسمع ؟

اصخت السمع دون ان أسمع شيئا سوى ضجيج الثلج وراء الجدار : فما الذي سمعته ؟

– جاءنا أحد ما ! لقد صهل حصان ! إنه هو !

هرعت وجلست وراء المائدة مغالبة أنفاسهـــا وطفقت تتحدث بصوت عال واعتيادي ، وهي تصب من القنينة بيد مرتجفة :

* كاهنة في معبد الاله الاغريقي ابولو في دلفـــي . المعرب .

– اشرب يا سيدي . لكي لا يصيبك البرد حين تنصرف . . . في هذه اللحظة بالذات دخل الكوخ ، وقد غطاه الثلج ، يعتمر قبعة ويرتدي معطفا من فرو الضأن ، فنظر الي وقال :

– مرحبا يا سيدي – ووضع بهمة معطف الفرو على دكة الموقد ونزع القبعة ، ونفضها ، ومسح وجهه ولحيته المبللين بطرف معطفه وقال بلهجة وئيدة :

– يا له من طقس ! وصلت بعد لأي الى بولشيه دفوري وجال في خاطري – لا ، ستهلك ، لن تصل – عجت على نزل ، وتركت الفرس تحت السقيفة حيث لا تهب العاصفة ، وقدمت لها العلف ، بينما دلفت نفسي الى الكوخ ، لتناول حساء الملفوف ، اذ وصلت في موعد الغداء بالذات ، وهكذا ظللت جالساً حتى المساء تقريباً . ثم فكرت – ايه ، مهما يحدث ، دعني أتوجه الى البيت فعسى ان يساعدني الرب في الوصول ، – فلا حاجة لي الى المدينة ، والأعمال في مثل هذا الجو الرهيب ! وها انذا قد وصلت ، والحمد لله . . .

لذنا بالصمت ، جالسين مصعوقين ، وقد بلغ بنا الاضطراب أقصاه ، وأدركنا انه فهم كل شيء فورا ، وبينما لم ترفع أهدابها كنت أنظر اليه احيانا . . . لا بد لي من الاعتراف بان مظهره كان مثل لوحة فنية ! بدا ربعة ، عريض المنكبين ، وقد تمنطق بحزام أخضر من الحبال مشدود بقوة على معطفه القصير المزين بنقوش تترية ، وانتعل حذاءي لباد

متين من صناعة قازان ، ووجهه القرميدي قد احمر بتاثير الريح ، واللحية تلتمع بالثلج الذائب ، وعيناه تشعان بالذكاء المتوعد . . . اقترب من عود الانارة وأشعل عودا جديدا ، ثم جلس الى المائدة ، وتناول القنينة باصابع غليظة ، وصب قدحا ، وشربه حتى الثمالة وقال وقد أعرض عني بوجهه :

– لا أعرف يا سيدي كيف ستصل الآن الى البيت . كان لا بد لك ان تذهب منذ وقت طويل ، فقد تغطى حصانك كله بالثلج ، وبات ينوء بثقله . . . لا تزعل لانني لن أخرج لتوديعك ، اذ بلغ بي الاعياء أقصاه طوال النهار ، كما انني لم أر زوجتي خلال اليوم كله ، ولدي حديث معها . . .

لم أتفوه بكلمة ، فنهضت ، وارتديت معطفي وانصرفت . . .

في فجر اليوم التالي جاء رسول من بتروفسكويه وقال : لقد عمد لافر ليلا الى شنق زوجته بحزامه الأخضر من خطاف حديد في أعلى الباب ، وفي الصباح جاء الى بتروفسكويه وأبلغ الفلاحين :

– لقد داهمتني يا جيران مصيبة . اذ شنقت زوجتي نفسها ، يبدو انها أصيبت بلوثة في عقلها . لقد استيقظت عند الفجر ، فوجدتها معلقة ووجهها أزرق ، وتدلى رأسها على صدرها . انها تزينت لأمر ما ، وتبرجت ، وتدلت مشنوقة ، دون ان تبلغ قدماها الأرض بقدر ضئيل . . . فارجو يا أهل الخير ان تشهدوا على ذلك .

نظر الفلاحون اليه وقالوا :

– يا للعجب ، ماذا فعلت بنفسها . ومالـــك يا عمدة بهذه الهيئة : لحيتك منتوفة ووجهك كله مخدّش بالاظافر والدم ينزف من عينيك ؟ اربطوه يا شباب !

جُلد بالسياط ونفي الى سيبيريا ، الى المناجم .

٣٠ اكتوبر ١٩٤٣

في ساعـــة متاخرة من المساء سعى في ضوء البدر ماشياً في بولفار تفيرسكوي ، وسعت هي للقائه : كانت تمشي الهوينا واضعة يدها في موفة صغيرة ، ومعتمرة قبعتها المصنوعة من فرو استراخان المائلة قليلا على رأسها وتديره نحو هذه الجهة او تلك ، مرددة لحناً ما مع نفسها . حين اقتربت منه توقفت :

– الا تريد مرافقتي ؟

نظر اليها : كانت صغيرة القامة ، فطساء ، عريضة الوجنتين لحد ما ، وعيناها تسطعان في نور المساء الخابي ، وتضيء محياها ابتسامـــة حلوة تنم عن ارتباك وحيرة ، وصوتها رائق في السكون والهواء البارد الصرود . . .

– ولم لا ، بكل سرور .

– وكم ستدفع ؟

– روبلاً للغرام ، وروبلاً للدبابيس .

فكرت هنيهة وقالت :

– هل بيتك بعيد ؟ ان كان قريبا سأذهب ، وبعدك سأجد الفرصة لايجاد زبائن آخرين .

– على بعد خطوتين ، هنا في تفيرسكوي ، في فندق «مدريد» .

– آه ، اعرف ، لقد ذهبت الى هناك نحو خمس مرات . اخذني اليه احد المحتالين في لعب الورق . يهودي ، لكنه طيب القلب للغاية .

– انا طيب القلب ايضا .

– هذا ما جال في خاطري . انت لطيف ، واعجبتني على الفور . . .

– اذن ، هيا بنا .

في الطريق طفقت اتفحصها ، – فتاة ظريفة لا تضارع ! واخذت اسالها :

– لم انت وحيدة ؟

– انا لست وحيدة ، نحن نخرج ثلاثتنا دائما معا : انا ومور وانيليا . كما نحن نعيش معا . لكن اليوم هو السبت ، وقد اخذهما اثنان من الباعة . بينما لم يأخذني أحد طوال المساء . لا يرغب الرجال فيّ كثيرا . انهم يحبون الممتلئات اكثر ، او ان يكنّ مثل انيليا . فرغم نحافتها تجدها فارعة القوام وجسورة . مغرمة بشرب الخمر . كما تجيد الغناء مثل الغجر . انها ومور لا تطيقان الرجال ، وتحبان احداهما الاخرى حبّاً جمـــاً . وتعيشان مثل زوج وزوجة . . .

– هكذا ، هكذا ، مور . . . وانت ما اسمك ؟ لكن لا تكذبي ولا تختلقي . . .

– اسمي نينا .

– ها انت تكذبين ، دعك تقولين الحقيقة .

– حسنا ، ساخبرك وحدك ، بوليا .

– يبدو انك بدأت هذه الحياة منذ فترة وجيزة .

– لا ، منذ وقت بعيد ، منذ الربيع . ما لك تسأل كل هذه الاسئلـــة . خير لك ان تعطيني سيجارة . لا بد وانك تدخن الاصناف الفاخرة منها ، واي معطف وقبعة لديك !

– ساعطيك حين نصل الى الفندق ، ان التدخين في جو الزمهرير ضارّ .

– كما تريد ، ونحن ندخن في جو الزمهرير دائما ، دون اي عواقب . لكن التدخين مضر لانيليا ، فهي مصابة بالسلّ . . . لم انت حليق الذقن والشاربين ؟ كان هو الآخر حليقا .

– هل تقصدين المحتال ذاك ؟ لقد ظل في ذاكرتك الى ابد الابدين !

– انا ما برحت اتذكره حتى الآن . لقد كان ايضا مصابا بالسل ، بينما كان يكثر من التدخين . كان مضيء النظرة ، جاف الشفتين ، منبعج الصدر وغائر الخدين المسودين اسودادا . . .

– زد على ذلك ان معصميه مشعران بشعان . . .

– حقا ، حقا ، وهل تعرفه ؟

– عجيب ، من اين لي ان اعرفه !

– ثم سافر بعـــد هذا الى كييف . وقد جئت لتوديعه في محطـــة بريانسكي . لم يكن يعرف انني سآتي لتوديعه . حين وصلت كان القطار قد

تحرك . فهرولت وراء العربات ، وفي تلك اللحظة بالذات مد رأسه من النافذة ، رآني ، فلوّح بيده ، وطفق يصيح انه سيعود قريبا ، وسيجلب لي مربيا جافا من كييف .

– ولم يرجع ؟

– لا ، يبدو انه اودع السجن .

– ومن اين عرفت انه محتال في القمار ؟

– لقد اخبرني بهذا نفسه . اذ اسرف في شرب نبيذ بورتو ، واستبدت بـــه الكآبة وابلغني . وقال : انا محتال في القمار ، سواء بسواء كاللص ، لكن ما العمل . لربما انت ممثل ؟

– شيء من هذا القبيل . هاقد وصلنا . . .

كان ثمة مصباح صغير ينير عـــلى المكتب ، في غرفة الاستقبال الخاوية ، وعلقـــت على لوحة في الجدار مفاتيح الغرف . حين اخذ مفتاحه همست له :

– كيف تترك المفتاح ، فسيسرقونك !

رنا اليها بجذل اكثر فاكثر :

– لئن سرقوني فسيكـــون مصيرهم النفي الى سيبيريا . لكن يا لروعة محياك !

ارتبكت .

– انت تسخر مني . هيا ، لخاطر الله ، لنذهب بسرعة . اذ لا يسمح مع هذا باقتياد امراة في مثل هذه الساعة المتأخرة .

– لا عليك ، لا تخافي ، ساخبئك تحت السرير . كم لك من العمر ؟ ثمانية عشر عاما ؟

– عجيب امرك ! تعرف كل شيء ، ولجت عامي الثامن عشر .

صعدا في السلالم الشديدة الانحدار ، فوق بساط متهرئ واستدارا نحو دهليز ضيـــق شبه معتم ووخيم جدا ، فتوقف محاولاً دس المفتاح في ثقـــب الباب ، بينما وقفت هي على اطراف اصابعها ونظرت الى رقم الغرفة .

– رقم خمسة ! بينما كان يعيش في الغرفـــة الخامسة عشرة في الطابق الثالث . . .

– ان حدثتني ولو بكلمة واحدة اخرى عنـــه فسأقتلك .

إلتوت شفتاها بابتسامة رضى ، ودخلت متأرجحة قليلا في مشيتها الى مدخل الغرفة المضاء ، وراحت تفك ماشية ازرار معطفها ذي الياقة المصنوعة مـن فرو استراخان :

– انت خرجت ونسيت اطفاء النور . . .

– لا حرج عليه . اين منديلك ؟

– ما حاجتك اليه ؟

– لقد تـــورد وجهك ، ومـــع هذا استبرد انفك . . .

فادركت مراده ، استلت من الموفة بسرعـــة منديلا مدعوكا ، مسحـــت أنفها . لثم خدها البارد وطبطب على ظهرها . نزعت القبعة ، نفضت شعرها وراحت تنزع البوط من قدمها وقوفا . لكن البوط

لم ينزع . فجاهدت في نزعـــه وكادت ان تسقط ، تشبثت بكتفه مطلقة ضحكة رنانه :

– اوي ، كدت اسقط !

نزع المعطف عن فستانها الاسـود ، الذي تفوح منه رائحة القماش وعرق جسدها الدافئ ، اقتادها بحركة خفيفة الى الغرفة نحو الاريكة :

– اجلسي ، هات قدمك .

– لا ، سأنزعه بنفسي . .

– قلت لك اجلسي .

جلست ومدت قدمهـا اليمنى . فركع على ركبة واحدة ، ووضع قدمها على ركبته الاخرى ، بينمـا انزلت بخجل طرف فستانها على الجورب الاسود :

– يا رب ، يا لك من غريب الاطوار ! حقا ، ان البوطين ضيقان جدا . . .

– صه !

نزع البوطين بعجلة الواحد تلو الاخر سوية مع الحذاءين ورفع طرف الفستان عن ساقها وطبع قبلة طويلة على جسدها العاري فوق الركبة ونهض بوجه كالقرمز :

– هيا ، بسرعة . لا استطيع . . .

– ماذا لا تستطيع ؟ – سألتـــه واقفة عـــلى السجادة بقدميها الصغيرتين بالجوربيـن وحدهما ، وبدت اقصر قامة مما يثير الشفقة والحنان .

– هل انت حمقـــاء تماما ! انني لا استطيـع الانتظار ، – مفهوم ؟

– عليّ ان انضو عني ملابسي ؟

– لا ، البسيها !

ثم ادار لهـــا ظهره ودنا من النافذة وأشعـــل سيجارة بعجلة . كانت فوانيس الشارع تومض في ضوء البدر الباهت بنور خـــاب وراء طبقتي زجاج النافذة ، الذي علاه الصقيع من الاسفل ، ويسمـع رنين جلاجل عربات «جولوبكى» المنطلقـة في بولفار تفيرسكوي بمحاذاة الفندق . . . بعد هنيهة هتفت قائلة :

– لقد استلقيت . .

اطفأ النور ونزع ملابسه كيفما اتفق ورقد تحت اللحاف معها . فتعلقت به مرتجفة بكل كيانها وهمست بضحكة متقطعة سعيدة :

– لكن ارجوك لا تنفـــخ في رقبتي ، فسأصرخ باعلى صوتي ، انا اخاف الدغدغة كل الخوف .

بعد ذلك بساعة غرقت في سبات عميـق . صار يتطلع راقدا الى جانبها في شبه العتمة ، المشوبـة بالضوء العكر المنساب من الشارع ، مفكرا في حيرة لا يفقه فحواها : كيف يمكن ان يحـدث في الصباح ان تنصرف الى مكان ما ؟ الى اين ؟ انها تعيش مـع فاجرتين ، فوق محل غسيل في الاغلـــب ، وتمضي معهن في كل مساء كما لو انها ذاهبة الى العمل ، من اجل ان تكسب مـــن مضاجعة حيوان ما مبلـــغ روبلين . اية براءة طفولية ، وغباء ساذج طيب !

انا ايضا سابدا كما يبدو «بالصراخ باعلى صوتي» ، حين تعتزم الذهاب غدا . . .

– بوليا ، – قال هذا ماسا كتفها العارية .

فاستيقظت فزعة :

– اه ، يا الهي ! ارجـــو المعذرة ، لقد غفوت بالصدفة تماما . . . حالا ، حالا . .

– ماذا ، حالا ؟

– سانهض الآن ، ارتدي ملابسي . . .

– كلا ، لنتناول طعام العشاء . لن اسمح لـك بالانصراف حتى الصباح .

– مستحيل ، مستحيل ! والبوليس ؟

– هراء . لدي قنينـــة «مادیرا» ليست اسوا البتة من نبيذ بورتو لصاحبك المحتال .

– مالك تواصل معاتبتي به ؟

اشعل بغتة الضوء الـــذي بهر عينيها بحدة ، فدست وجهها في الوسادة . سحـــب اللحاف عنها ، وطفق يلثمهـــا في القذال فهزت ساقيهـــا بفرح ونشوة :

– اوي ، لا تدغدغني !

جلب من رفّ النافـــذة كيسا ورقيا فيه تفاح وقنينة «مادیرا» من كروم القرم . تناول قدحين من المغسل ، ثم جلس مرة اخرى على السرير وقال :

– هاك كلي واشربي ، والا فسأقتلك .

قضمت تفاحة بعنف وطفقت تمضغها ، راشفـــة المادیرا ، وقائلة بتأمل :

– وماذا تعتقد ؟ فلربما سيقتلني احدهم . تلكم مهنتنا .

الواحدة منا تمضي الى حيـــث لا تدري ، كما لا تدري مع من ، بينما هو اما سكير او معتوه ، واذا به يهجم عليها لخنقها او ذبحها . . . ان غرفتـــك دافئة جدا . انا عاريـــة تماما بينما احس بالدفء طوال الوقت . هل هـــذه مادیرا ؟ لكم احببتها . لا مجال لمقارنتها بالبورتو . اذ تنبعث منه رائحـــة الفلّين دائما .

– ليس دائما .

– لا حقا ، تفوح منه رائحة الفلّين . حتى لـو دفعت روبلين مقابل القنينة فالامر سواء .

– اذن ، لأصب لك قدحا آخر . لنقرع الاقداح ونشرب ونتبادل القبلات . حتـى الثمالة ، حتـــى الثمالة .

احتست النبيذ بعجلـــة بالغة حتى اصابهـــا الاختناق ، وانفجرت من السعال ، واسقطت رأسهـا على صدره ضاحكة . رفـــع راسها ولثم شفتيهـا المبللتين المزمومتين بافتعال .

– هل ستأتين لتوديعي في المحطة .

فغرت فاها بدهشة :

– ستسافر انت ايضا . الى اين ؟ متى ؟

– الى بطرسبورج . وليس قريبا .

– الحمد لله ! بعد الآن ، سآتي اليك فقط . هل تود ذلك ؟

– اود ان تزوريني وحدي فقط !

– لن اذهب الى اي احد آخر مهما دفع لي من مال .

– اذن اتفقنا . والآن حان موعد النوم .

– علىّ قضاء حاجتي . . .

– هنا ، في الخزانة الصغيرة .

– اشعر بالخجل امامك . اطفأ النور للحظة . . .

– ساطفأه نهائيا . الساعة تقارب الثالثة . .

رقدت على ذراعه في الفراش ، ضاغطة بكل جسدها اليه ، لكن فعلت هذا عندئذ بهدوء وحنان ، بينما راح يقول :

– غدا ، سنتناول الفطور معا . . .

رفعت رأسها بسرعة :

– اين ؟ ذهبت مرة الى مطعم «تيريم» انه يقع وراء قوس النصر* ، الطعام هناك رخيص كما لو كنت تأكل مجانا ، ويقدمون كمية كبيرة لا تستطيع التهامها كلها .

– سنقرر فيما بعد ، اين سنتناوله . ثم ستذهبين انت الى البيت بغية الا تعتقد صاحبتاك الفاجرتان ان احدهم قتلك . كما توجد لدي بعض المشاغل ، وفي الساعة السابعة تعالي اليّ مرة

---

* شيد عام ١٨٣٤ تخليدا لانتصار القوات الروسية على نابليون . **المعرب** .

اخرى ، سنذهب لنتناول الغداء في مطعم باتريكييف ، وسيعجبك المكان – اوركسترا وعازفو بالالايكا . . .

– ثم نذهب الى «ايلدورادو» . حسنا ؟ يعرض هناك الآن فيلم بديع «الميت الهارب» .

– رائع . والآن – نامي .

– حالا ، حالا . . . لا ، ان مور ليست فاجرة ، بل هي في غاية التعاسة . وبدونها كنت ساضيع وساهلك . .

– كيف ؟

– انها ابنة عم ابي . . .

– وبعد ؟

– كان ابي يعمل عامل تعشيق العربات في محطة القطار بمدينة سيربوخوف ، وهناك سحقته المصدّتان في صدره ، بينما توفيت امي حين كنت صغيرة ، وهكذا اصبحت وحيدة في الدنيا ، فسافرت الى مور فى موسكو ، وتبين انها لم تعد منذ وقت بعيد تعمل خادمة في الفندق . اعطوني عنوانها في مكتب العناوين ، وجئت اليها راكبة عربة حاملة سلة ، الى سوق سمولينسكي . فوجدتها تعيش مع انيليا هذه وتسعى في الامسيات معها الى البولفارات . . . أبقتني معها ثم اقنعتني بالذهاب معهما انا الاخرى . . .

– وتقولين انك كنت ستضيعين بدونها .

– واين كنت سامضي لوحدي في موسكو ؟

طبعا ، انها اودتني الى التهلكة ، لكن هل كانت تريد بى سوءاً ؟ على كل حال ما فائدة الحديث عن هذا الآن . لربما سأجد بعون الرب عملا كخادمة في الفنادق ايضا ، وآنذاك لن اتخلى عن العمل ابدا ، ولن ادع احدا يمسني ، فيكفيني البقشيش ، ناهيك عن الأكل والثياب مجانا . لو تسنى لي ايجاد عمل هنا في «مدريد» فلن اتمنى شيئا افضل من هذا !

– سأفكر فى هذا . لربما سأجد لك عملا في مكان كهذا .

– لقبلت عندئذ الارض بين قدميك !

– لكي تكون النهاية حالمة وردية . . .

– ماذا ؟

– لا ، لا شيء ، انا احلم . . . نامي .

– حالا ، حالا . . لقد غرقت فعلا في التأملات والاحلام . . .

٢٦ ابريل ١٩٤٤

الابريق الثانى

كانت له موديلا عاريا وعشيقة وربة بيت – تعيش معه في مرسمه الواقع في شارع زنامينكا : شقراء ، غير طويلة القامة ، لكنها حلوة القد ، في ريعان الشباب ، جميلة الوجه ، حانية . وعهد ذاك انهمك في رسم لوحة «المستحمّة» معتمدا اياها كنموذج : فكانت تقف على منصة صغيرة وكأنها عند جدول في الغابة ، دون ان يقر عزمها على النزول الى الماء ، حيث ينبغي ان تحدق الضفادع مبحلقة ، كانت تقف عارية تماما ، بجسدها الريان المميز للنساء من عامة الناس ، مغطية بيدها الشعيرات الشقراء الذهبية في اسفل بطنها . عمل نحو ساعة ، ثم ابتعد عن مسند لوحته ، وحدق فيها من هذه الناحية وتلك ، ثم قال ساهما وموصوصا عينيه :

– لنأخذ فترة استراحة . سخّني ابريق القهوة الثاني .

اطلقت تنهدة متنفسة الصعداء ، وجرجرت بقدمين حافيتين ماشية فوق الحصير الى ركن المرسم ، حيث موقد الغاز . طفق يقشط شيئا ما

من اللوحة بسكين رفيع ، فانبعث الضجيج من الموقد ، وفاحت رائحة حامضية من فوهتي الاحتراق الخضراوين فيه وشذى رائحة القهوة ، بينما اطلقت عقيرتها في الغناء بصوتها العذب :

رقدت السحابة ، السحابة الذهبية
في احضان صخرة عملاقة . . بهية !

التفتت اليه ، وقالت بابتهاج :

– علمني اياها الرسام يارتسيف . هل كنت تعرفه ؟

– عرفته بعض الشيء . هل كان نحيف القوام طويلا نوعا ما ؟

– بالضبط .

– كان موهوبا ، لكن في غاية الحماقة . اظنه توفي ؟

– توفي ، توفي . من الافراط في الشرب . لا ، كان رجلا طيبا . عشت معه عاما كاملا ، كحالي معك . كما اغتصبني في الجلسة الثانية لا غير . فابتعد عن المسند على حين غرة ، ورمى لوحة الالوان والفرش ، وطرحني أرضا على السجادة . استبد بي الفزع الى حد انني لم استطع حتى الصراخ . وتشبثت بصدره ، بالجاكتة ، بيد انني عجزت عن مقاومته ! كانت عيناه تنمان عن الجنون ، والنشوة . . . وكأنما نحرني بسكين . .

– بلى ، بلى ، لقد رويت لي هذه القصة . انت شاطرة . مع ذلك كنت مغرمة به ؟

– طبعا ، احببته . كنت اخافه اقصى الخوف . فتجده يعمد الى اغتصابي وهو سكران ، مما لا اتمناه لأحد . واصمت انا بينما يصرخ فيّ : «كاتكا ، صه !»

– حقير !

– سكير . يصرخ في المرسم : «كاتكا ، صه !» وانا صامتة اصلا . ثم يرفع عقيرته في الغناء : «رقدت السحابة . . .» ثم يتحول على الفور الى كلمات اخرى : «رقدت الفاجرة ، الفاجرة الفتية . . .» – يقصد انا . المرء قد يموت من فرط الضحك . ومرة اخرى – يدق الارضية بقدمه : «كاتكا ، صه !»

– حقير . لكن مهلا ، لقد نسيت : اذ جاء بك الى موسكو احد اعمامك ؟

– عمي ، عمي . لقد تيتمت في سن السادسة عشرة . فجاء بي ، الى عم آخر ، صاحب نزل للحوذية . كنت اغسل الصحون فيه ، واغسل الملابس والبياضات لأصحاب النزل ، ومن ثم ازمعت زوجة عمي على بيعي الى دار للبغاء . كانت ستبيعني لو لم ينقذني الربّ . اذ اتفق ان جاء في الفجر من مطعم «ستريلنا» شاليابين وكوروفين *

* فيدور شاليابين – مغنٍ روسي عظيم ، قسطنطين كوروفين – رسام روسي . **المعرب** .

لكسر الخماوية ، ورايا كيف كنت احمل الى المائدة مع الندل رودكا السماور الكبير ، ذى سعة دلو كامل ، وصارا يهتفان ويقهقهان : «صباح الخير ، كاتينكا ! نود ان تقدمي الطلبية لنا انتِ ، وليس ابن الكلب ، الندل ، هذا !» وكانهما قد حدسا بأن اسمي كاتيا . استيقظ عمي من نومه ، خرج ، وتثاءب ، وتجهّم وقال – هذا ليس عملها ، ولا يمكن ان تتولى خدمتكما . فزمجر شاليابين صارخا : «سأذيقك الموت في سيبيريا ، وسأضعك في القيود – أطع اوامري !» وعلى الفور ارتعب عمي ، وانا ايضاً ، ارتعبت غاية الرعب ، وهممت باظهار العناد ، بينما همس لي عمي : «اذهبي لخدمتهما ، والا سأسلخ جلدك فيما بعد ، هذان من اشهر الناس في موسكو كلها» . وكان ان سعيت ، وتفحصني كوروفين من قمة الراس الى اخمص القدمين ، ونقدني عشرة روبلات ، وأمر بأن اذهب اليه في اليوم التالي ، اذ قرر ان يرسم صورة لي . اعطاني عنوانه . فجئت اليه ، وكان قد غيّر فكره ، فارسلني الى الطبيب جولوشف ، وكان صديقا حميما لجميع الرساميين ، ويتولى فحص السكارى والاموات لدى البوليس ، ويمارس الرسم قليلا ايضا . وهو الذي جعلني في متناول ايدي الرسامين ، وأمرني بعدم العودة الى النزل ، وهكذا بقيت برداء واحد فقط لا امتلك غيره .

– كيف جعلك في متناول ايدي الرسامين ؟

– هكذا . اخذت ارتاد المراسم . في البداية كنت اصوّر بملابسي كلها ، في منديل رأس اصفر ، وامام الرسامات فقط ، مثل كوفشينيكوفا ، شقيقة تشيخوف ، – والحق يقال انها طارئة على شغلتنا ، هاوية عابرة ، – ثم ارتدت' مرسم ماليافين نفسه ، فاجلسني القرفصاء عارية ، وظهري اليه ، ماسكة بقميص فوق رأسي كما لو كنت ارتديه ، ورسمني . لقد ابدع في رسم الظهر والعجز ، بألوان ثخينة ، بيد انه اتلف العمل برسمه الكعبين وباطني القدمين ، اذ جعلهما ملتوية تماما بهيئة بشعةتحت العجز . . .

– هيا ، كاتكا صه . الجرس الثاني . هاتي ابريق القهوة .

– آه ، الهي ، لقد استرسلت' في الحديث ! سأجلبه ، سأجلبه . . .

٣٠ ابريل ١٩٤٤

خريف بارد

في يونيو من ذلك العام حلّ ضيفا على ضيعتنا – فقد كان يعد دوما شخصا مقرّباً من أهل البيت : اذ كان المرحوم والده صديق وجار والـــدي . في الخامس عشر من يونيو اغتيل فردناند في سيراجيفو . وفي صباح السادس عشر منه جُلبتْ الصحف من دائـــرة البريد . خرج ابي من مكتبه حاملا جريدة مسائية موسكوفية في يديه ودلف الى غرفة الطعام حيث ما لبثنا ، هو وماما وانا ، جالسيـــن وراء المائدة لتناول الشاي ، وقال :

– انها الحرب يا اصدقائي ! لقـــد اغتيل في سيراجيفو ولي العهد النمساوي . انها الحرب .

في عيد القديس بطرس وفد علينا ضيـــوف كثيرون ، – فهو يوم عيد القديس الملاك الحارس لوالدي ، – وفي اثناء الغداء اعلنت خطوبته – هو – لي . لكن في التاسع عشر من يوليو اعلنت المانيا الحرب على روسيا . . .

وجاء لزيارتنا في سبتمبر لفترة اربع وعشريـن ساعة فقط – من اجل توديعنا قبيل سفره الى الجبهة (كان الجميع يعتقدون ان الحرب ستنتهي سريعا ،

فتأجل زفافنا حتى الربيع) . ثم حانت امسية الوداع . بعد العشاء اعد السماور كالعادة ، وتطلع والدي الى النوافذ المغبشة بالبخار المنبعث منه ، وقال :

– الخريف مبكرٌ وبارد بصورة عجيبة !

في تلك الامسية جلسنا صامتين ، ولم نكن نتبادل الاحاديث الا فيما ندر ، وبالغنا في جعلها غيـــر مبالية ، حابسين افكارنا ومشاعرنا المكتومة . وقال والدي عبارته عن الخريف ببساطة مصطنعة ايضا . دنوت من باب الشرفة ومسحت الزجاج بالمنديل : فلمعت في الحديقة ، على صفحة السماء السوداء ، النجوم الثلجية الصافية لمعانا ساطعا وشديدا بينما استغرق والدي في التدخين مسترخيا في مقعـــده ، متطلعا بسهوم الى المصباح الساخن المتدلي فـوق المائدة ، اما امي فقد جلست تحت نوره ، واضعة العوينات ، منهمكة باجتهاد في خياطة كيس حريري صغير ، – كنا نعلم كيف سيكون – وكان هـــذا مؤثرا ومرعبا . سأل والدي :

– اذن تريد مع هذا الرحيل صباحا وليس بعـد الفطور ؟

فرد قائلا :

– بلى ، ان سمحتم ، في الصباح الباكر . يؤسفني هذا جدا ، لكنني لم ادبّر شئوني في البيت تمامـا بعد .

اطلق والدي تنهدة خفيفة :

– كما يحلو لك يا عزيزي . لكن علينا في هذه

الحالة ، انا وماما ، ان ناوي الى مضاجعنا ، فبودنا توديعك غدا حتما . . .

نهضت ماما ورسمت اشارة الصليب على نسيبها المقبل ، فانحنى هو ليقبّل يدها ومن ثم يد والدي . وبعد ان اصبحنا لوحدنا تلبثنا برهة من الزمن في غرفة الطعام – فقد طرأت عليّ فكرة توزيع الورق في لعبة الباسيانس * – بينما راح يذرع الغرفة جيئة وذهابا من ركن الى آخر ، ثم سألني :

– هل ترغبين في التنزه قليلا ؟

استبد بي كرب خانق متزايد ، فاجبته بلا مبالاة :

– حسنا . . .

بينما كان يرتدي المعطف في الدهليز واصل التفكير بأمر ما ، واستعاد بضحكة قصيرة ظريفة بيتين من شعر فيت ** .

اي خريف بارد !
فضعي الشال والكبوّت . . .

فقلت له :

– ليس لدي كبوّت . وماذا بعد ؟

– لا اذكر . اظن كالآتي :

انظري – فهناك بين الصنوبرات الضاربة الى السواد
يتراءى ما يشبه حريقا يندلع . . .

---

* لعبة ورق تمارس من اجل قراءة الكف . **المعرب** .

** شاعر روسي مشهور عاش في القرن التاسع عشر . **المعرب** .

– اي حريق ؟

– طلوع القمر ، طبعا . ثمة روعة خريفية ريفية مميّزة في هذه الابيات . «فضعي الشال والكبّوت . . .» . انها ازمان اجدادنا وجداتنا . . . آه ، يا الهي ، يا الهي !

– ما بالك ؟

– لا شيء يا حبيبتي . ان قلبي مع هذا طافح بالكآبة . بالكآبة والغبطة . فانا احبك بكل كياني . .

ارتدينا معطفينا ، ومضينا عبر غرفة الطعام نحو الشرفة ، ودلفنا الى الحديقة . في بادئ الامر كانت الظلمة قاتمة مما جعلني اتشبّث بردنه . ثم اخذت تلوح في السماء المتفتحة بالنور الاغصان السوداء ، المرصعة بنجوم متلألأة كالجواهر . توقف هو لحظة والتفت نحو البيت :

– انظري كيف تنير نوافذ البيت بضوء خاص ذي مسحة خريفية . لئن بقيت على قيد الحياة فسأتذكر هذا المساء الى الابد . . .

نظرت اليه ، واحتضنني في عباءتي السويسرية . ابعدت عن وجهي المنديل المحبوك من الزغب ، واملتُ رأسي قليلا نحو الوراء لكي يقبّلني . بعد ان قبّلني حدّق في وجهي . وقال :

– لكم تتألق عيناك . ألا تشعرين بالبرد ؟ الهواء بارد كما في الشتاء تماما . لئن قتلوني ، فلن تنسيني مع هذا دفعة واحدة ؟

ودار في خلدي : «ماذا لو حدث وان استشهد

حقا ؟ هل من المعقول انني سانساه بعد برهة من الزمن — فكل شيء يطويه النسيان في نهاية الامر ؟»

اجبت بعجلة فزعة من فكرتي :

— لا تقل هذا ! انني لن اعيش من بعدك !

صمت هنيهة ثم قال بتؤدة :

— اذن ، لئن استشهدت ، فسانتظرك هناك . دعك تعيشين ، وتتذوقين مسرات الحياة ، ثم تعالي اليّ .

فاستغرقتُ في النحيب الشديد . . .

في الصباح رحل عنّا . وعلقت ماما على رقبته ذلك الكيس المشئوم الذي حاكته فى العشية ، — كان يضم الصورة المقدسة الصغيرة الذهبية ، التي حملها في الحرب كل من اباها وجدها ، — ورسمنا جميعا اشارة الصليب عليه ، بشيء من اليأس الشديد . وقفنا على الشرفة في اعقابه متطلعين اليه ، بشعور من التبلد ، الذي يحسّ به المرء دائما حين يودع شخصا مفارقاً اياه لامد طويل ، شاعرين فقط بذلك التنافر العجيب بيننا وذلك الصباح البهيج ، المشمس ، المتألق ببريق الصقيع على الاعشاب ، الذي كان يحيط بنا . وقفنا برهة من الزمن ثم ولجنا الى داخل البيت الذي بدا مهجورا . ذرعت انحاء الغرف ، واضعة يدي وراء ظهري ، دون ان ادري ما سافعله بنفسي بعد رحيله ، هل أنتحب في نشيج ام اغني باعلى صوتي . . .

لقي مصرعه — يا لها من كلمة غريبة ! — بعد شهر في جاليسيا . وها قد مضت على ذلك فترة

ثلاثين عاما كاملة . وفي خلال هذه الاعوام عانيت ما عانيت من الارزاء ، التي تبدو مديدة جدا ، حين تمعن الفكر فيها ، وتستعيد في الذاكرة كل ذلك الشيء السحري وغير المفهوم والعسير على الادراك بالنسبة للعقل والقلب الذي اسمه الماضي . في ربيع عام ١٩١٨ حين لم تعد امي ولا ابي على قيد الحياة كنت اعيش بموسكو في قبو تملكه بائعة بسوق سمولينسكي ، كانت لا تكفّ عن كيل الاهانات لي مستهزئة بي : «كيف الاحوال يا صاحبة المعالي ؟» كنت ايضا امارس البيع والشراء . فابيع مثل الكثيرين آنذاك شيئا مما تبقى لدي وقتئذ الى الجنود الذين يعتمرون قبعات الفرو «الباباخا» ويرتدون المعاطف المفكوكة الازرار ، — اما خاتما ، واما صليبا ، او ياقة فرو متآكل بفعل العث . حدث مرة ، بينما كنت امارس تجارتي على الناصية بين شارع أربات والسوق إن التقيت رجلا ذا نفس رائعة نادرة ، كان عسكريا كهلا متقاعدا ، سرعان ما تزوجته وسافرت معه في ابريل الى يكاترينادار . سافرنا الى هناك مع ابن اخيه ، الفتى الذي يقارب السابعة عشر من العمر ، المتوجه ايضا الى المتطوعين ، وامضينا في الطريق فترة تكاد تعادل الاسبوعين ، — انا بهيئة امرأة من عامة الناس انتعل خفين من الخوص ، وهو يرتدي زبونا قوزاقيا متهرئا ، وقد اطلق لحيته السوداء الشائبة ، — فعشنا في منطقة الدون وكوبان ما يربو على السنتين .

في الشتاء ، حملتنا العاصفة الهوجاء في البحر مع حشد لا حصر له من اللاجئين الهاربين الآخرين من نوفوروسيسك الى تركيا ، وتوفي زوجي على متن الباخرة ، في عرض البحر ، بمرض التيفوئيد . لم يبق لدي من الاقارب في الدنيا كلها بعد هذا سوى ثلاثة ، هم : ابن اخ زوجي وزوجته الشابة وطفلتهما التي لها من العمر سبعة شهور . لكن ابن الاخ وزوجته ابحرا بعد فترة من الوقت الى القرم للالتحاق بفرانجل ، تاركين الطفلة بين يدي . وهناك فقد اثرهما . اما انا فقد ظللت اعيش في القسطنطينية حقبة طويلة من الزمن ، وطفقت اكسب لقمة العيش لنفسي والصبية بالعمل الشاق للغاية . ومن ثم واصلت الترحال والتجوال معها ، شأن الكثيرين ، في كافة الاصقاع ! بلغاريا والصرب وتشيخيا وبلجيكا وباريس ونيس . . . لقد شبّت الصبية منذ وقت طويل ، وبقيت في باريس ، وغدت فرنسية تماما ، حلوة لطيفة جدا ، وتبدي عدم اهتمام بي اطلاقا . التحقت بالعمل في محل لبيع الشوكولاتة بالقرب من «مادلين» ، انها تلفّ ، بيدين ناعمتين ذواتي اظفار فضية ، العلب في ورق اطلس صقيل وتربطها باشرطة مذهبة . اما انا فعشت وما ازال في نيس بكسب رزقي كيفما اتفق . . . لقد زرت نيس اول مرة في عام ١٩١٢ – وهل كان بوسعي في تلك الايام السعيدة تصور ما ستجلبه لي من هموم ! هكذا بقيت على قيد الحياة بعد موته ، وعبثا

قلت آنذاك انني لن احتمل موته ولن ابقى من بعده . لكن حين استعيد ذكريات كل ما عانيته منذ ذلك الوقت اسأل نفسي دائما : حسنا ، وماذا وجد مع هذا في حياتي ؟ فأجيب نفسي : تلك الامسية الباردة في الخريف وحدها . هل من المعقول انها مضت حقا في وقت من الاوقات ؟ لقد كانت حقا . هذا كل ما وجد في حياتي ، – اما الباقي فهو حلم نافل . ويخامرني الايمان ، الايمان الراسخ بانه ينتظرني في مكان ما هناك – بذلك الحب وبذلك الشباب ، كما في تلك الامسية . «دعك تعيشين ، وتتذوقين مسرات الحياة ، ثم تعالي الي . . .» لقد عشتُ وتذوقتُ مسرات الحياة وعما قريب سآتي اليك .

٣ مايو ١٩٤٤

الباخرة «ساراتوف»

عند الغسق هطل مطر قصير كما يحدث هذا في ايام مايو . نظر الخادم المجدور ، الذي كان يحتسي الشاي في المطبخ تحت ضوء فانوس غطاؤه من الصفيح ، الى الساعة التي تدقّ على الجدار ، نهض ساعيا الى عدم احداث صرير بجزمتيه الجديدتين ، ومشى بحركة خرقاء الى غرفة المكتب المظلمة ، ودنا من الكنبة :

– يا صاحب السعادة ، الساعة تجاوزت التاسعة . . .

فتح عينيه بفزع :

– ماذا ؟ الساعة تجاوزت التاسعة ، غير ممكن . كانت كلتا النافذتين مفتوحتين وتطلان على الشارع المنعزل الصغير الغارق وسط الحدائق – وفاحت من النافذتين رائحة طراوة رطوبة الربيع واشجار الحور . احس بهذه الروائح برهافة الشم التى تظهر بعد النوم لدى الشباب . فانزل ساقيه من الكنبة بنشاط :

– اشعل النور . واذهب بسرعة في طلب الحوذي . ابحث عمن لديه جياد سريعة . . .

مضى لاستبدال ملابسه والاغتسال ، فسكب على

رأسه الماء البارد ، ومسح وجهه بماء الكولونيا ، ومشط شعره المجعد القصير ، ثم تطلع في المرآة مرة أخرى : كان وجهه طريا نضرا ، وعيناه متألقتين ، وانشغل منذ الساعة الواحدة وحتى السادسة يتناول طعام الافطار مع رهط كبير من الضباط ، وفي البيت غفا تلك الغفوة الخاطفة التى تبسط جناحيها على المرء بعد ساعات عديدة من الشرب المتواصل والتدخين والضحك والثرثرة ، لكنه كان رائق المزاج ساعتئذ .

في الدهليز قدم له خادمه السيف ، والقبعة والمعطف الصيفي الخفيف ، وفتح الباب على مصراعيه نحو الشارع – فصعد العربة الصغيرة بخفة وصاح بصوت مبحوح نوعا ما :

– تحرّك بسرعة ! اعطيك روبلاً للفودكا !

ومض بريق المصابيح الساطع تحت الخضرة الكثيفة اللامعة للاشجار ، وكان شذى اشجار الحور المبللة طريا وعطرا ، واندفع الحصان مولداً الشرارات الحمراء من حدواته . مضى كل شيء بأروع صورة : فالخضرة والمصابيح واللقاء الغرامي المقبل ، ومذاق السيجارة ، التي احتال في تدخينها ابان مثل هذه الحركة السريعة . واندمج كل شيء في امر واحد : الشعور السعيد بكونه مستعدا لكل شيء . الفودكا ، البينيديكتين * ، القهوة التركية ؟ هراء ، انه الربيع ، وكل شيء على احسن ما يرام . . .

* نوع من الشراب . **المعرب** .

فتحت الباب وصيفة صغيرة الحجم ، ذات مظهر داعر جدا ، بحذاءين ذوي كعبين رفيعين يتبختران . فنزع السيف وفك أزرار معطفه العسكري بسرعة ، والقى القبعة على المنضدة الصغيرة تحت المرآة ، وعدل تسريحة شعره قليلا ، ثم دلف مصحوبا بالرنين المنبعث من مهمازيه الى غرفة صغيرة ، مزدحمة بآثاث المخدع . فور ذلك دخلت هي ، متبخترة فوق عقبي المداسين اللذين لبستهما حافية القدمين وبان الكعبان الورديان ، دخلت فارعة الطول ، طري ممشاها ، ارتدت بكبّوت ضيق مرقط فبدت مثل أفعى رمادية بكمين متدليين مشقوقين حتى الكتفين ، حولاء المقلتين على شيء من الاستطالة . وثمة دخان يتصاعد من سيجارة في يدها الطويلة الاصابع الشاحبة مثبتة في مبسم طويل من الكهرمان .

حين لثم يدها اليسرى صفق بكعبيه :

– ارجو المعذرة ، لقد تأخرت لامر بلا ذنب مني . . .

رنت من علو هامتها الى بريق شعره القصير المجعد الدقيق المبلل ، والى عينيه المتألقتين ، واحست رائحة النبيذ المنبعثة منه :

– الذنب معروف منذ وقت بعيد . . .

وجلست على مقعد حريري صغير ، داسة يدها اليسرى تحت مرفق اليد اليمنى ، رافعة السيجارة عاليا ، واضعة ساقا على ساق ، كاشفة الشق

الجانبي للكبوت حتى اعلى الركبة . جلس قبالتها ، على الكنبة الحريرية ، مستلا علبة السجاير من جيب سرواله :

– أتفهمين ما وقع . . .

– مفهوم ، مفهوم . . .

ولع السيجارة بسرعة وبرشاقة ، لوح بعود الثقاب المشتعل ، رماه في المنفضة على المنضدة الشرقية الطراز الموجودة بالقرب من المقعد الصغير ، اتخذ وضعية مريحة اكثر وطفق يرنو بالاعجاب المألوف المفرط الى ركبتها العارية البادية من شق الكبوت :

– رائع ، لا تريدين الاصغاء ، اذن لا حاجة . . . ان برنامج هذا المساء هو : ان اردت سنذهب الى حديقة كوبيتشيسكي فهناك الآن عرض «الليلة اليابانية» – تصوري ، الفوانيس وما الى ذلك وعلى خشبة المسرح فتيات الجيشا ، «سلمت' الجائزة الاولى لجمالي . .» .

هزّت رأسها :

– لا اريد اية برامج ، اليوم سأبقى في البيت .

– كما تحبين ، هذا لا بأس به أيضا .

ادارت عينيها في أرجاء الغرفة :

– عزيزي ، هذا آخر لقاء بيننا .

فتملكته الدهشة المشوبة بالمرح :

– كيف آخر لقاء ؟

– هكذا .

تلألأت عيناه بمرح اكثر :

– مهلا ، مهلا ، هذا شيء طريف !

– انا لا امزح ابدا .

– رائع . مع هذا يهمني ان اعرف مغزى هذا الحلم . «شو» المسألة ، كما يقول الرقيب في حاميتنا .

– لا يهمني كثيرا ما يقوله الرقباء . والحق انا لا افهم تماما سبب فرحك .

– انا افرح دائما حين اراك .

– هذا شيء جميل ، لكن غير مناسب جدا هذه المرة .

– لكن ، يا للشيطان ، انا لا افهم شيئا ! ماذا حدث ؟

– لقد حدث ما كان يجب عليّ ابلاغك به منذ امد بعيد . انني اعود اليه . كان من الخطأ ان نفترق .

– يا ربي ، هل انت جادة ؟

– كل الجد . كنت مذنبة بحقه لحد الاجرام . لكنه مستعد ليغفر لي وينسى كل شيء .

– يا للشهامة .

– لا تهرّج . انني صرت التقي به منذ عيد الصوم الكبير . . .

– اي خفيةً عني بينما واصلتِ . . .

– ماذا واصلتُ ؟ مفهوم ، لكن الامر سواء لديّ ، التقيت به ، خفية طبعا ، دون ان ارغب في

ايلامك ، وآنذاك ادركت انني ما توقفت عن حبه ابدا .

ضيّق عينيه ماضغا طرف سيجارته :

– اي عن حب نقوده ؟

– هو ليس اغنى منك . وما لي ونقودكم . فلئن أردت . . .

– عفوا ، لا يقول هذا سوى بنات الشوارع .

– ومن انا ان لم اكن من بنات الشوارع ؟ فهل انا اعيش بنقودي ام بنقودك ؟

وغمغم بلهجة الضباط القاطعة :

– النقود لا اهمية لها عندما يحب المرء .

– لكنني احبه !

– اذن ، انا كنت العوبة مؤقتة فحسب ، وتسلية لدفع السأم ، وأحد المعيلين النافعين ؟

– انت تعرف حق المعرفة بأنك لم تكن ابدا للتسلية والعوبة . نعم ، انا محظية ، بيد أن من الدناءة مع هذا تذكيري بذلك .

– دعك من الوقاحة ، وكما يقول الفرنسيون انتق الفاظك !

– انصحك ايضا بالتمسك بهذه القاعدة . صفوة القول . . .

نهض ، فأحس بسورة جديدة من ذلك الاستعداد لاقتراف اية فعلة ، والتي تملكته أبان التوجه فى العربة الى هناك . مشى في ارجاء الغرفة مستجمعا حبل افكاره ، وكان ما يزال لا يصدق ذلك السخف ،

والمفاجأة التي حطمت بغتة كل آماله البهيجة لتلك الامسيـة ، مبعدا بقدمـــه لعبة شقراء الشعر ذات سارافان احمر كانت ملقية على الارض ، وجلس على الكنبة مرة أخرى ، محدقا فيها انفا لانف :

– اسألك من جديد : هل هذا كلـــه ليس من قبيل المزاح ؟

اغمضت عينيها ولوحت بالسيجارة المنطفأة منذ زمن .

بينما استغرق هو في التفكير ، واشعل سيجارة اخرى ومضغ طرفها مجدّدا ، قائلا بعبارات واضحة :

– وماذا تتصورين ، انني ساعطيك اياه هكذا ببساطة . . ذراعيك هاتين ، وساقيك ، وسيقبّل هذه الركبة ، التي كنت حتى يوم امس اقبلها أنا ؟

رفعت حاجبيها :

– انا مع كل هذا لست متاعا ، يـا عزيزي ، يمكن اعطاءه او ابقاءه . وبأي حق . . .

وضع السيجارة في المنفضة بعجلة ، ثم انحنى واستـل من الجيب الخلفي لسراويلـــه «براوننغ» صقيلا صغيرا ثقيلا ، وارجحه في راحة يده :

– هذا حقي .

فنظرت اليه جانبا وضحكت ساخرة :

– انا لست من هواة الميلودراما .

وعلا صوتها بلا مبالاة :

– صونيا ، ناولي بافل سيرجييفيتش معطفه .

– ماذا ؟

– لا شيء . انت ثمل . انصرف .

– هل هذه كلمتك الاخيرة ؟

– الاخيرة .

ثم نهضت معدلة شق الكبوت على ساقها . خطا نحوها بعزم مقرون بالجذل .

– حذار من ان تكون الاخيرة حقا بالنسبة لك !

– ممثل سكـــران ، – قالت ذلك باشمئزاز ، ومضت خارجة من الغرفـة وهي تسوي شعرها من الخلف بأنامل طويلة . فقبض بقوة على زندها العاري مما جعلها تتلوى ، والتفتت بسرعة وقد ضاقت عيناها اكثر وهمّت بتوجيه صفعة اليه . ابتعد متنحيا بخفة واطلق النار وقد التوت سحنة وجهه متجهمة بعبوس متقزز .

في ديسمبر من العام ذاته كانت السفينة «ساراتوف» التابعة لاسطول «دوبروفولني» متوجهـة في المحيط الهندي الى فلاديفستوك . جلس ورقد على سطحها في المقدمة تحت سقيفة من الخيش الساخن سجناء عراة حتى الخصر ، حلقت رؤوسهم المشوهة الى النصف ، يرتدون سراويل من قماش الاشرعة الابيض ، وتحيط رسغ اقدامهم حلقات القيود ، وسط القيظ الساكن ، في شبه الظـــل الساخن ، فى لمعـان الانعكاسات المرآوية المنبعثة من الماء . جلس هو مثل الجميع عاريا حتى الخصر ، ضاوي الجسم ذا لون بني لوحته الشمس . واظلّم نصف رأسه فقط بالشعر المقصوص القصير ، وبدا خداه الخاسفان اسودين ضاربين الى

الاحمرار بشعرهما الخشن حيث لم يحلقا منذ أمد بعيد ، ولمعت عيناه لمعانا محموما . اتكأ على الحاجز وحدق بامعان في الموجة الشديدة الزرقة التي تنطلق محدودبة الى الهاوية العميقة القرار ، بمحاذاة الجدار العالي لجانب السفينة ، ومن حين لآخر كان يبصق الى هناك .

١٦ مايو ١٩٤٤

غراب

كان ابي شبيها بالغراب . وقد جال هذا في خاطري حين كنت ما ازال صبيا : اذ رأيت مرة في «نيفا» * صورة تبدو فيها صخرة يقف عليها نابليون بكرشه الابيض وسراويله الشمواه الضيقة ، وينتعل جزمتين قصيرتين سوداوين ، وبغتة استغرقت في الضحك جذلا ، بعد ان تذكرت الصور في «الرحلات القطبية» لبوغدانوف ** ، — فبدا لي ان نابليون شديد الشبه بالبطريق ، — ثم فكرت بحزن : اما ابي فشبيه بالغراب . . .

شغل ابي في مدينتنا ، مركز المحافظة ، منصبا رسميا بارزا جدا ، مما جعله يفسد اكثر : اظن انه حتى في وسط الموظفين الذين كان ينتمي اليهم ، لم يكن هناك من شخص كالح المزاج شرس الطبع

---

* مجلة اسبوعية مصورة تهتم بالشئون الادبية والفنية والعلمية المبسطة . صدرت في بطرسبورج فى فترة ١٨٧٠ — ١٩١٨ . **المعرب** .

** بوغدانوف ، موديست نيكولايفيتش (١٨٢١ — ١٨٨٨) — عالم احياء ورحالة روسي ، كتب مؤلفات كثيرة للأطفال . **المعرب** .

وصموت وقاس وبارد اللهجـــة في اقواله الوئيدة وافعاله اكثر منه . كان يميل في قامته الى القصر ، ربعة ، مع شيء من الاحديداب ، فاحم الشعر غليظه . ووجهه الطويل الحليق ضارب الى السحنة القاتمة ، انفه طويل ، وكان حقا غرابا الى حد الكمال – بالاخص حين يرتدي بدلة الفراك السوداء في الحفلات الخيرية التي تقيمها زوجة المحافظ ، كان يقف مجعد الجسم راسخاً في الارض بالقرب من كشك ما بهيئة كوخ روسي ، ويدير راسه الغرابى الكبير ، رامقا بعينيه الساطعتين الغرابيتين الراقصيـــن والمقتربين مـن الكشك ، وتلك السيدة بزي البايـار * التي كانت تقـــدم من الكشك ، بابتسامة بشوشـــة ساحرة ، الاقداح المسطحة وفيها الشمبانيا الصفراء الرخيصة بيد كبيرة الحجم تلمع عليهـــا الجواهر ، – وكانت امراة فارعة الطول ترتدي الديباج والكوكوشنيك ** ذات انف علاه البياض الشديد لما طلي به من مساحيق مما جعله يبدو اصطناعيا . لقد ترمل ابي منذ وقت بعيد ، ولم يكن لديه سوى اثنين من الابناء ، – انا وشقيقتي الصغيرة ليلي ، – وتسطع ببرودة خاوية شقتنا الفسيحة الحكومية ، بحجراتها الواسعة النظيفة اللامعة كالمرايـــا ، في الطابق الثاني لاحد البيوت الحكومية التي تطل واجهتهـــا على بولفار تنمو فيه اشجار الحور بين الكاتدرائية والشارع الرئيسي .

* النبلاء الروس القدماء . **المعرب** .

** غطاء للراس يشبه التاج المزخرف . **المعرب** .

ولحسن الحظ انني كنت امضي اكثر من نصف العام بموسكو ، حيث ادرس في كلية كاتكوف * ، ولـم اكن آتي الى البيت الا في ايـــام ما قبل عيد الميلاد والعطلة الصيفية . لكن في ذلك العام كانت تنتظرني في البيت مفاجأة غير متوقعة .

في ربيع ذلك العـــام انهيت الدراسة في الكلية ، وحين جئت من موسكو صعقت صعقا . فبدا كما لو ان الشمس سطعت بغتـــة في شقتنا التي كانت في غاية الموات من قبل ، – اذ انارها كلها حضور شابة خفيفة الحركة ، حلت لتوها محل مربية ليلي البالغة الثامنة من العمر ، العجوز السامقة العجفاء ، الشبيهة بتمثال خشبي لقديســـة ما يرجع عهده الى القرون الوسطى . كانت فتاة فقيرة ابنة احد مرؤوسي ابي الصغار ، وطفح قلبها في تلك الايام بالسعادة الغامرة لكونها قد وجدت مثل هذه الوظيفة الجيدة فور التخرج من المدرسة ، ومن ثم لقدومي ، لظهور احد اقرانها في المنزل . بيد انها كانت شديدة المهابة ولكم كان سلوكها مرتبكا في حضور ابي حين كنا نتناول الغداء بكل ما يصاحبه من التزام بآداب المائدة ، فتراقب قلقة في كل لحظة ليلي السوداء العينين ، الصموتة ايضا ،

* الكلية الامبراطورية التي تأسست تخليدا لذكـرى الامير ليكولاي بموسكو – مؤسسة تعليمية خاصة لأبناء النبلاء والبرجوازية الكبيرة (١٨٩٨ – ١٩١٧) . وقـد اسسها الكاتب والناشر الروسي ميخائيل كاتكوف (١٨١٨–١٨٨٧) . **المعرب** .

لكن الحادة الطبع ، ليس في كل حركة من حركاتها بل وحتى في صمتها ، كما لو انها تنتظر دائما وقوع شيء ما ، وتدير رأسها الاسود الشعر طوال الوقت بهيئة اشبه بالتحدى ! واضحى أبي ابان الغداء كما لو تغير ولم اعد أتعرف عليه : فلم يكن يوجه النظرات الثقيلة الى العجوز جوري الذي يقدم له الطعام بقفافيز محيوكة ، ويقول بين فينة واخرى شيئا ما ، بتثاقل ، لكنه يتحدث ، — مخاطبا اياها فقط طبعا ، مخاطبا اياها بلهجة رسمية — بالاسم واسم الاب — ، «يلينا نيكولايفنا المحترمة» ، وحتى يحاول المزاح والابتسام . اما هي فكانت ترتبك غاية الارتباك فلا تجيب سوى بابتسامة بائسة ، وتغمر محياها الناعم الرقيق القسمات بقعتان ارجوانيتان على الخدين . . محيا فتاة نحيفة شقراء ، ترتدي بلوزة بيضاء خفيفة ، أسود فيها ما تحت الابطين بفعل العرق الفتي الساخن ، وبدا تحتها نهدان صغيران لا يكادان يبرزان . وابان الغداء لم تكن تتجرأ حتى على رفع بصرها نحوي : اذ كنت مخيفا بالنسبة لها اكثر من أبي . لكن كلما سعت اكثر الى تحاشي النظر اليّ ، كان أبي يرمقني ببرود اكثر : ليس وحده بل انا نفسي ادركت واحسست ، بأنه كان وراء هذا السعى المعذب الى عدم النظر الى ، والاصغاء الى ابى ، ومتابعة ليلي الشريرة واللعوب رغم انها صموتة ، يكمن رعب من نوع آخر تماما ، — الرعب المقرون بنشوة سعادتنا المشتركة في ان نكون الى جانب احدنا

الآخر . في الامسيات كان أبي يتناول الشاي دائما دون الانقطاع عن مشاغله ، وقبل هذا كان يقدم له قدحه الكبير ذو الحافة المذهبة على طاولة الكتابة في مكتبه : اما الآن فصار يتناول الشاي معنا ، في غرفة الطعام ، بينما تصب هي الشاي من السماور — في هذه الساعة تخلد ليلي الى الكرى . وكان يخرج من مكتبه في روب طويل وعريض ذي بطانة حمراء ، ويجلس في مقعده ، ويمد اليها قدحه . فتملأه حتى الحافة كما يحب هذا دائما . ، وتقدمه له بيد ترتجف ، ثم تصب لي ولنفسها ، وتسبل اهدابها وتنهمك بممارسة اشغال الابرة اما هو فيقول بتؤدة — شيئا غريبا جدا :

— الشقراوات ، يا يلينا نيكولايفنا المحترمة ، يناسبهن اللون الاسود او الارجوانى الغامق . . . فمثلا يلائم سحنتك فستان من الاطلس الاسود بياقة مسننة مرفوعة من طراز ماريا ستيوارت * ، مزينة بالجواهر الدقيقة . . . او فستان من عهود القرون الوسطى صنع من القطيفة الارجوانية الغامقة له فتحة صغيرة عند الصدر ، مع صليب من الياقوت الاحمر . . . المعطف المبطن بالفرو المصنوع من قطيفة ليون الازرق الغامق ومعه قبعة بندقية الطراز فهما يناسبانك ايضا . . . هذه كلها احلام طبعا ، — قال هذا بابتسامة خفيفة . — ان أباك يتقاضى عندنا

---

* ملكة اسكتلندا (١٥٤٢–١٥٨٧) . **المعرب** .

خمسة وسبعين روبلا شهريا فقط ، ولديه فيما عداك خمسة اطفال ، احدهمـــا اصغر سنا من الآخر ، – معنى هذا ان عليك اغلب الظن قضاء الحياة كلها في املاق . والحق يقال : ما ضير الاحلام ؟ انها تنعش وتهب القوة والامل . ثم الا يحدث ان تتحقق بعض الاحلام فجاة ؟ . . . هذا نادر طبعا ، نادر جدا ، لكن تتحقق . . . فقد فاز منذ فترة وجيزة طباخ في محطة القطار بمدينة كورسك بمبلغ مائتي الف روبل في بطاقة يانصيب ، – طباخ بسيط !

حاولت التظاهر بانها تاخذ هذه كله باعتبارهـا مزحة طريفة ، وجاهدت في ارغام نفسها على التطلع نحوه ، مبتسمة ، بينما كنت انهمك انا ، كما لو انني لا اسمع شيئا ، في ترتيب الاوراق في لعبة باسيانس نابليون . اما هو ففي احدى المرات مضى أبعد في الحديث ، – فقال على حين غرة مؤشرا باتجاهي :

– ان هذا الشاب يحلـــم ايضا ، كما اعتقد : سيموت بابا حين يأتي اجله ، وسيمتلك ذهبا لا يعد ولا يحصى مبعثرا في كل مكان حتى لا يلقى الدجاج بالا له ، وفي الواقع ان الدجاج لن يلتقط شيئا لعدم وجود ما يلتقط . طبعا ، ان بابا يمتلك شيئا ما ، – مثل ضيعة مساحتها الف ديساتينا من الاراضي الخصبة في محافظة سامارا . لكن من المستبعد ان يرثهـــا ابني ، فهو لا يهب حبه الى ابيه كثيرا ، وحسب علمي فسيشب منه مبذر من الدرجة الاولى .

جرى هذا الحديث الاخير مساء غداة عيد الشفيع

بطرس ، وقد رسخ في ذاكرتي . ففي صباح ذلك اليوم توجه ابي الى الكاتدرائية ، ومنها توجه لتناول الفطور لدى المحافظ الذي يحتفل بعيد شفيعه . كما انه لا يتناول الفطور في المنزل ابدا في الايام العادية ايضا ، لذا فقد تناولنا الفطور ذاك اليوم نحن ثلاثتنا ، وفي نهاية الفطور حين قدم الى ليلي سحلب الكرز بدلا من البسكويت ، طفقت تصرخ بصوت يصـــم الآذان على جوري وهي تدق بقبضتيهـــا على المائدة ، القت بالصحن على الارض ، وهزت رأسها ، واختنقت في النشيج غيظا . اقتدناهـا بعد لأى الى حجرتهـــا ، فراحت تتملص ، وتعض ايدينا ، – وتوسلنا اليها لكى تهدأ ، ووعدناها بانزال اشد العقاب بالطباخ ، فهدأت في نهاية المطاف ، وغفت . ما اكثر ما لقيناه من مشاعر الحنـــان المرهف حتى في هذا وحده – باقتيادها باذلين جهودا مشتركة ، وملامسة ايدينا احدنا الآخر باستمرار ! تناهى الى اسماعنا ضجيج تساقط المطر في الفناء ، واحيانا كان يومض البرق في الحجرات الصائرة الى العتمـــة ، ويرتجف الزجاج حين يقرع الرعد .

– هذا تاثير العاصفة الرعدية عليها ، – قالت هي هامسة بجذل حين خرجنا الى الدهليز ، وبغتـــة توقفت بحذر :

– اوه ، هناك حريق !

فهرعنا الى غرفة الطعام وفتحنـــا النافذة على مصراعيها ، – انطلق فريق الاطفاء بمحاذاتنا هادرا .

وانهمر مطر سريع مدرار فوق اشجار الحور ، – فقد مضت العاصفة ، كما لو انه اخمدها ، وصدح النفير بلحن عذب متغنج كأنه من افاعيل الجنّ محذرا ، وسط هدير العربات الطويلة المنطلقة التي كان ينتصب فوقها رجال الاطفاء بخوذات نحاسية ويحملون السلالم والخراطيم ، ورنين الجلاجل المعلقة تحت القوس فوق اعراف الخيول السوداء الضخمة ، وقرقعة السنابك المندفعة خببا فوق الحجارة المرصوفة ثم ازداد رنين الاجراس فوق ابراج كنيسة ايفان فوين – نا – لافى . . كنا نقف معا قريبين من احدنا الآخر عند النافذة ، التي عبق فيها شذى الماء وغبار المدينة المبلل ، تراءى لي اننا كنا ننظر ونصغي بقلق ملح . وبعد ذلك مرقت آخر العربات حاملة صهريجا ضخما احمر . ازدادت دقات قلبي ، واحسست بضغط على جبيني – امسكت بيدها المتدلية بلا حياة بمحاذات فخذها ، رانيا بتوسل الى خدها ، فعلاها الشحوب ، وانفرجت شفتاها ، ورفعت صدرها مطلقة زفرة ، والتفتت الى كما لو كانت متوسلة ايضا وعيناها الفاتحتان مخضلتين بالدموع ، فاحتضنتها من كتفيها ولاول مرة في حياتي ضعت في احضان البرودة العذبة لشفتي فتاة . لم يمر بعد هذا يوم واحد ، بدون ان نلتقي في كل ساعة لقاءات تبدو وكأنها وقعت مصادفة تارة في غرفة الاستقبال ، وتارة في القاعة ، وتارة في الدهليز ، وحتى في مكتب أبي ، الذي كان يؤوب الى البيت في المساء فقط ، –

بدون هذه اللقاءات القصيرة والقبلات الطويلة للغاية النهمة ، التى لم تعد تعرف الصبر فى اباحة المحرمات . وقد أحس ابى بشيء ما ، فكف مرة أخرى عن الخروج من مكتبه لتناول الشاي في غرفة الطعام ، وغدا مرة اخرى صموتا وعبوسا . الا اننا لم نعد نلقي بالا اليه ، واصبحت اكثر وداعة وجدية ابان وجبة الغداء .

في مطلع يوليو مرضت ليلي بعد ان افرطت في اكل ثمار توت العليق ، ورقدت في حجرتها ، وهي تتماثل الى الشفاء ببطء ، كانت تمارس طوال الوقت الرسم بالأقلام الملونة على اوراق كبيرة مثبتة على لوحة فتصور مدنا خيالية ، اما هي فلم تكن تبارح سريرها ، دون ارادتها ، وتجلس منهمكة في خياطة بلوزة اوكرانية لنفسها – لم يكن بوسعها الابتعاد عنها : اذ كانت ليلي تطلب شيئا في كل لحظة ، بينما كنت اعاني في البيت الصامت الخاوي ، من الرغبة المعذبة المتواصلة في رؤيتها وتقبيلها واحتضانها ، فأجلس في مكتب ابي ، متناولا من رفوف مكتبته ما يقع تحت يدي من كتب ، واقسر نفسي على المطالعة . وهذا ما فعلته في تلك المرة قبيل حلول المساء . وبغتة سمعت وقع خطواتها الخفيفة السريعة . رميت الكتاب ، ونهضت :

– هل نامت ؟

فلوحت بيدها .

– آه ، لا ! انت لا تعرف ، بوسعها ألا تنام

يومين كاملين ، دون ان يؤثر هذا فيها ، مثل جميع المجانين ! ارسلتني لابحث لدى ابيهـــا عن اقلام صفراء وبرتقالية . . .

ثم اجهشت في النحيب ودنت مني والقت براسها على صدري :

– يا الهي ، متى تكون النهاية ! قل له في آخر الامر انك تحبني ، وان لا قوة في العالم تستطيع مع هذا التفريق بيننا .

رفعت وجهها المخضل بالدموع واحتضنتني بشدة ، واختنقت في القبلات . فشددتهـا بكل جسدها الي وجررتها الى الاريكة ، وهل كان بوسعي ان افقـه شيئا ، او اتذكر شيئا في تلك اللحظة ؟ لكن تناهى الى سمعي من عتبة المكتب سعال خفيف : نظرت عبر كتفها – كان أبي واقفـــا يحدق فينا . ثم التفت وابتعد محدودب الظهر .

عند حلول موعد الغداء لم يغادر احد منا حجرته – وفي المساء طرق جوري باب غرفتي : «بابـا يطلب مجيئك اليه» . دخلت المكتب . كان جالسا في المقعد امام طاولة الكتابة ، وطفق يقول دون ان يلتفت :

– غدا ستسافر الى قريتي في سامـــارا لقضاء الصيف كله هناك . وفي الخريف تتوجه الى موسكو او بطرسبورغ للبحث عن عمـل . وان تجرأت على العصيان فسأحرمك من الميراث الى الابد . زد على ذلك سأرجو المحافظ غدا ان ينفيك الى القرية دون تأجيل تحت الحراسة ان عصيت أمري . الآن اذهب .

ولا تظهر امامي بعد هذا . سيعطيك الخادم غدا النقود من اجل السفر وبعض مصاريف الجيب . وفي الخريف سأكتب الى مكتبي في القرية من اجل منحك مبلغا من المال ، لقضاء الفترة الاولى في العاصمتين . ولا تأمل ابدا في رؤيتها قبل السفر . هذا كل ما اردت قوله لحضرتك . اذهب .

في الليلة ذاتها سافرت الى محافظة ياروسلافل ، الى قرية احد رفاقي في الكلية ، وعشت لديه حتى الخريف . وفي الخريف التحقت للعمل في بطرسبورج في وزارة الخارجية بتوصية من ابيه . وكتبت الى أبي انني ارفض الى الابد ليس ميراثه فحسب بـل وكل معونة منه .

وفي الشتـــاء علمت بأنه ترك العمل وانتقل الى بطرسبورغ ايضا – مع زوجة شابة رائعة الحسن ، كما علمت من الآخرين . وحدث مرة ان ولجت مساء صالة المسرح الماريينسكي قبل عدة دقائق من رفع الستارة ، وبغتة رأيته ورأيتها . كانا يجلسان في مقصورة بالقرب من خشبـة المسرح ، عند الحاجز مباشرة ، وعليه منظار صغير مطعّم بالصدف . كان يرتدي بدلـــة الفراك ، محدودب الظهر كالغراب ، ويطالع البرنامج باهتمام ، وقد ضيق احدى عينيه . بينما كانت تجلس بيسر معتدلة القيافة ، وبتسريحة عالية لشعرها الاشقر ، متطلعة حواليها بحيوية الى الصالة الدافئة ذات الثريات المتلألئة واللغط الخفيف والتي أخذت تغص بالجمهور والى فساتين السهرة

وبدلات الفراك والبـــزات التي يرتديها الداخلون الى المقصورات . كان يلمع على صدرها صليب مرصع بالياقوت الاحمر يتالق بلون قرمزي قاتم ، اما الذراعان الرفيعتـــان اللتان اصبحتـــا مكتنزتين فعاريتان ، بينما طرح على كتفها اليسرى ، ما يشبه البيبلوس * من القطيفـــة الارجوانية ثبت بدبوس مرصع بالياقوت الاحمر . . .

١٨ مايو ١٩٤٤

* رداء نسائي فاخر في اليونان القديمة . **المعرب** .

صعدت الى العربة فى محطة صغيرة بين مارسيليا وآرل ، ومشت في طرقة عربة القطار ، وكل جسدهـا الغجري الاسباني يتلوى ، ثـم جلست بالقرب من النافذة على مصطبة لراكب واحد ، وكما لو لاترى احدا ، راحت تقشر وتاكل حبات الفستق المشوي ، رافعة بين الفينة والفينة طرف تنورتهـــا السوداء العليا ومادّة يدها في جيب التنورة التحتانية البيضاء المتهرئة . ما كانت العربة الغاصة بعامـــة الناس تاتلف من مقصورات ، ولم تكن تقسمهـــا سوى المصطبات ، وطفق الكثير من الجالسين قبالتهـــا يحدقون فيها بين حين وآخر بنظرات ثاقبة .

كانت شفتاها ، المتحركتان فوق اسنان بيضاء ، بلون رمادي أزرق ، والزغب المشوب بالزرقة فوق شفتها العليا يتكاثف فوق طرفي ثغرها . ووجههـــا الدقيق الملامح الأسمر الغامق يضيئه ألق الأسنان ويشبه وجوه القدمـــاء والمتوحشين . وعيناهـــا

* من الفرنسية Camargue – منطقة الاهوار فى دلتا الرون حيث تقع مدينة آرل الوارد ذكرها فى القصة . وتتالف من جزر واهوار ومراع ومستنقعات . **المعرب** .

تميلان الى الاستطالة ، لوزيتان ضاربتان الى الصفرة الذهبية ، يغطيهمـــا الى النصف حاجبان بلـــون بنـــي غامق ، ويبدو وكأنهمـــا تتطلعـــان الى اغوار نفسها – إذ يلوح فيهما فتور خاب بدائي . وثمة قرطان فضيان طويلان يلمعان بمحاذاة جيدها المكور تحت الخصلات الحريريـــة الغليظة الملمس لشعرها الفاحم ، المقسوم بفرق مستقيم ، والمتدلي بجدائل مجعدة فوق جبينها الضيق . وربط منديلها الكالح الأزرق الملقى على كتفيهـا المائليتن بعقدة جميلة على صدرها . كانت يداهـــا ، الضامرتان ، الشبيهتان بايدي الهنود ، وانامِلها وكأنها انامـــل مومياء وذات اظافر أفتح لونا ، ما انفكتـا تقشران وتقشران الفستق ، بسرعـــة وخفة القرود . وبعد الانتهاء من أكله نفضت القشور عن ركبتيها ثـــم اغمضت عينيها ، ووضعت ساقا على ساق واستلقت على ظهر المصطبة . بدا فخذاهـا كنتوءين صلبين بخطوط منسابة تحت التنورة السوداء الفضفاضة ، التي يبرز انوثتها المتميزة حزام خصرها الرخيص . بينما كانت تضع قدمها الضامرة العارية ، التى تلمع ببشرتها الملوحة ، فى خف قماشي أسود مربوط بشرائط ملونة – زرقاء وحمراء . . .

غادرت العربة بالقرب من آرل .

* C'est une camarguaise. —

---

* انها من بنات كامارج (بالفرنسية) .

قال هذا بحزن ، لامر ما ، جاري في العربة وهو يتابعها بنظراته ، فقد اثار جمالها لواعج قلبه ، وكان رجلا من ابناء بروفانس ، ضخم الجثـة كالثور ، بخدين غطاهما الاحمرار القاتم الذى تبرز فيه عروق الدم .

٢٣ مايو ١٩٤٤

مائة روبية

رأيتها مرة صباحا فـــى فناء الفنـــدق ، ذلك المنزل الهولندى القديم الرابض وسط غابات جوز الهند على ساحل المحيط ، حيـــث كنت أعيش فى تلك الايام . ثم صرت أراها هناك فى صباح كل يوم . كانت تستلقى شبه راقدة فى مقعد مـــن القصب ، فى الفىء الخفيـــف القائظ للمنزل ، على بعد خطوتين من الشرفة . فيأتى رجل مـــن ابناء ملايو ، طويل القامة ، أصفـــر السحنة ، ضيق العينين لحد يبعث على الالم ، يرتدى قمصلة خيش بيضاء وسراويل مثلها ، وتنبعث خشخشة من قدميه الحافيتين فوق الحصى ، حاملا اليها صينية عليها شاى ذهبى اللون فيضعها على مائدة صغيرة الى جانـــب المقعد ، ويقول لها شيئاً من عبارات الاحترام ، دون ان يحرك شفتيـــه الجافتين الملمومتين ، وينحنـى لها ثم يبتعد . بينما ترقد هى شبه مستلقية وتلوح ببطء مروحـــة القش ، وتومض رموشها الرائعة الشبيهة بالقطيفة السوداء . . . ما هو صنف كائنات الارض الذى يمكن ان تنتمى اليه ؟

ان جسدها الصغير المعافى مثـــل اجساد اهالى

المناطق الاستوائية ، قد انكشف عاريا بلون البن فى الصدر والكتفيـــن والذراعين والساقين حتى الركبتين ، اما القد والفخذان فقد لفهما كيفما اتفق قماش أخضر زاه . ولاحـــت قدماها والاصابع ذات الاظافر الارجوانية بين السيور الحمراء لصندالياها الصقيلين المصنوعين من الخشب الاصفر . وشعرها الفاحم ، المرفوع بتسريحة عالية ، لم يكن يناسب بصورة غريبة مـــن حيث خشونته رقة وجههـــا الطفولى . وتأرجحت فى صيوانى الاذنين الصغيرتين حلقتان ذهبيتان مجوّفتان . كانت أهدابها السوداء كبيرة خلابة بغرابة – فهى مثل فراشات الجنة التى تومض بصـــورة ساحرة فـــوق أزهار الجنـــة الهندية . .. ان كلمات الجمال والعقـل والحماقة لا تناسبها أبدا ، كما لا يناسبها كل ما هو انسانى : فتبدو حقا كما لو كانت اتيـــة من كوكب آخر . والشىء الوحيد المناسب لها هو صمتها . كانت شبه راقدة وصامتة ، وتومض وميضا رتيبا باهدابها – الفراشات الشبيهة بالقطيفة السوداء ، ملوحة ببطء مروحتها . . .

وحدث مرة فـــى الصباح حين دلفت الى فناء الفندق عربة الريكشا التى اعتدت الذهاب بها الى المدينة ، استقبلنى الملايوى على درجات الشرفة ، وانحنى ، ثم قال بالانجليزية هامسا :

– مائة روبيه ، سير !

٢٤ مايو ١٩٤٤

ثار

في البنسيون الذي نزلت فيه بمدينة كان ، حيث وصلت في اواخر اغسطس بنية الاستحمام في البحر ورسم اللوحات عن الطبيعة ، كانت هذه المرأة الغريبة تتناول القهوة في الصباح والغداء على مائدة منفردة ، تبدو دائما كاسفة البال مظلمة النفس ، كما لو انها لا ترى احدا او شيئا ، وبعد تناول القهوة تنصرف الى مكان ما حتى حلول المساء تقريبا . كنت قد امضيت نحو الاسبوع في البنسيون وانا ما انفك استرق النظر اليها بفضول : شعر كثيف اسود ، ضفيرة سوداء غليظة تطوق راسها ، جسد متين وترتدي فستانا احمر مزينا بزهور سوداء صنع من قماش الكريتون ، وجه مليح لا يخلو من خشونة — وتلك النظرة الكئيبة . . . تولت امر خدمتنا فتاة الزاسية في حوالي الخامسة عشرة من العمر ، لكنها ذات صدر ناهد وعجز كبير ، بدينة جدا بدانة رقيقة نضرة بصورة عجيبة ، بلهاء وظريفة للغاية ، ولدى مخاطبتنا اياها يضيء محياها بمزيج من الفزع

والابتسام . حدث مرة ان التقيت بها في الدهليز فسألتها :

— Dites, Odette, qui est cette dame ? •

رفعت مقلتيها الزرقاوين وهما تلمعان لمعانا خفيفا نحوي ، باستعداد للفزع وللابتسام ، وقالت :

— Quelle dame, monsieur ?
— Mais la dame brune, là-bas ?
— Quelle table, monsieur ?
— Numéro dix.
— C'est une russe, monsieur.
— Et puis ?
— Je n'en sais rien, monsieur.
— Est-elle chez vous depuis longtemps ?
— Depuis trois semaines, monsieur.
— Toujours seule ?
— Non, monsieur. Il y avait un monsieur. . .
— Jeune, sportif ?
— Non, monsieur. . . Très pensif, nerveux. . .
— Et il a disparu un jour ?
— Mais oui, monsieur. . .**

• — خبريني ، اوديت ، من هذه السيدة ؟

•• — اية سيدة ، يامسيو ؟ — السيدة السمراء ، هناك ؟ — اية مائدة ، يا سيدي ؟ — رقم عشرة . — انها روسية . يا سيدي . — وبعد ؟ . . — لا اعرف شيئا عنها . — هل تعيش عندكم منذ زمن بعيد ؟ — ثلاثة اسابيع ، يا سيدي . — هل انها وحيدة دائما ؟ — لا ، يا سيدي . كان ثمة رجل . . . — شاب هيئته رياضية ؟

فجال في خاطري «هكذا ، هكذا اذن ! صار ثمة شيء ما مفهوما الآن . لكن اين تختفي في كل صباح ؟ هل تجدّ في البحث عنه ؟»

في اليوم التالي ، وبعد تناول القهوة بفترة قصيرة ، سمعت كما هي الحال دوما عبر النافذة المفتوحة لغرفتي طقطقة الحصى في حديقة البنسيون ، فتطلعت : كانت تحث الخطى بعجلة الى مكان ، منتعلة خفين قماشيين احمرين ، حاسرة الرأس كشأنها دوما ، حاملة مظلة بلون فستانها . فتناولتُ العصا وقبعة الشمس ومضيت في اعقابها مسرعا . انعطفتُ من زقاقنا الى بولفار كارنو ، وفعلتُ الشيء ذاته ، وكليّ رجاء ألا تلتفت نحوي في انهماكها الأزلي بتأملاتها ، ولا تتحسس وجودي . وهذا ما حدث بالضبط . اذ لم تلتفت مرة واحدة حتى محطة القطار . كما لم تلتفت في المحطة ، حين صعدت الى مقصورة عربة من عربات الدرجة الثالثة . كان القطار متوجها الى طولون ، وتحسبا للطوارىء اقتنيت تذكرة الى سان رفائيل ، وصعدت الى المقصورة المجاورة . الظاهر انها لم تتوغل بعيدا في رحلتها ، لكن الى اين ؟ اطللت برأسي من النافذة بالمحطة في نابول ، وفي تيول . . . في نهاية المطاف اطللت لدى التوقف لحظة في ترييناس فرأيتها تتجه نحو المخرج من المحطة . ترجلت من

– لا ، يا سيدي . عبوس ، عصبي جدا . – وفي احد الايام اختفى ؟ – نعم ، يا سيدي . . . (بالفرنسية .)

العربة ومضيت في اثرها مرة اخرى لكن مع الابقاء على مسافة ما بيني وبينها . وساعتئذ توجّب على المشي طويلا – في الطريق الملتوية بمحاذاة المنحدرات عند البحر ، وفي الدروب الحجرية الشديدة الانحدار عبر غابة صنوبر صغيرة ، التى قلصت فيها طريقها نحو الساحل ، الى خلجان صغيرة يبدو فيها الساحل مقدودا قدا بسكين في هذه البقعة الصخرية المغطاة بالغابات والخالية من الناس ، الى سفوح الجبال تلك الممتدة على الساحل . اقبلت الظهيرة ، وكان الجو قائظاً ، والهواء وخيما وساكنا برائحة اشجار الصنوبر الملوحة بلهيب اشعة الشمس ، وخلا المكان من اي نفس وصوت ، بل كان يسمع فقط صوت الزيزان تصرّ صريرا وتهسهس هسيسا ؛ البحر المكشوف باتجاه الجنوب يتألق ويتأرجح في نجوم فضية كبيرة . . . في نهاية المطاف غذت الخطى مهرولة في الدرب المطروق نحو خليج صغير اخضر ينبسط بين الصخور العالية الصهباء . رمت المظلة فوق الرمل ، ونزعت الخفين بسرعة – كانت بلا جوارب – ثم راحت تنضو عنها ثيابها . انبطحت فوق الصخرة المنتصبة على الساحل ، والتي فكت تحتها ازرار فستانها المعتم المنقوش بالازهار ، كنت اتطلع وافكر في دخيلتي ان مايوه السباحة لديها بلون يبعث على التشاؤم ايضا . لكن ظهر عدم وجود اي مايوه تحت الفستان ، كان ثمة قميص تحتاني

قصير وردي اللون فقط . نزعت القميص أيضا ، بدت بجسدها البني الملوّح كلـــه ، متينة قوية ، ومضت فوق الحصى الى المـــاء الفاتح الشفاف ، مشدودة الرسغيـــن ، نصفا عجزهـــا المكوران يتأرجحان ، وبشرة فخذيها الملوحة تلمع . وقفت بالقرب من الماء ، – لا بد وانها قد ضيقت عيناها من بريقه ، – ثم راحـــت تطرطش فيه بقدميها ، وجلست ثم غاصت حتى الكتفين ، استدارت راقدة على بطنها فيـــه ، وتمددت ناشرة ساقيها باتجاه الساحل الرملي ، ووضعت عليه مرفقيها ورأسهـــا الفاحم . تراءى من بعيـــد متأرجحاً بحركة واسعة وبطلاقة السهـــل البحري المنبسط ذو الامواج الناتئة الفضية ، صارت اشعة الشمس محرقة اكثر فاكثر ، فلفت الخليـــج المنعزل وكل جمالـــه الصخري ، وعم السكون هذه البقعة الخالية المؤلفة من الصخور والغابات الجنوبية القليلـة الاشجار ، فيمكن سماع كيف ترتطم احيانا شبكـــة التموجات الدقيقة الزجاجية بالجسد المنطرح على بطنه تحتي ، ثم تبتعد عن ظهره اللامع ، والعجـز ذي الفصين ، والساقين الضخمتين المنشورتين . كنت اراقـــب راقدا من وراء الصخور مظهـــر هذا الجسد العاري الرائع وقلبي طافح بانفعال متزايد اكثـر فاكثر ، متناسياً اكثر فاكثر صفاقة ووقاحة فعلتي ، فنهضت وصرت ادخن غليوني من الارتباك ، – وبغتة رفعت رأسها ايضا ، بيـــد انها ثبتت بصرهـا بتساؤل

محدقة فيّ من الاسفل الى الاعلى ، لكنها واصلـــت رقادها كما كانت راقدة . فنهضت دون ان اعلم ما ينبغي عليّ ان افعل ، او اقول . بادرت هـــي بالكلام :

– كنت طوال الطريق اتحسس ان احدهـــم يقتفي اثري . لِمَ تعقبتني ؟

عزمت على الاجابة بلا لف ودوران :

– ارجو المعذرة ، بدافع الفضول . .

فقاطعتني بقولها :

– نعـــم ، يبدو انك محب للاستطلاع . لقـد ابلغتني Odette انك سألتها عني ، وسمعت بمحض الصدفة انك روسي ، لهذا لم أعجب – فالـروس كلهم يفرطون فى حب الاستطلاع . مع هذا ما سبب تعقبك لي ؟

– بحكم حب الاستطلاع ذاته ، – وبضمن ذلك حب الاستطلاع المهني .

– نعم ، اعلم انك رسام .

– وانت نموذج ممتاز للرسام . علاوة على ذلك كنتِ صباح كل يوم تتوجهين الى مكان ما ، وهذا اثار فضولي ، – الى أين ، ولم ؟ – وتتغيبين عن تناول الفطور ، الامر الذي لا يحدث كثيرا لساكني البنسيونات كما ان مظهرك كان دائما غريبا بعض الغرابة ، كنتِ غارقة في التفكير بأمر ما . واراك تمضين وحيدة وصامتة ، كما لو انك منطوية على

اسرار . . . اما السبب في عدم انصرافي حالما شرعت بخلع ملابسك . . .

فقالت :

– هذا مفهوم . . .

ثم صمتت هنيهة واضافت :

– سأخرج الآن ، فادرّ وجهك للحظة ، ثم تعال الى هنا . انت ايضا اثرت اهتمامي .

فأجبت :

– لن ادير وجهي مهما كان الحاحك في الطلب ، فأنا رسام ، ونحن لسنا بطفلين صغيرين .

هزت كتفيها :

– حسنا ، الامر لدي سواء . . .

نهضت بكل قامتها ، مظهرة جسدها كله من امام بكل سحرها الانثوي ، مشت الهوينا فوق الحصى ودست رأسها في قميصها الوردي ، ثم مدت منه محياها الجادّ ، وانزلته على جسدها المبلل .

نزلت اليها وجلسنا الى جانب احدنا الآخر . فسألت :

– لربما لديك سجائر عدا الغليون ؟

– لدي .

– هات سيجارة .

فاعطيتها ، واشعلت عود ثقاب .

– شكراً .

صارت تأخذ انفاسا طويلة من الدخان ، وترنو

الى بعيد ، محركة اصابع قدمها ، دون التفات اليّ . وقالت على حين غرة بسخرية :

– معنى هذا انني ما زلت احظى بالاعجاب ؟

فهتفت :

– كل الاعجاب ! جسد بديع ، وشعر رائع ، وعينان . . . لكن مع ذلك فان تعبير الوجه لا ينم عن الطيبة .

– هذا لأن بالي ، حقا ، مشغول بفكرة خبيثة واحدة .

– هذا ما جال في خاطري ، لقد افترقت عن شخص ما مؤخرا ، ان احدهم فارقك . . .

– لم يفارقني ، بل هجرني . هرب مني . كنت عارفة بأنه رجل لا نفع منه ، لكنني مع هذا احببته . وظهر انني احببت نذلا لا غير . التقيت به في مونت كارلو قبل حوالي الشهر والنصف . كنت في ذلك المساء العب في كازينو . وقف الى جانبي ، مارس اللعب ايضا ، وتابع الكرة بنظرات مجنونة محمومة ، وما انفك يكسب ، ويكسب مرة ومثنى وثلاثا ورباعا . . . كنت أيضا اكسب طوال الوقت ، وقد لاحظ هذا وفجأة قال : «كفاية ! Assez!» – والتفت نحوي : « N'est-ce pas, madame ? » * فاجبته ضاحكة «نعم ، كفاية !» – «آه ، انت روسية ؟» – «كما ترى» – «اذن هيا بنا نحتفل بالربح !» تطلعت نحوه – رجل فعلت السنون فعلها

* كفى ! . . أليس كذلك يا مدام ؟ (بالفرنسية .)

فيه ، لكنه وسيم وانيق . . . امـــا الباقي فليس من العسير تخيله .

– نعم ، ليس عسيرا . لقد شعرتما ابان العشاء بأنكما قريبين في الروح ، ولم تتوقفا عن الاحاديث ، واستبدت بكما الدهشة حين حانت ساعة الفراق . . .

– عين الصواب . لم نفترق ابداً واخذنا ننفق ما كسبناه . فعشنا في مونت كارلو وفي تيوربي وفي نيس ، وتناولنا افطارنا وغداءنا في الحانات في الطريق بين كان ونيس ، – اظنك تعرف كم يكلف هذا ! – عشنا في فترة ما حتـــى في فندق بضاحية Cap d'Antibes متظاهرين بأننا من الاثرياء . . . بينما صارت النقود تنضب شيئا فشيئـــا ، وتمخضت الرحلات الى مونت كارلو ، وانفاق آخر ما تبقـــى لدينا ، عن الانهيار اثر الانهيار . . ثم طفق يختفي في مكان ما ويعود بنقود مرة أخرى ، رغم ان ما كان يأتي به من التفاهات – مائة فـــرنك ، خمسون فرنك . . . ثم باع قرطيً في مكان ما ، وكذلـــك خاتم الزواج ، – اذ كنت متزوجة في وقت مـــن الاوقات ، – وصليبي الذهبي .

– طبعا ، كان يؤكد انه على وشك استلام دين كبير من احدهم ، ولديه اصدقاء ومعارف من كبار القوم والاغنياء .

– نعم ، هذا عين الصواب . انا حتى الآن لا اعرف بالضبط من كان هو ، فقد كان يتهرب من الحديث باسهاب وبجلاء عن حياته الماضية ، بينما

لم اكن ابدي الاهتمام بهذا . على اية حال انه الماضي المألوف لكثير من المهاجرين : بطرسبورج ، الخدمة في كتيبـــة ممتازة ، ثم الحـــرب ، والثـــورة ، والقسطنطينية . . . وزعم انه استقر في بـــاريس وبوسعه دائمـــا الاستقرار بصورة لا بأس بهـــا بمساعدة المعارف القدامى ، والآن يمكنه ان يسافر الى حين الى مونت كارلو ، والاستقراض من بعض الاصدقاء الوجهاء في نيس . . . وكنت قد بـدأت افقد معنوياتي ، وتملكني اليأس ، بينمـــا كان يستغرق في الضحك فحسب : «اطمأني اعتمدي عليّ ، لقد قمت ببعض الاجراءات اللازمة في باريس ، اما ما هي فتلك مسألة لا تخص النساء كما يقال . . .» .

– هكذا ، وبعد . . .

– ماذا بعد ؟

فجأة التفتت نحوي ، بعينين يتطاير منهما الشرر ، ورمت السيجارة المنطفأة بعيدا .

– هل يسليك الامر كله ؟

فأمسكت بيدها وضغطت عليها :

– الا تخجلين ! سأرسمك بهيئة ميدوزه * او نيميزيدا ** .

– هل هي الهة الانتقام ؟

– نعم ، انها حقودة جدا .

---

* احدى الغورغونات الثلاث في الميثولوجيا الاغريقية ، وكانت حين تنظر الى البشر يتحولون الى صخور . **المعرب** .

** الهة الانتقام عند الاغريق . **المعرب** .

فضحكت بكآبة :

– نيميزيدا ! ايـــة نيميزيدا هذه ! لا ، انت ظريف . . . اعطني سيجـــارة اخرى . لقد علمني التدخين . . . علمني كل شيء !

اشعلت السيجارة وراحت تتطلـع مرة اخرى في الافق البعيد .

– نسيت ايضا ان اقول لك كم كنت مندهشا حين رأيت الى اين تذهبين للاستحمام – رحلة طويلة في كل يوم ولأي غرض ؟ الآن افهم . انك تبحثين عن الوحدة .

– نعم . . .

حميت الشمس حمياً وزحف حرّ الهجير ، وراحت الزيزان تصر وتهسهس بالحاح وغيظ متزايدين ، على اشجار الصنوبر الساخنة ذات الرائحة العبقة ، – فأحسست ، كيف ان شعرهـــا الاسود وكتفيهـــا العاريتين وساقيها كان لا بد وان لوحتها الشمس وقلت :

– لنذهب الى الفيء ، فالشمس ملتهبة ، واكملي قصتك المحزنة .

ثابت الى رشدها :

– لنذهب .

مشينا ملتفين حول نصف قوس الخليج الصغير ، وجلسنا في الفيء الخفيف الفاتح والقائظ المحتدم تحت الصخور الحمراء . امسكتُ بيدها مرة أخرى وابقيتها في راحة يدي . فلم تلاحظ هذا ، قالت :

– ما الذي اختتم به قصتي ؟ لقد فقدت الرغبة في استعادة ذكريات هذه القصة المحزنة المخزيـة فعلا . اغلب الظن انك تعتقد انني محظية عادية لدى هذا المحتـــال او ذاك . هذا بعيد عن الواقع . ان حياتي الماضية كانت عادية جدا ايضا . كان زوجي في جيش المتطوعين ، * وحارب بادئ ذي بدء مع دينيكين ثم مع فرانجل ، وحين القت بنا المقادير الى باريس أصبح سائقا طبعا ، لكنه بدأ بمعاقرة الخمر ، وافرط في هذا حتى فقد عمله ، وتحول الى متشرد حقيقي . ومـــا كان بوسعي مواصلة العيش معه ابدا . لقد رأيته آخر مرة في مونبارناس عند باب «دومينيك» . انت تعرف طبعا هذه الحانـــة الروسية ! كان الليل قد ادلهم والمطر ينهمر ، بينما مضى هو في حذاءين رثين ، يطرطش في برك المياه ، راكضا وراء المارة ، مادّاً يده اليهم طلبا للاحسان ، كما راح يستقبل القادمين في سيارات الاجرة مقدما لهم المساعدة بحركات خرقاء ، وبالاحرى يعيقهم . . . وقفتُ متلبثة وتطلعتُ اليه ، ثـــم دنوت منه . فعرفني ، وارتعب ، والتوت سحنته خجلا وارتباكا ، – انت لا تستطيع ان تتصور اي رجل طيب وديع رقيق هو ! – وقف ينظر الي بحيرة : «ماشا ، انتِ ؟» . كان صغير الحجم مجعد الجسم ، مهترئ الملبس ، غيرحليق ، وجهه كله تغطيه لحية حمراء ، مبللاً ،

* جيش الثورة المضادة في روسيا بعد ثورة اكتوبر . ودينيكين وفرنجل من قادتها العسكريين . **المعرب** .

يرتجف من القرّ . . . اعطيته كل ما كان في حقيبتي ، فأمسك بيدي ، بكفّ مبللة باردة كالثلج ، وطفق يبوسها ، وينشج مختنقا بدموعه . فما كان بوسعي عمله ؟ ما كان بوسعي سوى ان ارسل اليه مرتين او ثلاث مرات في الشهر مائة او مائتي فرنك . فلدي في باريس محل لصنع القبعات ، واكسب ما يكفيني من المال . لقد جئت الى هنا للاستجمام ، والاستحمام — وهاك ما لقيته . بعد ايام سأسافر الى باريس . ليتني التقي به لاكيل صفعة له وهكذا دواليك — حلم سخيف جدا ، او تعرف متى ادركت هذا كليا ؟ الآن فقط ، بفضلك . حين بدأت اروى لك القصة ادركت . . .

— مع ذلك كيف هرب منك ؟

— آه ، المسألة انه فعل هذا بكل دناءة . نزلنا في هذا البنسيون الصغير ، حيث اصبحنا ، انا وانت ، جارين ، — وهذا بعد الفندق في Cap d'Antibes ! — وفي احدى الامسيات ، قبل عشرة ايام فحسب ، مضينا لشرب الشاي في كازينو . طبعا ، كانت هناك موسيقى وعدة ازواج من الراقصين ، — ولم اعد استطيع النظر الى هذا كله بلا اشمئزاز ، فقد نلت كفايتي منه ! — لكنني لبثت جالسة اتناول المعجنات التي طلبها من اجلي ولنفسه ، وراح يواصل الضحك ضحكا غريبا ، — وقال متحدثا عن الموسيقيين . : انظري ، انظري ! — قرود حقيقية ، يدقون بأقدامهم ويتصنعون في

حركاتهم ! ثم فتح علبة السجاير الفارغة ، واستدعى النادل ، وامره بجلب سجاير انجليزية ، فجلبها ذاك ، وقال ميرسي ساهما ، سأدفع لك بعد الشاي ، وتطلع الى اظافره وخاطبني بقوله : «يا للفظاعة ، اية يدين ! سأذهب لاغسلهما . . .» فنهض وخرج . . .

— ولم يرجع بعد هذا . .

— نعم ، بينما كنت جالسة بانتظاره . انتظرت عشر دقائق وعشرين ، ونصف ساعة ، وساعة . . . هل تتصور ذلك ؟

— اتصور . . .

تخيلت نفسي هذا بكل جلاء : هما جالسان وراء طاولة الشاي ، يتطلعان ، يلوذان بالصمت ، يفكران تفكيراً متباينا بوضعهما الحقير . . . وتبدو وراء زجاج النوافذ الكبيرة السماء المدلهمة وتتراءى صفحة مياه البحر الساكنة اللامعة ، ويتدلى سعف النخيل الضارب الى السواد ، والموسيقيون يدقون الارض بأقدامهم كالدمى الخالية من الحياة ، وينفخون فى الآلات ، ويقرعون الصحون المعدنية ، والرجال يجرجرون اقدامهم ويتأرجحون مع انغام الحانهم ويسحبون رفيقاتهم في الرقص ، كما لو انهم يدفعونهن بجلاء تحقيقا لغرض معين . . . ثم يمد له النادل اللابس القفافيز وما يشبه البزة الخضراء رافعا قبعته باحترام علبة « High Life » . . .

— وماذا بعد ؟ كنت جالسة . . .

— كنت جالسة وثمة احساس يغمرنني بأننى

هالكة . انصرف الموسيقيون وخلت القاعة ، واشعل النور الكهربائي . . .

– ولاحت الزرقة في النوافذ .

– نعم ، لكنني كنت عاجزة عن مغادرة مقعدي : ما العمل ، وكيف الخلاص ؟ لم يكن لديّ في الحقيبة سوى ستة فرنكات وبعض القطع النقدية الخردة !

– اما هو فتوجه فعلا الى المراحيض ، فعل هناك ما يجب فعله ، وافكاره تدور عن حياته فى الغش والاحتيال ، ثم زرر جاكتته ، مضى على اطراف اصابعه في الدهليز نحو المخرج الآخر ، وتسلل الى الشارع . . . تبًا لك ، تصوري من ذاك الذي احببته ! البحث عنه ، الثأر منه ، لأي شيء ، لست بفتاة ، ووجب ان تدركي حقيقته ، وفي أي مأزق وقعت . ولم واصلت هذه الحياة ، البشعة الفظيعة ، من كافة النواحي ؟

لاذت بالصمت ، وهزت كتفيها :

– من احببت ؟ لا اعرف . كنت كما يقال بحاجة الى العشق ، الذي لم امتحنه ابدا امتحانا حقيقيا . . . انه لم يهبني شيئا كرجل ، وما كان بوسعه ذلك ، حيث فقد منذ أمد بعيد فحولته . . وجب عليّ ادراك من هو والمأزق الذي وقعت فيه ؟ طبعا ، وجب عليّ هذا ، لكنني لم اود ان ادرك وافكر ، وعشت لاول مرة في حياتي مثل هذه الحياة ، مثل هذا العيد الفاسق ، بكل ملذاته ، عشت بما يشبه وسوسة الشيطان . لم اردت لقاءه في مكان ما والثأر منه

بشكل ما ؟ انها وسوسة الشيطان ايضا ، مس من الجنون . الم احس بأنني ما كنت لاستطيع عمل شيء سوى اثارة الفضيحة الدنيئة البائسة ؟ لكنك تقول : لأي شيء اثار ؟ لكوني بفضله قد انحدرت الى هذا المستوى . وعشت حياة المحتالين هذه ، والامر الاساسي لما لقيته من الفظاعة والعار في الكازينو ذلك المساء ، حين هرب من المراحيض ، وحين طفقت ألفق الاكاذيب في صندوق الحساب في الكازينو دون ان اعي ما افعل ، وافتعل الذرائع واتوسل بأخذ حقيبتي كرهان حتى يوم غد – وحين لم يأخذوها اذ غفروا لي باحتقار الشاي والمعجنات والسجاير الانجليزية ! بعثت ببرقية الى باريس ، تلقيت في اليوم الثالث الف فرنك ، وذهبت الى الكازينو – فأخذوا النقود هناك دون النظر اليّ ، وحتى سلمونى فاتورة الحساب . آه ، يا عزيزي ، انا لست بميدوزة ، انا مجرد امرأة . علاوة على هذا امرأة بالغة الحساسية ، وحيدة ، تعيسة ، لكن افهمني حتى لدى الدجاجة قلب ايضا ! انا كنت مجرد عليلة طوال تلك الايام منذ ذلك المساء الملعون . والله قد بعث بك اليّ ، وها قد رجعتُ الى صوابي بغتة . . . اترك يدي لحالها ، حان الوقت لارتداء ملابسي ، وعما قريب سيصل القطار من سان رفائيل .

قلت :

– فليأخذه الشيطان . الافضل ان تنظري

حواليك ، الى هذه الصخور الحمراء ، والخليج الصغير الاخضر ، واشجار الصنوبر الملتوية الاغصان ، واسمعي الى هذا التغريد كما لو انه صادر من الجنة . سناتي الى هنا من الآن سوية معاً . حقا ؟

– حقا .

– وسنسافر الى باريس معا ايضا .

– بلى .

– ولا يستحق التخمين بما يلي ذلك .

– بلى ، بلى .

– هل يمكن ان الثم يدك ؟

– ممكن ، ممكن . . .

٣ يونيو ١٩٤٤

الارجوحة

في امسية من امسيات الصيف جلست' في غرفة الاستقبال اعزف' بعض الالحان على البيانو ، فسمعت وقع خطواتها على الشرفة ، وعندئذ طرقت' على المفاتيح بعنف ، واطلقت' عقيرتي في العياط والغناء :

لن احسد ارباب الجنان ،
لن احسد ملوك الزمان ،
حالما ارى في الالحاظ تباريح هيام ،
القد مياس والضفائر قتام !

دلفت مرتدية سارافانا ازرق ، وتدلت ضفيرتان طويلتان قاتمتان على ظهرها ، وتحلى جيدها بعقد من المرجان ، وهلت عليّ عيناها الزرقاوان تطفو فوقهما ابتسامة في محياها الملوّح :

– هذه الاغنية عني ؟ والانشودة من تلحينك ؟

– نعم .

طرقت المفاتيح مرة اخرى وانشدت :

لن احسد ارباب الجنان . . .

– يا لها من اذن موسيقية ، اذنك !

– الا انني رسام شهير . ووسيم الطلعة مثل ليونيد اندرييف . ولسوء حظك جئت لزيارتكم !

– انه يخيفني لكنني لا أهاب شيئاً ، هذا ما قاله تولستوي عن صاحبك اندرييف هذا .

– سنرى ، سنرى !

– وعصا جدي ؟

– رغم ان جدك من ابطال سيفاستوبول ، فهو مخيف في المظهر فقط . لنهرب ونعقد عقد القران ثم نجثو بين قدميه – فتترقرق دموعه ، ويسامحنا .

في الغسق ، قبيل العشاء ، حين كانوا في المطبخ يقلون الكستليتة ذات الرائحة العبقة مع البصل ، وسرت البرودة في المنتزه الملفع بقطرات الطل ، راحا يتأرجحان في الارجوحة في نهاية الممر ، منتصبين انفا لانف ، وحلقتا الارجوحة تطلقان صريرا ، وتهب الرياح مما تجعل اطراف تنورتها تنتفخ . صار يحملق بعينين مخيفتين شادا الحبلين ودافعا اللوحة للطيران عاليا ، بينما توردت وجنتاها ورنت اليه بالحاح وبلا معنى وبابتهاج وجذل .

– أوهو . . هاهي اول نجمة والهلال والسماء فوق البحيرة خضراء شديدة الخضرة ، – انظر يا رسام المناظر الطبيعية اي هلال رفيع ! الهلال ، الهلال ، ذو القرنين الذهبيين . اوى ، سنسقط !

انحدرا من الاعالي وهبطا الى الارض ، ثم جلسا على اللوحة ، حابسين انفاسهما المنفعلة ، متطلعين نحو احدهما الآخر .

– حسنا ، انا قلت !

– ماذا قلت ؟

– انت وقعت في غرامي .

– ربما . . . مهلا . انهم يدعوننا للعشاء . . . اوهو ، نحن قادمان ، قادمان . .

– تريثي ، للحظة . اول نجمة ، الهلال ، السماء الخضراء ، عبير الندى ، رائحة المطبخ ، – لا بد وانها مرة اخرى اكلتى الاثيرة الكستليتة مع القريش ! – والعينان زرقاوان ، والوجه جميل سعيد .

– نعم ، اظن انه لن تكون هناك من امسية اسعد من هذه في حياتي .

– لقد تحدث دانتي عن بياتريشيا «في عينيها بداية الحب ، والخاتمة في الشفتين» . أليس كذلك ؟ – قال هذا متناولا يدها .

اغمضت عينيها ومالت اليه وقد تدلى رأسها . احتضنها من كتفيها مع الضفيرتين الناعمتين ، ورفع وجهها .

– الخاتمة في الشفتين ؟

– نعم . . .

عندما مشيا في الممر كان يتطلع الى ما بين قدميه :

– مـــا العمل الآن . هل نذهب الى الجد لنجثو امامه ونتوسل اليه ليمنحنـا بركته لكن اي زوج انا ؟

– كلا ، كلا . كل شيء الا هذا .

– ماذا اذن ؟

– لا اعرف . ليكن فقط ما لدينـا . . . ليس ثمة شيء افضل من هذا .

١٠ ابريل ١٩٤٥

يوم السجدة

احلولك النهار الشتوي الرمـــادي في موسكو ، واشتعل الغاز في المصابيح ببرود ، وانيرت بدفء واجهات المحلات ، واحتدمت حياة موسكو المسائية بعد ان تخلصت مـــن مشاغل النهار : فانطلقت متزاحمة ومسرعة اكثر فأكثـــر زحافات الاجرة ، وهدرت عربات الترام المتارجحة المزدحمة بالراكبين بعد ان غدت ثقيلة اكثـر فأكثر ، وبات يلوح في الغسق ، كيف تنهال من اسلاك خط الترام نجيمات خضراء مصحوبـــة بفحيح ،– وهرع المارة كاشباح ضاربة الى السواد مسرعين اكثر فوق الارصفـــة المفروشة بالثلج . . . في كـــل مساء كان الحوذي ينطلق بى في هذه الساعـــة وجواده يمضي خبباً ، مشدود القوام – من كراسنييه فوروتا الى كنيسة المسيح المنقذ . كانت تعيش قبالتها ، – وفي كـل مساء كنت اصطحبها لتناول الغداء في «براغ» ، وفي «الارميتاج» وفي «المتروبول» ، وبعد الغـداء نرتاد المسارح ، وحفلات الموسيقى والغناء ، ومن ثـــم نتوجه الى «يار» و«ستريلنا» . . . ولم اكن اعرف كيف سينتهي هذا كله ، وحاولت الا افكر واقلّب

الفكر في هذا : اذ لا فائدة منه – وكذا التحدث معها عن هذا ، فقد رفضت رفضا باتا الحديث عن مستقبلنا مرة والى الابد : كانت منطوية على اسرارها انطواءا شديدا ، عسيرة على الفهم بالنسبة لي ، كما ان علاقاتي بها غريبة ، – فلم يصل بنا الامر بعد الى ما يجمع بين امرأة ورجل ، وجعلني هذا كله اظل دائما في حالة توتر لا فكاك منها ، وانتظار مقرون بالعذاب – مع هذا كنت سعيداً سعادة لا تضارع بكل ساعة أقضيها الى جانبها .

كانت تدرس لسبب ما في الدورة التعليمية ، وكانت ترتادها احيانا ، لكن مع هذا ترتادها . واتفق لي ان سألتها مرة : «لأي غرض ؟» ، فهزت كتفيها : «لأي غرض تجري الامور في الدنيا ؟ هل نفقه نحن شيئا من افعالنا ؟ علاوة على ذلك لي ولع بالتاريخ . . .» . كانت تعيش وحيدة ، لان اباها الارمل الرجل المتنور سليل أسرة من كبار التجار كان يعيش بلا هموم في مدينة تفير ، وينهمك في اقتناء عاديات ما كأمثاله من التجار . والشقة التي تستأجرها في المنزل المقابل لكنيسة المسيح المنقذ تقع في ركن البناية ، في الطابق الخامس ، من اجل التمتع بمناظر موسكو ، وفيها غرفتان فحسب ، لكنهما فسيحتان واثاثهما جيد . وتشغل حيزا كبيرا في الاولى اريكة تركية واسعة ، وثمة بيانو فاخر ، كانت ما تنفك تتدرب في عزف عليه طوال الوقت المقدمة البطيئة الحالمة الرائعة لمقطوعة «سوناتا

القمر» * المقدمة وحدها فقط – ، وتضيء زاهية على منضدة التواليت والبيانو باقات ازهار جميلة في مزهريات متلألئة مضلعة ، – تنفيذا لأمري كانت تجلب لها الزهور النضرة في كل يوم سبت ، – وحين آتي اليها مساء كل سبت اجدها مستلقية على الاريكة التي علقت فوقها صورة تولستوي حافي القدمين ، فتمد يدها متريثة لكي اطبع عليها قبلة ، ثم تقول ساهمة : «شكرا على الزهور . . .» . كنت احمل لها علب الشوكولاتة ، والكتب الجديدة – هوفمانستال ، شنيتسلر ، تيتمايير ، بشيبيشيفسكي – واتلقى كلمة «شكرا» ذاتها مع مد يدها الدافئة ، واحيانا توجه لي الامر للجلوس الى جانب الاريكة دون ان اخلع معطفي . فتقول غارقة في التأملات ، وهي تمسد ياقتي المصنوعة من فرو القندس «لا أفقه السبب ، لكنني لا اجد افضل – كما يبدو لي – من رائحة الهواء الشتوي الذي يجلبه المرء من الفناء الى الغرفة . . .» تراءى لي انها ليست بحاجة الى اي شيء ، لا الى الزهور ، ولا الكتب ، ولا وجبات الغداء ولا المسارح ولا حفلات العشاء خارج المدينة ، رغم ان لديها ، مع هذا ، زهورا حبيبة وغير حبيبة ، وكانت تطالع جميع الكتب التي احملها لها ، وتأكل الشوكولاته

---

* من اعمال بيتهوفن الموسيقية الذائعة الصيت . **المعرب** .

بمعدل علبة كاملة في اليوم ، تاكل ولا اقل مما آكله في اثناء الغداء والعشاء ، وتحب تناول الفطائر مع حساء السمك ، والدجاج البري مع القريشة المحمصة ، وفي بعض الاحيان تقول : «لا افهم كيف لا يسأم الناس من تناول الغداء والعشاء الحياة كلها» ، – بيد انها كانت نفسها تتغدى وتتعشى مثل الموسكوفيين الاقحاح . ونقطة ضعفها الواضحة الوحيدة هي الملابس الفاخرة ، والقطيفة والحرير ، والفرو الغالي الثمن . . .

كنا نحن الاثنين موسرين ، بأتم عافية ، وفي ريعان الشباب ، ونتسم بالملاحة الى حد ان الناس في المطاعم والحفلات يتابعوننا بأنظارهم اعجابا . كنت آنذاك ، ومسقط رأسي في محافظة بينزا وسيم الطلعة بتلك الوسامة الجنوبية المتألقة ، التي تجاوزت «حدود اللياقة» ، كما قال لي احد مشاهير الممثلين ، وهو رجل بدين للغاية ، اكول نهم مرهف الذكاء . فقال بلهجة ناعسة : «الشيطان وحده يعلم من انت ، صقلي ام ماذا» ؛ طبعي كان جنوبيا ايضا ، جذوة من الحيوية ، واستعداد دائم للابتسام بسعادة ، ولاطلاق النكتة الحلوة . بينما تسربلت هي بحسن اشبه بحسن الهنديات والفارسيات : فمحياها اسمر ضارب الى صفرة الكهرمان وشعرها خلاب رائع يبعث سواده الفاحم شعورا بوقوع نازلة ، وحاجباها يلمعان لمعانا خفيفا مثل فرو السمور الاسود ، عيناها كحيلتان مثل فحم

مخملي ، وثغرها الآسر بالشفتين القرمزيتين الناعمتين يظلله زغب قاتم ؛ حين تغادر البيت غالبا ما ترتدي فستانا مخمليا بلون العقيق ، وتنتعل حذاءين بلونه لهما ابزيمان ذهبيان (بينما كانت ترتاد الدورة التعليمية مثل اية طالبة بسيطة الملبس ، وتتناول فطورا مقابل ثلاثين كوبيكا ، في المطعم الشعبي الخاص بالمأكولات النباتية بشارع اربات) ؛ وبقدر ما كنت ميالاً الى الثرثرة ، والمرح الخالي من الخبث ، بنفس القدر كانت صموتة في اكثر الاحيان : فلا تنفك من الاستغراق في التفكير بأمر ما ، والسعي الى ادراك كنه امر ما في قرارة نفسها ؛ تجدها مستلقية ، على الاريكة ماسكة بكتاب في يدها ، وغالبا ما تتركه وتتطلع في الخلاء امامها بتساؤل : رأيت هذا حتى عندما كنت ازورها في النهار ، لانها كانت في كل شهر لا تغادر بيتها ابدا لثلاثة او اربعة ايام . كانت تستلقي وتنهمك في المطالعة ، مرغمة اياى ايضا على الجلوس في مقعد بالقرب من الاريكة والمطالعة صامتا . وتجدها تقول :

– انت كثير الثرثرة ولا تستطيع المكوث في مكان ، دعني انهي مطالعة الفصل .

– لو لم اكن ثرثارا وعاجزا عن المكوث في مكان واحد فلربما لم اكن لاتعرف عليك ابدا – اجبتها وانا اذكرها بهذا كيف تم تعارفنا : اذ حدث مرة في ديسمبر ان التحقت بحلقة لهواة الفن لسماع

محاضرة لاندريه بيلي * الذي كان ينشد محاضرته انشادا ، ويتراكض ويتراقص على خشبة المسرح ، فرحت اتململ ، واقهقه بصوت عال مما جعلها ، حيث كانت في المقعد المجاور لي ، ترنو اليّ في البداية بشيء من الدهشة والحيرة ، ثم تنفجر في النهاية ضاحكة أيضا ، ولحظتئذ تحدثت اليها بجذل . قالت :

– هذا حق ، لكن مع هذا اصمت قليلا ، طالع شيئا ما ، دخن . . .

– لا استطيع السكوت ! انت لا تتصورين مبلغ حبي لك . . . انت لا تحبينني !

– أتصور . اما بصدد حبي فانت تعرف جيدا ، بأنه ليس لي احد في الدنيا سواك وأبي . على اي حال انت الاول والاخير لديّ . فهل هذا قليل ؟ لكن كفى الحديث عن هذا ، لا يمكنني ان اطالع بحضورك ، دعنا نحتسي الشاي . . .

فنهضت ، وسخنت الماء في غلاية كهربائية تقوم على منضدة في طرف الاريكة ، واخذت فنجانين وطبقين من دولاب صنع من خشب الجوز ينتصب في الركن وراء المنضدة ، ولساني لا يستقر في فمي :

– هل انهيت مطالعة «الملاك الناري» ؟

– لقد قلبت صفحاتها . ان اسلوبها منمق ومزوق حتى تخجلني مطالعتها .

* الاسم المستعار للكاتب الرمزي الروسي بوريس بوغايف (١٨٨٠ – ١٩٣٤) . **المعرب .**

– لماذا غادرت فجأة حفلة شاليابين امس ؟

– لقد افرط في أداء الاغاني الشعبية الى حد الابتذال وعموما انني لا احب التظاهر بالوطنية الروسية .

– لا يعجبك شيء !

– نعم ، ثمة اشياء كثيرة لا تعجبني .

«حب غريب !» – هذا ما دار في خاطري ، وطفقت انتظر غليان الماء فوقفت بمحاذاة النافذة . غمر الغرفة شذى الازهار ، فاقترنت بالنسبة لي مع شذاها ؛ انبسطت في الاسفل بعيدا خلف احدى النوافذ لوحة هائلة وراء النهر لموسكو الضاربة للزرقة والمتسربلة بالثلج . وخلف الاخرى من جهة اليسار ، بدا قسم من الكرملين ، وفي المقابل في مكان قريب ما للغاية تراءى المبنى الابيض الضخم الجديد غاية الجدة لكنيسة المسيح المنقذ . وانعكست في قبتها الذهبية ببقع ضاربة الى الزرقة اشكال الغربان التي تحوم حولها دائما . . . «مدينة غريبة ! – قلت هذا لنفسي ، وجال في خاطري – شارع اخوتنى رياد ومصلى ايفرسكايا ، كاتدرائية فاسيلي بلاجيني ، وكنيسة سباس – نا – بورو ، الكاتدرائيات الايطالية وشيء ما قيرغيزي الطراز يتراءى في الرؤوس المدببة للابراج فوق اسوار الكرملين . . .» .

لدى المجيء عند الغسق كنت اجدها احيانا راقدة في الاريكة مرتدية رداءا حريريا لا غير وقد زينت

حواشيه بفرو السمور ، – قالت انهـــا ورثته عن جدتها في استراخان ، – فاجلس الى جانبها في شبه عتمة دون اشعال الضوء ، والثم يديها ، وقدميها ، وجسدها الناعم الخلاب في نعومته . . . فلا تعارض في شيء ولا تنى لانذة بالصمت . وفي كل لحظة ابحث عن شفتيها الدافئتين – فتعطيني اياهما ، وقد غدت انفاسها متقطعة ، بيد انها ما برحت صامتة . ولما تحس انني لم اعد قادرا على السيطرة على نفسي ، تبعدني جانبا وتجلس وترجوني دون رفع صوتها ان اشعل الضوء ، ثم تنصرف الى المخدع . فأشعل الضوء واجلس على المقعد الدوار بالقرب من البيانو ، واثوب الى رشدي رويدا رويدا ، وتبرد سورة انفعالـــي واستعيد هدوئي . وبعد ربع ساعة تأتي من المخدع وقد ارتدت ملابسهـــا مستعدة لمغـادرة البيت ، هادئة وبسيطة ، كمـــا لو لـــم يحدث شيء قبل هذا .

– الى اين سنذهب اليوم ؟ ربما الى «متروبول» ؟

ومرة اخرى نزجي المساء كله في الحديث عن امور جانبية . وبعد ان توثقت بيننا اواصر المودة بأمد قصير قالت لي حين فاتحتها بموضوع الزواج .

– لا ، انا لا اصلح كزوجـــة . لا اصلح ، لا اصلح . . .

لكن هذا لم يسلبني الامل . «ستتوضح المسألة فيما بعد !» – قلت هذا مخاطبا نفسي رجاء حدوث تغيير فى رأيها بمرور الزمن ولـم اتطرق بعد ذلك

الى موضوع الزواج . في بعض الاحايين بدا وصالنا الناقص امرا لا يطاق ، لكن في هذه الحالة ايضا – لم يتبق لديّ سوى الامل في تغير الوضع مع الزمن . حدث مرة عندما كنت جالسا الى جانبهـا ، في عتمة المساء تلك ، والسكون ، أن وضعت راسي ما بين راحتي يدي وقلت :

– لا ، هذا فوق طاقتي ! ولمـــاذا ولأي سبب يجب ان اتعذب وتتعذبين انت بمثل هذه القسوة !

لاذت بالصمت .

– لا ، هذا ليس بالحب ، ليس بالحب . . .

فردت من الظلام بصوت هادئ :

– ربما . فمن يعرف ما هو الحب ؟

وهتفت صائحا :

– انا ، انا اعرف ، وسأنتظر ، حتى تعرفين انت ايضا ما معنى الحب ، والسعادة .

– السعادة ، السعادة . . «سعادتنا ، يا عزيزي ، مثل الماء في الشبكة : حين تسحبها تنتفخ ، وحين تخرجها تجدها فارغة» .

– من قال هذا ؟

– هذا ما قاله بلاتون كاراتييف الى بيير * .

لوحت بيدي :

– دعينا من هذه الحكم الشرقية .

مرة اخرى تحدثت طوال المساء عن اشياء جانبية –

* مقتطف من رواية «الحرب والسلام» لتولستوي . المعرب .

عن العرض الجديـــد في مسرح الفن ، وعن قصة اندرييف * الجديدة . . . وكان يكفيني مرة اخرى ، انني في البداية اجلس ملتصقا بها في الزلاقة التي تمرق وتتأرجح ، محتضنا اياها في معطفهـا الناعم الفرو ، ثم الج معها قاعة المطعـم الغفيرة الزبائن بمصاحبة الحان اوبرا «عائدة» ، آكل واشرب معها ، اصغي الى صوتها الوئيد الهادئ ، ارنو الى شفتيها ، اللتين طبعت عليهمـا القبلات منذ ساعة خلت ، — واقول لنفسي ، نعم ، قبلتها ، وانا اتطلع اليهما بامتنان جذل ، والى الزغب القاتم فوقهمـــا ، والى فستانها المخملي الارجواني كالعقيق ، والى انحدار كتفيها وتكور نهديها ، متنشقا شذى شعرها العبق الخفيف ، فيدور في خلدي : «موسكو ، استراخان ، فارس ، الهند !» . في نهاية العشـاء ، حين يتعالى الضجيج في صالة احد المطاعم خارج المدينة ، وسط دخان متطاير ، كانت تدخن ايضا ، يصيبها الثمل فتقودني احيانا الى حجرة الخلوة ، وترجو استدعاء الغجر ، فيأتون بضجيج متعمد وبوقاحة مصطنعة : في مقدمة الجوقة غجري عجوز يحمل جيتارا معلقا عبر كتفه بشريط ازرق ، ويرتدي جاكتة تحليها جدائل مقصبة ، سحنته رمادية زرقـاء كالغريق ، ورأسه اصلع مثل كرة من الحديد ، ثم تعقبه مغنية انفرادية وهي غجريـــة ذات جبين ضيق تحت كشة سوداء

* هو الكاتب الروسي ليونيـــد اندرييف (١٨٧١–١٩١٩) . **المعرب** .

فاحمة . . . كانت تصغي الى الاغاني وعلى محياهـــا ابتسامة حنونة غريبة . . . في الساعة الثالثـة او الرابعة ليلا كنت اصطحبها الى البيت ، وفي سلالم المدخل كنت اغمض عيني سعادة واقبل فرو ياقتها المبلل ، ثم اندفع نحو كراسنييه فوروتـــا بسورة ابتهاج عارمة . وانا افكر ان الشيء ذاته سيتكرر غدا وبعد غد ، — العذاب نفسه والسعادة نفسها . . . ليكن ، انها سعادة على اي حال ، سعادة عظيمة !

هكذا انقضى يناير وفبراير وجاء اسبوع المرافع ومضى . وفي احد العنصرة امرتني بالمجيء اليها في الساعة الخامسة مســـاء . فجئت ، ولقيتني بكامل لباسهـــا ، وقد ارتدت معطفـــا قصيرا من فرو استراخان ، وقبعة من الفرو ذاته ، وانتعلت بوطين اسودين من اللباد .

قلت وانا ادلف جذلا كعادتي :

— انت مجللة بالسواد !

رمقتني بنظرات حنونة وادعة .

— غدا عيد اثنين السَّجْدَة ، — اجابتني وهي تخرج يدها من موفة فرو استراخان وتمدها اليَّ ، بقفاز أسود من جلد الجدي . — «يـا ربي ، بيدك حياتي . . .» . أتودّ الذهاب الى دير نوفوديفيتشي ؟

فدهشت ولكني عاجلت بالقول :

— اود ذلك !

اضافت قائلة — ما لنا نرتاد الحانات والمطاعم ، لقد زرت صباح امس مقبرة رغوجسكويه . . .

ودهشت اكثر :

– المقبرة ، لم ؟ انها مقبرة السلفيين الشهيرة ؟

– نعم مقبرة السلفيين ، من عهود روسيا ما قبل بطرس الاكبر . حضرت جنازة كبير الاساقفة . فتصور : النعش من جذع شجرة بلوط كامل ، كما في العهود القديمة ، الديباج المذهب بدا وكأنه صب من المعدن ، وجه الفقيد مغطى بمنديل «فوزدوخ» ابيض مطرز بنقوش من كلمات سوداء كبيرة – منظر جميل ورهيب . بينما وقف عند النعش شمامسة يحملون الشمعدانات الثلاثية والصور المقدسة لاكروبيم . . .

– من اين تعرفين هذا كله ؟ الشمعدنات والصور المقدسة !

– انت . . لاتعرفني .

– لم اكن اعرف انك متدينة ورعة .

– ما هذا بالورع . انا لا اعرف ما هو . . . الا انني غالبا ما ارتاد في الضحى والمساء كاتدرائيات الكرملين ، حين لا تاخذني معك الى المطاعم ، وانت حتى لا تحدس هذا . . . هكذا اذن : الشمامسة – وبأية هيئة ! بيريسفيت واسليابيا ! * وفي الخورين ثمة جوقتان للترتيل افرادها ايضا مثل بيريسفيت العملاق : طوال القامة جبابرة يرتدون

* هما راهبان من دير ترويتسه سيرجيفا ، ومن ابطال معركة كوليكوفو التي هزم فيها الامير الروسي ديمتري دونسكوي جحافل التتر . **المعرب** .

قفطانات طويلة سوداء ، ينشدون متناوبين في الترجيعة ، فتارة هذه الجوقة وتارة تلك ، وكل ذلك بانسجام وبلا نوتات بل بعلامات «كروكي» * ، وتم اكساء اللحد بأغصان شوح لامعة ، وفي الفناء الزمهرير ، والشمس ، والثلج يبهر الابصار . . . لا ، أنت لا تفهم هذا ! هيا بنا . . .

كانت الامسية وادعة ، مشمسة ، غمر فيها الصقيع الاشجار . وراحت الغربان تنوح فوق اسوار الدير المبنية من الطوب الاحمر بلون الدم معكرة السكون ، وبدت أشبه بالراهبات ، وبين الفينة والفينة كانت تقرع اجراس الساعة في برجها برنين رقيق حزين . مشينا فوق الثلج بخشخشة ، ثم ولجنا البوابة ، ومضينا في الدروب الثلجية داخل المقبرة ، كانت الشمس قد مالت لتوها الى المغيب وما برح الكون مضيئا تماما ، وتسربلت الاغصان بالصقيع وكأنها المرجان الرمادي ، امام خلفية الميناء الذهبي للغروب ، وانارت حولنا بغموض ساحر الفوانيس المضيئة دائما المتناثرة فوق القبور ، مثل جمرات خابية كئيبة . تبعتها ، رانيا بحنان الى اثرها الصغير ، الى النجوم التي يخلفها كعبا بوطيها الجديدين على الثلج ، وبغتة التفتت ، متحسسة هذا .

* الكتابة الروسية القديمة التي يرمز بها للنوتات الموسيقية . **المعرب** .

– حقا ، ما اكثر حبك لي ! – قالت هذا باندهاش هادئ هازة رأسها .

وقفنا الى جانب قبري ارتيل وتشيخوف * . حدقت طويلا في شاهد قبر تشيخوف واضعة يديها في الموفة المتدلية ، ثم هزت كتفيها :

– اي خليط كريه من الاسلوب الروسي المبتذل الكاذب ومسرح الفن !

زحفت العتمة . واشتد الزمهرير . وخرجنا سائرين الهوينا من البوابة حيث كان يجلس فيودور الحوذي بصبر في مقعد الزحافة .

قالت :

– لنتنزه اكثر قليلا ، ثم نذهب الى حانة يغوروف لتناول آخر فطائر . لكن لا تعجل يا فيودور ، ارجوك !

– سمعا وطاعة .

– يوجد في شارع اردينكا المنزل الذي عاش فيه جريبويدوف ** . لنذهب ونبحث عنه . . .

لأمر ما توجهنا الى اردينكا ، سرنا فترة طويلة في ازقة ما زاخرة بالحدائق ، ومررنا بزقاق

* ارتيل ، الكسندر ايفانوفيتش (١٨٥٥ – ١٩٠٨) – كاتب روسي . تشيخوف ، انطون بافلوفيتش ١٨٦٠–١٩٠٤ – كاتب روسي . **المعرب** .

** الكسندر جريبويدوف (١٧٩٥–١٨٢٩) – كاتب ودبلوماسي روسي وسفير روسيا في ايران . لقي مصرعه في طهران على ايدي الغوغاء . **المعرب** .

جريبويدوف . لكن من كان بوسعه ابلاغنا في اي منزل عاش جريبويدوف ، – فلم يكن هناك احد من المارة ، علاوة على انه من يهتم بأمر جريبويدوف بينهم ؟ كانت العتمة قد ادلهمت منذ فترة طويلة ، وبدت النوافذ المضاءة وردية وراء الاشجار المغطاة بالصقيع . . .

قالت :

– يوجد هنا ايضا دير مارفا – مارينسكايا .

ضحكت :

– الى الدير مرة اخرى ؟

– لا . انني مجرد ذكرته . . .

في الطابق الارضي من حانة يغوروف في شارع اوخوتني رياد تجمع عدد غفير من الحوذية ، الشعث ، يرتدون الملابس الثخينة ، ويلتهمون أكوام الفطائر المغطاة بافراط بالزبدة والقريشة ، ويغمر التجار المكان كما في الحمام . في الغرف العليا ، الدافئة جدا ايضا ، ذات السقوف الواطئة ، كان التجار من اتباع السلفية يعبّون الشمبانيا الباردة المثلجة ويأكلون الفطائر الساخنة مع الكافيار الاسود . دلفنا الى الغرفة الثانية ، حيث كان في الركن فانوس مضاء امام اللوح الاسود لايقونة العذراء ذات الاذرع الثلاث . جلسنا وراء مائدة طويلة على كنبة جلدية سوداء . . .

كان الصقيع يغطي الزغب فوق شفتها العليا ، وتوردت توردا خفيفا وجنتاها السمراوان ، واندغم

سواد البؤبؤ بالقزحية تمامـــا ، ولم اطق ان ابعد نظرات الاعجاب عن وجهها . طفقت تقول مستخرجة منديلها من الموفة المعطرة :

– طيب ! تحت الموجيك الغلاظ ، وهنا فطائر مع الشمبانيا وايقونة العذراء ذات الاذرع الثلاث . ثلاث اذرع ! انهـــا مستوحاة من الهند ! انت – ارستقراطي ، ولا يمكنك ان تفهـــم مثلي موسكو هذه كلها .

فأجبت :

– يمكنني ، يمكنني ان افهمها ! ودعنـا نطلب غداء دسما .

– كيف «دسما» ؟

– معنى هذا – مائدة عامـرة . كيف لا تعرف هذا ؟ «قال غيورغي . . .» .

– ما اجمل هذا ! غيورغي !

– نعم ، الامير يوري دولغوروكي . «قال غيورغي مخاطبا سفياتسلاف امير الشمال : «تعال اليّ يا اخ ، الى موسكو» وامر باعداد مائدة عامرة» .

– ما اجمل هذا . ان روسيا القديمة هذه لم تبق سوى في بعض الاديرة الشمالية . وكذلك في التراتيل الكنسية . منذ فترة قريبة زرت دير زاتشياتيفسكي – انت لا تستطيع ان تتصور روعة انشادهم لمزامير المديح ، اما في دير تشودوف فانشادهم افضل . في العام الماضي كنت غالبـــا ما اذهب الى هناك ايام اسبوع الحاشى ، فما اروع ذلك . برك ماء فى كل

مكان ، الهواء رائق ربيعي ، وتطفح في الروح مشاعر من العاطفة الساجية والحزينة ، انهـــا على الدوام مشاعر الوطن وايامه الغابرة . . . جميع الابواب في الكنيسة مفتوحة ، ويتقاطر عامة الناس عليها طوال اليوم ، والصلوات تقام طوال النهار . . . آه ، لكم اود الالتحاق بدير ما ، يقـــع في انأى مكان ، في فولوغدا او فياتكا !

اردت ان اقول لها انني عند ذاك سالتحق بالدير ايضا ، او سأقتل احدا مـــا من اجل ان ارسل الى المنفى في ساخالين . رحت أدخن ، ناسيـــا حظر التدخين من فرط تأثري وانفعالي ، لكن دنـا منى نادل بسراويل بيضاء وقميص ابيض ، متمنطقـــا حبلا ارجوانيا ، وذكرني بشيء من الاحترام :

– عفوا ، يا سيدي ، التدخين عندنا ممنوع . . .

وعلى الفور راح يقذف العبارات بسرعة ، بتملق غير اعتيادي :

– ما تأمرون بتقديمه مع الفطائر ؟ شراب نقيع الاعشاب «ترافنيتشك» منزلي ؟ كافيـــار ، سمك مقدد ؟ لدينا مع حساء السمك نبيذ خيريس ممتاز للغاية ، ومع سمك البكلاه لدينا . . .

– مع البكلاه نبيذ خيريس ايضـــا ، – اضافت ذلك باعثة البهجة الى قلبي بأحاديثها المتوددة التي لم تفارقها المساء كله . وصرت اصغي ساهما الى ما كانت تقوله لاحقا . كانت تتحدث مضيئة النظرة :

– انني احب الاسفـــار الروسية القديمـــة ،

والاساطير الروسيـة ، غاية الحب ، بحيث انني لا ابارح ما يحظى باعجابي الشديد حتى احفظه كله عن ظهر قلب . «كانت في بلاد روسيا مدينة اسمهـا موروم ، يحكمها امير ورع تقي اسمه بافل . وقد ارسل الشيطـان الى زوجته افعى طائرة لاغوائهـا بمقارفة الاثم . فظهرت الافعى امامهـا بهيئة رجل حسن الطلعة للغاية . . .»

فبحلقت بعيني مازحا :

– اوى ، يا للفظاعة !

بينما واصلت ، دون الاصغاء اليّ ، روايتها :

– بهذه الصوره امتحنها الرب . «حين حان الوقت لكى تذهب روحها الى بارئها تضرع الامير والاميرة من الرب ان يمثلا امامه في يوم واحد . واتفقا على ان يتم دفنهما في قبر واحد . وامرا بأن تنحت في صخرة واحدة مقصورتان لنعشيهما . كما ارتديا في آن واحد ايضا ملابس الرهبنة . . .»

ومرة اخرى حلت الدهشة محل السهوم ، وحتى اصابني القلق : ماذا جرى لها ؟

في ذلك المساء حين اصطحبتها الى البيت ، في غير الوقت المالوف تماما ، قرابة الساعة الحادية عشرة مساء ، اوقفتني لدى توديعي اياها عند سلالم المدخل على حين غرة بعد ان جلست في الزحافة ، وقالت :

– انتظر لحظة . تعال اليّ غدا مساء في وقت لا

يتعدى العاشرة . فغداً «حفلة سمر» * في مسرح الفن .

فسألتها :

– ماذا ؟ اتريدين الذهاب الى «حفلـة السمر» هذه ؟

– نعم .

– لكنك قلت بانك لا تجدين ما هو اكثر ابتذالا من هذه الحفلات .

– انا على رأيى فيها الآن ايضا . ومع هذا اريد الذهاب .

هززت رأسي عجبـا ولسان حالى يقـول ، – غرائب كلهـا ، غرائب موسكوفيـة ! – واردفت بحيوية :

– «اول رايت» !

في الساعة العاشرة من مساء اليوم التالي ارتقيت بالمصعد الى بابها ، ففتحته بمفتاحي ولم اخرج من المجاز المظلم فورا : اذ كان وراءه نور ساطـع للغاية ، فقد اشعل كل شيء – الثريات والغرندولات على جانبي المرآة والفانوس العالى ذو الغطاء الخفيف وراء مسند الكنبة ، وكانت تنبعث من البيانو الحان مقدمة «سوناتا القمر» – تتصاعد الانغام ، ويتواصل العزف ، فيغدو اكثر حنانا ، واشبه بالمناداة ، في كآبة مشوبة بالغبطة الحالمـة . صفقت باب المدخل ،

* حفلات يقيمها الممثلون و الطلاب لتقديم مشاهـد دعابة وتسلية وتشبيه مضحكة . **المعرب** .

انقطعت الاصوات ، وتناهى الى سمعى حفيف ثوبها . دلفت اليها – كانت تقف عند البيانو منتصبة القامة بهيئة مسرحية نوعا ما ، برداء مخملي اسود ، اكسبها نحافة اشد ، متالقة بأناقته ، وبتسريحة احتفاليـــة لشعرها القطراني ، وبالسمرة الكهرمانية لذراعيها وكتفيها العاريتين وأعلى نهديها المكتنزين الناعمين ولمعان قرطيها الماسيين ، المتدليين بمحاذاة خديها المغطيين بطبقة خفيفة من البودرة ، وعينيها الفاحمتين المخمليتين ، ونعومة الشفتين القرمزيتين ؛ وفي أعلى صدغيها التوت خصلتان لامعتان سوداوان كنونين ، مما اكسبها هيئة حسناء شرقية من لوحة شعبية .

فقالت متطلعة الى سحنتي الحائرة :

– لو كنت مغنية وغنيت على خشبة المسرح ، لاجبت على التصفيق بابتسامة بشوشة وبانحناءات خفيفة يمينا وشمالا ، نحو الاعلى والصالة ، بينمـا كنت ابعد بصورة غير ملحوظة ولكن بعناية ذيـل الفستان ، بغية الا ادوس بقدمي عليه . . .

في «حفلة السمر» افرطت في التدخين ، ولم تكف عن احتساء الشمبانيا ، والتحديق في الممثلين ، الذين كانوا يصورون بعياطهم الجذل وترجيعاتهم المنشطة شيئا مـــا وكأنهـــم في احد كازينوهات باريس ، والتحديق في ستانيسلافسكي الضخم الجسم الابيض الشعر الاسود الحاجبين وفي موسكفين المربوع القامة الذي يضع نظارة انفية على وجهه المربع الافطس ، – كان كلاهما يرقصان الـ«كان كان» بخفة بالغة ، وبجد

وهمة مقصودين ، وجسداهما يميلان الى الوراء مقرونا بضحك الجمهور . دنا منا كاتشالوف * حاملا قدحا في يده ، وقد اكسبت الثمالة وجهه شحوبا ، وثمة قطرات عرق كبيرة تتصبب على جبينه الذي تدلت فوقه جديلة من شعره البيلوروسي ، فرفع القدح ورنا اليها بنهم متكلف جهم وقال بصوته المسرحي الجهوري :

– يا قيصرة ، يا ملكة شاماهان ، نخب صحتك !

فابتسمت ابتسامة وئيدة وقرعت قدحها بقدحه . امسك بيدها وانحنى ثملا فوقها ، وكاد ان يهوى على الارض ، ثـــم اعتدلت قامتـــه فنظر اليّ زامًا شفتيه :

– من هذا الفتى الوسيم الطلعة ؟ انا اكرمك !

ثـــم راح الارغن اليدوي يطلق الفحيح والصفير والهدير وينبعث منه لحن «بولكـا» راقص وثاب – وانزلق واندفع نحونا سوليرجيتسكي الصغير الحجم ، المسرع الى مكان ما والضاحك دائما ، فانحنى لنـا محاكيا كياسة ولباقة الباعة وغمغم بعجلة :

– شرفينا بدعوتك الى رقصة «ترانبلان» . . . .

نهضت مبتسمة وخطت بحذاقـــة خطوات خفيفة وقصيرة وقرطاها يتلالأن ، لامعة بفتنتها السمراء ، وكتفيها وذراعيهـــا العارية ، وتبخترت معه وسط الموائد ، تشيعها نظرات الاعجاب والتصفيق ، بينما رفع هو رأسه وظاب كالتيس منشدا :

* ممثل روسي مشهور من فناني مسرح موسكـــو الفني . **المعرب** .

هيا ، هيا بسرعة
لنرقص معك البولكه

قرابة الساعة الثالثة ليلا نهضت ، مسبلة العينين . وحين ارتدينا معطفينا نظرت الى قبعتي القندسية ، وربتت الياقة القندسية ، ومضت نحو المخرج قائلة بين الجد والهزل :

– طبعا ، وسيم الطلعة . كاتشالوف على حق حين قال ذلك . «ظهرت الافعى بهيئة رجل حسن الطلعة . . .»

لاذت بالصمت طوال الطريق ، مشيحة بوجهها عن الثلج الفاقع في ضوء القمر المتطاير باتجاهنا . غاص البدر في السحائب فوق الكرملين ، – فقالت «يا له من جمجمة مضيئة» . دقت الساعة في برج سباسكايا ثلاث دقات ، – واردفت قائلة :

– يا له من صوت عتيد ، ينم عن شيء معدني وحديدي . هكذا بمثل هذا الصوت كانت الاجراس تدق في الساعة الثالثة ليلا في القرن الخامس عشر ايضا . وفي فلورنسا يتردد مثل هذا الرنين تماما ، وقد ذكرني هناك بموسكو . . .

حين اوقف فيودور الزحافة عند المدخل ، امرت بصوت خال من الانفعال :

– دعه ينصرف . . .

صعقت ، اذ لم تكن ابدا تسمح لي بالصعود اليها ليلا ، وقلت بحيرة :

– فيودور ، سأرجع ماشيا . . .

وتوجهنا الى الاعلى في المصعد صامتين ، ودلفنا الى الشقة الدافئة الهادئة في الليل ، حيث تدق المطارق الصغيرة في جهاز التدفئة . نضوت عنها معطف الفرو الزلق بسبب الثلج بينما ازالت عن شعرها الشال الزغبي المبلل وناولته اليّ ، وخطت بسرعة الى غرفة النوم مصحوبة بهسيس تنورتها الحريرية التحتانية . خلعت معطفي ، دلفت الى الغرفة الاولى ، وجلست على الكنبة التركية بقلب واجف وكأنني على شفير هاوية . تناهى الى سمعي وقع خطواتها خلف الباب المفتوح لغرفة النوم المضاءة وكيف نضت عنها الفستان ، عبر رأسها والذي تشبث بدبابيس شعرها . . . فنهضت واقتربت من الباب : كانت تقف وظهرها العارى الي ، وليس عليها سوى حذاءين كالتميّن ، مقابل منضدة التواليت ، منهمكة في تمشيط الجدائل السوداء لشعرها الطويل المتدلى بمحاذاة وجهها ، بمشط من صدف السلاحف .

– كان يقول انني لا افكر فيه كثيرا ، – قالت ذلك وهي ترمي المشط على المنضدة ، وبعد ما القت شعرها وراء ظهرها التفتت اليّ . – لا ، انني كنت افكر . . .

عند غبشة الفجر احسستها تتململ ففتحت عينيّ ، ووجدتها تحدق فيّ عن كثب . نهضت جالسا من دفء الفراش وجسدها ، ومالت اليّ وقالت بهمس واتزان :

– الليلة سأسافر الى تفير . الله وحده يعلم لأي فترة .

وضغطت بخدها على خدي ، فاحسست كيف ترمش اهدابها المبللة :

– سأكتب لك قراري حالما أصل . سأكتب كل شيء عن المستقبل . ارجو المعذرة ، اتركني الآن . فان الاعياء قد بلغ بي اقصاه . . .

ثم وضعت رأسها على الوسادة .

ارتديت ملابسي بحذر ، ولثمت شعرها بوجل ، وخرجت ماشيا على اطراف اصابعي الى السلالم التي كان يغمرها نور الفجر الشاحب . مضيت مشيا على الاقدام فوق الثلج اللزق المتساقط حديثا . كانت العاصفة الثلجيـــة قد انحسرت . وران الهدوء على الكون . وتراءى الشارع على امتداده بعيدا . وفاحت رائحـة الثلج والمخابز . بلغت مصلى ايفرسكايا ، الذي كان يتوهج كالحمم ويتألق في الداخل بنيران الشموع الكثيرة . جثوت على ركبتي فوق الثلج الذي داسته الاقدام ، وسط حشد العجائز والمتسولين ، ونزعت قبعتي . فمسني احدهم من كتفي ، ونظرت اليه : كانت ثمـة عجوز صغيرة بائسـة ترنو الي مجعدة الوجه مخضلـة العينين بالدموع اشفاقـا عليّ :

– هون عليك ، هون عليك ! هذا اثم ، اثم !

بعد قرابة اسبوعين تلقيت منها رسالة مقتضبة – وترجوني فيها برقة ولطف لكن بحزم الا انتظرهـا

اكثر والا احاول البحث عنها ورؤيتها : «لن اعود الى موسكو ، وسأرتاد الدير الى حين من اجل الكفارة ، ومن ثم لربما سأقرر ان اغدو راهبة . . . ليمنحك الله القوة على عدم الرد على رسالتي – فلا نفع من زيادة الامنا وتكثيرها . . .»

لقد نفذت رغبتها . طفقت خلال فترة طويلة اتسكع في اقذر الحانات والمواخير ، وعاقرت الخمر ، منحدرا الى الحضيض اكثر فاكثر . ومن ثـــم اخذت اثوب شيئا فشيئـــا الى رشدي – استبدت بي اللامبالاة واليأس . . . انصرمت فترة عامين تقريبا على يوم اثنين السجدة ذاك . . . .

في عام اربعة عشر وتسعمائة والف ، وقبيل عيد راس السنة رانت على الكون امسية هادئة مشمسة مثل تلك الامسيـة العتيدة غير المنسية . فغادرت منزلي ، واكتريت زحافة اجرة وتوجهت الى الكرملين ، ودلفت هناك الى كاتدرائيـــة ارخانجلسكي الكبرى الخاوية ، ووقفت برهة طويلة في جوها المعتم دون ان اصلي ، متطلعـــا الى الوميض الخابي للزخارف الذهبية العتيدة في الفاصل الايقوني وشواهد قبور قياصرة موسكو ، – كنت اقف كما لو انني انتظر شيئا ما في ذلك السكون المطبق المتميز للكنيسة الخاوية ، حين يخشى المـــرء اطلاق زفـــرة . وحين غادرت الكاتدرائيـــة امرت الحوذي بالتوجه الى اردينكـا ، فمضى الجواد وئيدا كمـــا فعل جوادنا آنذاك ، في الازقة المظلمة الغارقة وسط الحدائق وتحتها تتراءى

النوافذ المضيئة للبيوت ، عبرت زقاق جريبويدوف – وانا لا اكفّ عن البكاء والبكاء .

اوقفت الحوذي في اوردينكا عند بوابة دير مارفا – ماريينسكايا : تراءت هناك اشباح عربات ضاربة الى السواد ، ولاح الباب المفتوح لكنيسة صغيرة مضاءة ، وتردد من الباب انشاد جوقة فتيات طافح بالكرب والحنان والاشفاق . ولامر ما اعتملتني الرغبة في الدخول الى هناك حتما . فسدّ امامي الطريق البواب الواقف عند المدخل ، راجيا بلطف وبتوسل :

– ممنوع يا سيدي ، ممنوع !

– كيف ممنوع ، الدخول الى الكنيسة ممنوع ؟

– ممكن ، يا سيدي ، طبعا ممكن ، لكن ارجوك ، لخاطر الله ، لا تدخل ، هناك الآن الاميرة يليزافيتا فيودوروفنا والامير دميتري باليتش . . .

دسست له روبلا – فتنهد بتحسر وسمح لي بالمرور . لكن حالما دلفت الى الفناء لاحت من الكنيسة الايقونات والرموز المقدسة محمولة على الايدي ، ووراءها الاميرة بأردية بيضاء ضافية ، دقيقة الملامح ، وتعتمر غطاء رأس ابيض طرز على الجبهة منه صليب ذهبي . كانت طويلة القامة ، تمضي بخطوات وئيدة ، روحها طافحة بالورع ، مسبلة العينين ، وبيدها شمعة كبيرة ، ووراءها مضى صف ابيض مثلها من الراهبات او الاخوات يرتلن المزامير ، تنير وجوههن اضواء الشموع ، –

لم اعرف من هن والى اين يتوجهن . ولأمر ما امعنت النظر فيهن ، وعلى حين غرة عمدت احدى الماشيات في وسطهن الى رفع رأسها المغطى بطرحة بيضاء ، حاجبة الشمعة بيدها ، موجهة نظرات عينيها السوداوين الى العتمة ، كما لو كانت ترنو اليّ بالذات . . . ماذا كان بوسعها ان ترى في العتمة ، وكيف كانت تستطيع ان تتحسس حضوري ؟ استدرت وخرجت من البوابة متمهلاً .

١٢ مايو ١٩٤٤

كنيسة صغيرة

نهار صيفي ، قائظ ، وفي الحقول وراء حديقة الضيعة القديمة تقوم مقبرة مهجورة منذ زمن بعيد ، – ثمة تلال صغيرة تغطيها الازهار والحشائش العالية ، كنيسة صغيرة وحيدة متهدمة شيدت من الطوب ، غمرتها الازهار والحشائش البرية ونبات القرّاص والاقنئات . كان الاطفال من الضيعة جالسين القرفصاء تحت الكنيسة يتطلعون بنظرات ثاقبة الى النافذة المحطمة الزجاج ، الطويلة الضيقة ، البادية بمستوى الارض . لم يكن يرى شيء هناك ، فثمة هواء بارد فقط يهبّ منها . وفي كل مكان يعم النور وحرّ الهجير ، بينما يسود هناك القتام والبرودة : اذ يرقد في صناديق حديدية هناك اجداد وجدّات ما ، واحد الاعمام ، اطلق النار على نفسه . هذا كله شيق وغريب عجيب . فهنا لدينا الشمس ، الازهار ، الحشائش ، الذباب ، النحل الطنّان ، الفراشات ، وبوسعنا اللعب ، الجري ، ونشعر بالخوف والبهجة من الجلوس القرفصاء ، بينما يرقدون هناك في العتمة دائما ، كما في الليل ، في صناديق حديدية سميكة باردة . – الاجداد والجدات قد تعدت بهم

السن جميعا ، اما العمّ فكان لا يزال في ريعان الشباب . . .

– لِمَ اطلق النار على نفسه ؟

– كان مغرما جدا ، وحين يكون المرء مغرما جدا يطلق النار على نفسه دائما . . .

في بحر السماء الزرقاء تتناثر هنا وهناك جزر من السحائب البيضاء الرائعة ، وتحمل الرياح الدافئة من الحقول العبير الحلو لازهار الجودار المتفتحة . وكلما يشتد لهيب الشمس ، تزداد برودة الهواء المندفع من النافذة .

٢ يوليو ١٩٤٤

الربيع في اليهودية *

كانت تلك الايام البعيدة في اليهودية ، التي جعلتني اعرج ومعوقا طوال حياتي ، اسعد حقبة في شبابي ، – كان المتحدث رجلا طويل القامة ممشوقها ، وجهه ضارب الى الصفرة ، وتسطع فيه عينان صهباوان وشعره اشيب قصير مجعد ذو فتائل دقيقة ، يمشي دائما متكئا على عكازه بسبب عاهة في رجله اليسرى تحول دون انطوائها في الركبة . – كنت اشارك انذاك في بعثة صغيرة غايتها اجراء ابحاث على الشطئان الشرقية لبحر لوط ، في الاماكن الاسطورية حيث سدوم وعمرة ، واعيش في القدس بانتظار رفاقي الذين تأخروا في القسطنطينية ، اتردد على مرابض البدو في الطريق الى اريحا : حيث الشيخ عايد الذي اوصاني به الآثاريون في القدس ، وتعهد بتجهيز كل ما تحتاجه بعثتنا وبارشادها شخصيا . في المرة الاولى توجهت اليه مع دليل من اجل التفاوض ، وفي اليوم التالي جاءني

* منطقة من فلسطين قديما بين البحر الميت (لوط) والمتوسط . تكونت منها مملكة اليهودية على ايام ربعام بن سليمان (حوالى ٩٣٠ ق . م) . كانت عاصمتها اورشليم . **المعرب** .

بنفسه الى القدس . ثم اخذت ارتاد مربضه لوحدى ، بعد ان اشتريت منه فرسا رائعة ، – صرت امتطيها للذهاب اليه في احيان كثيرة اكثر من المعتاد . . . كان الوقت ربيعا ، واليهودية تغوص في بريق الشمس البهيج ، وتذكرت «نشيد الانشاد» : «لأنَّ الشِّتَاءَ قَدْ مَضَى والمَطَرَ مَرَّ وَزَالَ . الزُّهُورُ ظَهَرَتْ فى الأَرْضِ . بَلَغَ آوانُ القَضْبِ وَصَوْتُ اليَمَامَةِ سُمِعَ في ارضِنَا . التِّينَةُ اخرجَتْ فِجَّهَا وفَعَالُ الكُرُومِ تُفِيحُ رَائِحَتَهَا . . .» هناك في هذه الطريق العتيقة المؤدية الى اريحا ، فى صحراء اليهودية الصخرية ، كان كل شيء ميتا كشأنه عادة ، ومتوحشا ، وعاريا مقفرا ، ويعشي الابصار الهجير الملتهب والرمال ، لكن في الايام الربيعية المزهرة هناك بدا لي كل شيء يبعث على البهجة الغامرة ، والسعادة : كانت تلك اول مرة اسافر فيها الى الشرق ، ورايت امامى عالما جديدا تماما ، وفي هذا العالم ثمة مخلوق آسر : ابنة اخت عايد . ان صحراء اليهودية صقع لا نظير له فى العالم ، فتنبسط منحدرة على الدوام حتى سهل الاردن ، تلال ، ومعابر صخرية تارة ورملية تارة اخرى ، وفي اماكن منها تنمو النباتات الشائكة ، ولا تقطنها سوى الافاعي والحجلات ، ويلفها السكون المطبق الدائم . في الشتاء تهطل الامطار هناك ، كما في بقية انحاء اليهودية ، وتهب الرياح القارسة ، وفي

الربيع والصيف والخريف تغمرها ايضا سكينة القبور ، والرتابة ، لكن يزحف مع الشمس حر الهجير والقيلولة . وفي الوهاد حيث توجد الآبار تتراءى آثار مرابض البدو : رماد النيران ، احجار مكومة في دوائر او مربعات تثبت عليها الخيام . . . اما المربض الذي كنت ازوره حيث الشيخ عايد فقد بدت صورته كالتالي : شعب عريض رملي بين التلال ، وفيه مربض صغير من الخيام – بيوت الشعر السوداء ، المسطحة ، المربعة الشكل ، الكئيبة لقتامها ، وسط الرمال الصفراء . وحين آتي كنت ارى دائما اكوام جلات تتقد امام بعض الخيام ، وتبدو الخيام متزاحمة : في كل مكان كلاب ، وخيول ، وبغال ، وعنزات – انا لا افقه حتى الآن كيف واين يتم اطعام كل هذه المخلوقات – وعدد غفير من الاطفال العراة ، القذرين ، ذوي الشعور المجعدة ، اما النساء والرجال فيشبه بعضهم النوَرَ ، والبعض الاخر الزنوج ، رغم انهم بدون شفاه غليظة . . . كان امرا غريبا رؤية الرجال يرتدون ملابس دافئة رغم القيظ : حلّة زرقاء طويلة تصل الى الركبتين ، وجاكتة قطنية ، وفوقهما عباءة – وهي رداء طويل جدا وثقيل وفضفاض عند الكتفين من الصوف الابلق ، مخطط بلونين – الاسود والابيض . ويعتمرون الكوفية على رؤوسهم ، وهي منديل اصفر واحمر مخطط ينسدل على الكتفين ، ويتدلى على طرفي الخدين ، مثبت بعقال

ابلق صوفي بلونين يلتف حول قمة الراس بلفتين . كان كل هذا على نقيض تام مع ملابس النساء : اذ تعتمر النساء بمناديل زرقاء على رؤوسهن ، ووجوههن مكشوفة ، ويغطي جسد الواحدة منهن رداء ازرق طويل ذو كمين مدببين يكادان يبلغان الارض . وينتعل الرجال بنعل خشنة المظهر دقت في اسفلها قطع حديدية . وتمشي النساء حافيات ، وراحات اقدام الجميع بديعة ، خفيفة الحركة ، لوحتها الشمس فغدت مسودة اسودادا ، والرجال يدخنون الغلايين ، والنساء ايضا . . .

حين جئت في المرة الثانية الى المربض بدون دليل ، استقبلوني استقبال الاصدقاء . كانت خيمة عايد اكبر الخيام ، فوجدت فيها حشدا كبيرا من البدو الشيوخ ، الجالسين على امتداد جدران الخيمة الوبرية السوداء التى رفعت حواشيها من اجل الدخول . خرج عايد لاستقبالى ، وانحنى لامسا شفتيه وجبهته بطرف يده اليمنى . عندما ولجت الخيمة امامه توقفت منتظرا جلوسه على السجاد وسط الخيمة ، ثم فعلت الشيء ذاته الذى فعله حين استقبلني ، اي ما يتوجب القيام به دائما – الانحناءة ذاتها ولمس الشفتين والجبهة بطرف اليد اليمنى ، – فعلت هذا عدة مرات ، بقدر عدد الجالسين ، ثم جلست بالقرب من عايد ، وفعلت الشيء ذاته جالسا . وقد ردوا عليّ بالشيء نفسه

طبعا . وتبادلنا ، انا وصاحب الخيمة ، الحديث لوجدنا ، – بعبارات مقتضبة وئيدة : هذا ما تقضي به العادات ايضا ، ولم اكن آنذاك اتقن جيدا الحديث باللغة العربية الدارجة . اما الآخرون فكانوا يدخنون صامتين . وفي تلك الاثناء كان يجرى خارج الخيمة طهي الطعام لي وللضيوف . وعادة ياكل البدو الخبز ، – الارغفة المصنوعة من دقيق الذرة ، وعصيدة الدخن مع حليب العنزة . . لكن يجب ان يقدم للضيوف حتما لحم الخروف المشوى فى حفرة يجري اعدادها وسط الرمال ، وتكوم فوقه قطع الروث المتقدة ، وبعد الخروف تقدم القهوة لكن بدون سكر دائما . هاهم جالسون جميعا وقد تناولوا الطعام كما لو لم يحدث شيء ، رغم ان الجو قائظ شديد الوخامة فى ظل خيمة الشعر ، وكان مجرد التطلع في حواشيها المكشوفة امر يبعث على الرهبة : اذ تنبسط الرمال بعيدا شديدة اللمعان حتى وكأنها تذوب امام سمعنا وبصرنا . راح الشيخ يقول لي بعد كل كلمة «خواجة» – اي سيدي ، بينما اقول له «الشيخ البدوى المبجل» (اي البدوى ابن الصحراء) . . بالمناسبة ، اتعلمون ما هو اسم نهر الاردن ، باللغة العربية ؟ بكل بساطة الشريعة ، اي لااكثر ولا اقل من مورد الماء – موضع السقاية .

كان عايد في نحو الخمسين من العمر ، قصير القامة ، خشن العظام ، ضاوي الجسم ، ومتين

البنيان جدا ؛ ووجهه مثل الطوب وعيناه شفافتان رماديتان نفاذتان ، ولحيته نحاسية وخطها الشيب ، كثة خشنة ، صغيرة مقصوصة ، وشارباه مقصوصان كذلك . ان البدو يقصون هذه وتلكما دائما . وينتعل مثل الباقين مداسين سميكين بنعلين حديديتين . وحين زارني في القدس كان ثمة خنجر مثبت في حزامه ، وبيده بندقية طويلة .

رأيت ابنة اخته في اليوم ذاك حين كنت جالسا في خيمته بصفتي «صديقا» : فقد مرت بمحاذاة الخيمة ، ماضية نحو الامام ، حاملة صفيحة كبيرة من الماء على رأسها ، ماسكة اياها بيدها اليمنى . لا ادري كم كان عمرها ، اعتقد انها لم تتجاوز ربيعها الثامن عشر ، وعلمت فيما بعد شيئا واحدا – انها تزوجت قبل اربعة اعوام من ذلك الحين . وفي ذلك العام ترملت دون ان تنجب اطفالا ، وانتقلت للعيش في كنف خالها لكونها يتيمة وفقيرة الحال . «أرْجِعِي أرْجِعِي يا شولَمِيثُ يا شولَمِيثُ أرْجِعِي أرْجِعِي فننظر اليْكِ . . .» – جال هذا في خاطرى . لا بد وان شولميث كانت شبيهة بها حقا : «أَنَا سَوْدَاءُ وَجَمِيلة" يا بنَاتِ اُورشَلِيمَ . . .» .

حين مرت بالخيمة ادارت رأسها قليلا ، ورمقتني بنظراتها : بدت عيناها سوداوين فاحمتين ساحرتين ، غامضتين ، وسحنتها غامقة لحد الاسوداد ، وشفتاها قرمزيتين كبيرتين – في تلك

اللحظة اثرتا فيّ أشد التأثير ، بالمناسبة وليس شفتيها فقط ! فقد اذهلني كل ما فيها – الذراع الرائعة وقد تعرت حتى الكتف . كانت تمسك بالصفيحة فوق رأسها ، وحركة جسدها المتانية الطرية تحت الرداء الطويل الازرق ، والصدر الممتلئ الناهد ، يرتفع فوقه الرداء . . . وشاءت المقادير ان التقيها بعد هذا بفترة وجيزة في القدس عند بوابة يافا ! كانت تمضي وسط الحشد باتجاهي ، وتحمل على رأسها في هذه المرة صرة ملفوفة بالخيش . حين شاهدتني توقفت . فاندفعت نحوها .

– هل عرفتني ؟

فربتت كتفي بيدها اليسرى الطليقة ، وابتسمت :

– عرفتك ، يا خواجة .

– ما هذا الذي تحملينه ؟

– جبن العنزة .

– لمن ؟

– للجميع .

– معنى هذا من اجل بيعه . اذن ، احمليه اليّ .

– الى اين ؟

– الى هنا ، في الفندق . . .

كنت اعيش بالقرب من بوابة يافا بالذات في منزل عال ضيق يندمج مع البيوت الاخرى ، على يسار الساحة الصغيرة التي يبدأ منها شارع الملك واود ذو السلالم – وهو زقاق معتم يظلل في بعض

الاماكن بالخيش وفي الآخر بالعقود الحجرية ، بين دكاكين ومحلات قديمة مثلها . كانت تصعد امامي بلا اي وجل السلالم الحجرية المنحدرة الضيقة لهذا المنزل ، مائلة الى الخلف قليلا ، وقوامها الملتوي مشدود ، بطلاقة ، معرية ذراعها اليمنى التي كانت تمسك بقرص الجبنة الملفوف بالخيش فوق رأسها المغطى بالمنديل الازرق ، فيتراءى الشعر الكثيف الأسود تحت ابطها . وفي أحدى لفات السلم توقفت : بدا هناك عميقا في الاسفل تحت النافذة الضيقة حوض ماء عريق في القدم هو غدير النبي حزقيال ، الذى لاح سطح مياهه الخضراء وكأنها مياه بئر ، وسط مربع من الجدران المتصلة للبيوت المجاورة ذات النوافذ المشبكة ، انها المياه ذاتها التي استحمت فيها فيرصافيا زوجة اوري . . . التى خلبت لب الملك داود بجسدها العارى . حين توقفت للحظة تطلعت من النافذة والتفتت ورمقتني بنظرات تنم عن الدهشة والجذل من عينيها الساحرتين . فلم اتمالك عن تقبيل زندها العاري – تطلعت نحوي بتساؤل : التقبيل ليس من عادات البدو . حين دلفت الى غرفتي وضعت صرتها فوق المائدة ، ومدت نحوي راحة يدها اليمنى . فوضعت فيها عدة قطع نحاسية ، ثم اخرجت واريتها ، بقلب واجف من الانفعال جنيها ذهبيا . ادركت مرامي واسبلت اهدابها ، واطرقت راسها طائعة ، ثم اخفت عينيها بطية مرفقها . انطرحت على ظهرها فوق

السرير ، وعـــرت ببطء ساقيهـــا الملوحتين بالشمس ، وبـــدت بطنها تعلو وتهبط بدفقات وكأنها تدعونى اليها . . .

سألتها وانا اودعها على السلم بعد ساعة :

– متى ستأتين بالجبنة المرة القادمة ؟

هزت راسها هزة خفيفة :

– لا يجوز هذا في وقت قريب .

وارتني خمسة اصابع – خمسة ايام .

بعد قرابة اسبوعين ، حين انصرفت من خيمة عايد ، وقطعت شوطا بعيدا من الطريق ، هدرت رصاصة ورائي وارتطمت بقوة في حجر امامى مما جعل الدخان يتصاعد منه . فاندفعـــت في الجواد مارقا مروق السهم وقد التصقـــت بجسدي فوق صهوته ، – وانطلقت رصاصة ثانية ، فضربنى شيء ما تحـــت ركبة ساقى اليسرى . ومضيـــت خببا حتى بلغت القدس متطلعا الى جزمتي تحتي حيـــث كان الدم يسيل برغوة . . . وانا اعجب حتى الان ، كيـــف تسنى لعايد ان يخطئ في الرمايـــة مرتين . كما واعجب من اين تسنى لـــه ان يعرف باننى الذي اشتريت جبنة العنزة منها .

١٩٤٦

التعليقات

الدروب الظليلة . استوحى الكاتب اسم القصة من قصيدة نيكولاى اوغاريوف (١٨١٣–١٨٧٧) «قصة عادية» ، – ويضمن ذلك البيت التالى منها «ثمـــة دروب ظليلة من الزيزفون» . وقد ذكر بونين نفسه هذا فى خاطرته «منابع قصصى» .

القوقاز . اورد بونين فى ذكرياته عن نشوء فكرة هذه القصة يقول : «كتبت هذه القصة حين استعدت فى ذاكرتي كيف اتفق لى مرة – قبل اربعين عامـا خلت – ان سافرت من موسكو فى طريق بريانسك بصحبة زوجـة احد الضباط ، التى كانت تربطنى بها صلة بينما جاء هو لتوديعها من محطة بريانسك الى كييف لزيارة والديها ، دون ان يعرف اننى كنت فى القطار ، وسأصاحبها الى محطة تيخونوفا بوستين . كانت امرأة ساحرة ومرحة وفتية وحسناء على خديها غمازتان ، لا تشبه البتة تلك التى جاء وصفها فى «القوقاز» ، وكل ما ورد فيها باستثناء الذكريات عن محطة القطار ، من بنات الخيال . كما اننى لم اسافر الى سواحل القوقاز ابدا ، فقد سافرت فقط الى نوفوروسيسك وباتومـــى ، ورأيت السواحـــل

الاخرى من الباخرة فقط» . وبقيت من بين مذكراته المحفوظة العبارات التالية : «كانت تربطنى منذ اعوام كثيرة خلت صلة سرية بامرأة شابة ، زوجة ضابط غيور اشد الغيرة . وقد سافرت مرة الى الجنوب لزيارة اقاربها ، ورافقتها حتى منتصف الطريق بالضبط كما يرد وصف هذا فى «القوقاز» . وكانت هذه المرأة حسناء نادرة الحسن ، وتبلغ من العمر نحو الثانية والعشرين او الثالثة والعشرين من العمر ، صغيرة الحجم ، تفيض حيوية وظرافة ، حلوة المحضر ، لم التق بامرأة اخرى شبيهة بها . انها على نقيض تام من تلك التى جاءت فى قصتى . وعن ذلك نجم كل ما ورد فيها من امور اخرى ، ابتدعها الخيال ، ونهاية القصة ايضا . وكان بوسع زوجها ان ينتحر فعلا باطلاق النار على نفسه كما فى القصة لو عرف بشأن خيانتها له» .

قصة شعرية . نسب بونين هذه القصة الى خيرة اعماله . وقد كتب اكثر من مرة عن اصل فكرتها ، مؤكدا على فجاءتها وكونها كلها من وحى الخيال . فكتب ضمنا فى عام ١٩٤١ بعد ان اتم تبييضها مرة اخرى اعدادا للطبع : «**لا يصدق احد ، اننى دائما تقريبا اتخيل كل شىء — كل شىء ، كل شىء . وأسفاه !** و«القصة الشعرية» مبتكرة باجمعها ، من اولها الى آخرها — ووردت فى خاطرى بغتة فى ساعة واحدة : اذ حدث ان استيقظت فى باريس وقد ساورتنى فكرة وجوب كتابة شىء من اجل «آخر

الاخبار» (جريدة — ا . س .) ، لانني مدين لها . فاحتسيت قدح قهوة ، وجلست الى المكتب — وعلى حين غرة ، وبدون سابق انذار ، طفقت اكتب دون ان ادرى ، ما الذى سيحدث لاحقا . لكن القصة رائعة» .

ستيوبا . كتب بونين فى المسودة حول اصل هذه القصة يقول : «لم اكن افكر بم ستنتهى هذه الحادثة غير المتوقعة والفظيعة والسعيدة فى حياة شبه طفلة ، فتاة ظريفة وبائسة ، تخيلتها بكل هذا الابداع وبصورة غير متوقعة تماما ، لكننى شعرت ، ان لامناص من انهائها بخاتمة جيدة وحادة ، — وبغتة ، ودون ارادة منى ، اسعدنى الحظ بانهائها بهذا الشكل بالذات» . واورد بونين فى ذكرياته : «جال فى خيالى مرة اننى كنت استقل عربة متوجها من ضيعة اخى يفغينى (على تخوم محافظتى تولا واوريول) باتجاه محطة بوبوريكينو تحت وابل من المطر . ومن ثم — الغسق ، وثمة نزل بمحاذاة الطريق العام ورجل ما يقف على سطحته ، منهمك فى تنظيف الاوساخ عن حذاءيه العاليين بسوطه . اما كل ما عدا هذا فقد جرى لذاته ، وبصورة غير منتظرة . وحين بدأت القصة لم اكن ادرى بم ستنتهى» .

موزا . كتب بونين عن نشوء فكرة هذه القصة يقول : «كانت تقوم فى مكان يبعد حوالى ثلاثة فراسخ عن ضيعتنا ، فى قرية اوزيركى ، بمقاطعة

يليتس ، فى الطريق العـــام المؤدية الى يليتس ضيعة كانت فى زمان ما ملكا لامي ، ثم اشتراهـا مالك الاطيان لوغوفيت ، وانتقلت فى ايام شبابى المبكر الى ابنه ، السكير الفقير ، الاحمر الشعر ، النحيف البدن . كنت ازوره احيانا ، وزرته مرة فى امسية شتوية مقمرة ، فى منزله الذى لم يكن ينيره سوى ضوء البدر ، ولامر ما – وهذا يحدث دائما لامر غير معروف – كنت أتذكر احيانا لحظة ما من تلك الامسية ، وتستبد بي رغبة فى كتابة شيء ما عنها ، وادخالها فى قصة ما ، لم ابتدع خيوطهـا بعد . واستعدت هذا كلـه فى ذاكرتي مرة ، فى نهاية اكتوبر عام ثمانية وثلاثين وتسعمائة والف فى « Beausoleil » (ابعد من مونت كارلو) ، وفجأة طرا على فكرى موضوع قصة «موزا» – لم ولأى سبب ، هذا ما لا اذكره البتة : وكل ما فيها من بنات خيالى – باستثناء كوني قد عشت فترة طويلة بموسكـــو فى شارع اربات فى فندق «العاصمة» ، بينما زرت لوغوفيت فى امسية شتوية ايام فتوتى» . . . وكتب الكاتب : «عاد الى ذاكرتـــى فندق «العاصمة» فى اربات ، الذى نزلت فيه اكثر من مرة ولفترة طويلة ، وعلى حين غرة استبدلت نفسى فيه بانسان آخر ، خطر بباله ان يصبح رساما ، ولا استطيع ان اتذكر ابدا ، لمَ ، ومن اين جـــاءت هذه الفتاة الغريبة موزا غراف ، – فلـــم التق من قبـــل بمن هى نظيرها . اما حياة الرسام فى البيت الريفى ، واوقات

النهار والليل بضواحى موسكو هناك – فيوجد له شبيه ما (هو فى الواقع اكثر شاعرية بقدر كبير) استوحى من تلك الفترة القصيرة التى امضيتها فى البيت الريفى للكاتب تيليشيف . اما زافيستوفسكى فهو شخصية خيالية ايضا – ولا يتفق مع الواقـــع سوى ضيعته ، التى كانت فى واقع الامر ملكا لامى فى زمن ما» .

فى الهزيع الاخير . كان بونين يعتبر هذه القصة من افضل قصص كتاب «الدروب الظليلة» . وكانت فكرتها مرتبطة بـ«ليكا» (كانت هذه فى البدايـــة تسمية القسم الخامس من رواية «حياة ارسينييف») . وكتب المؤلف فى عـــام ١٩٤٠ يقـــول : «كتبت «الهزيع الاخير» بعد ان اعدت النظر نهائيا بمـــا اطلقت عليه «ليكا» دون ان احسن الفعل» .

بطاقات زيارة . كتب بونين فى ذكرياته يقول : «فى يونيو عام ١٩١٤ سافرت مع اخى يولى فى مركب على نهر الفولغا من ساراتوف الى ياروسلافل . وفى المساء الاول ، بعد العشاء ، وحين ذهب اخى للتنزه على سطح المركب ، جلست تحت نافذة قمرتنـــا ، فدنت منى امراة مـــا ظريفة ، مرتبكة غير جذابـــة المظهر ، ما برحت فى ريعان الشباب ، لكنها قـــد دلفت الى الذبول وقالت حين تعرفت علىّ اعتمادا على صوري المنشورة ، انها «سعيدة جدا» برؤيتـــي . فرجوتها ان تجلس ، ورحت استفسر منهـــا عمن تكون ، ومن اين آتية ، ولا اذكر ما اجابت به ،

شيء لااهمية له ، ممـــا يتسم به اهالى الاطراف ، وطفقت اجاملها بلا ارادتى ، وبدون اى غرض طبعا ، ولحظتئذ دنا اخى ، فرنا الينـا صامتـــا وبنفور ، فارتبكت اكثـر ، وودعتنى فى عجلة من امرهـــا وانصرفت ، فقال لي اخي : «لقد سمعت كيف كنت تتبختر أمامها كالديك ، – شيء مقرف !»

لقد تذكرت هذا كله مرة ، ولسبب مـــا ، منذ اربعة اعوام خلت وفور ذلك . . . (توقف الكاتب عن التدوين – ا . س .) .

جاليا جانسكايـــا . كتبت فيـــرا نيكولايفنـــا موروميتسيفا – بونينا زوجـة الكاتب تقول : «ان قصة«جاليا جانسكايا» خيالية كلها ، واعتمد الرسام نيلوس (ب . ا . نيلوس ، ١٨٦٩–١٩٤٣ ، صديق بونين ، رســـام ، وكاتب – ا . س .) . كنموذج لشخصية الرسام» .

هنريخ . كتبت موروميتسيفا – بونينـا تقول ان القصة تتضمن شخصية حقيقية : «ان ماكس لى كانت صحفية وكاتبة ، صارت فيما بعد تؤلف الروايات سوية مع زوجها ، وان لم اخطئ فقد كان لقبهمـا كوفالسكى» .

ناتالي . كتب بونين عن فكرة هذه القصة يقول : «ورد فى خاطري مرة : ان جوجول ابتدع تشيتشيكوف (المقصود بها روايـــة جوجول «النفوس الميتة» – ا . س .) الذى يجوب الاقاليم ويشتري «النفوس الميتة» . فماذا لو ابتدع انـا ايضا شخصية شاب

يسعى بحثا عن المغامرات الغرامية ؟ فى البدايـة اعتقدت ان الامـــر سيقتصر على عدد من الاحداث الطريفة . بينما كانت النتيجة مغايرة تماما .

ان بطل قصتى الشاب يعرج اولا – لفترة قصيرة – على ضيعة خاله ، الضابط العجوز تشيركاسوف واعتمدت لهذا كنموذج الضابط العجوز موروميتسيف (موروميتسيف ، عم زوجته موروميتسيفا – بونينا – ا . س .) ، الذى كان يلقب بـ«الضابط المنزعج» ، بينما شخصية الضابط العجوز تشيركاسوف تبدو كانسان طيب بشوش ، بيد انه مثل النموذج فارع الطول ضخم الجسم . وجعلت ضيعته فى واد يجرى فيه نهر ، يماثل الموقع الذى كانت فيه ضيعة شقيق الضابط العجوز» .

وكتبت موروميتسيفا – بونينـــا تقول ان بونين سافر فى يناير عام ١٩٠٧ لمدة يوم واحد الى مدينة فورونيج . وكان قد دعى للمشاركة فى حفلة خصص ريعها لرابطة ابناء فورونيج . وكانت لديه هناك احدى المعارف ، ابنة كلوتشكوف عمدة المدينة ، واغلب الظن انها رتبت الامور لكى يوافق بونين على السفر الى المدينة التى ولد فيها والمشاركة فى الحفلة . . . ويرد فى قصة «ناتالى» وصف هذه الحفلـــة ، او بالاحرى الجو الذى سادها .

حانة على النهر . نشرت القصة فى كراسة فخمة الطبع بنيويورك مزينـــة برسوم الفنـان الروسى المعروف مستيسلاف دوبوجينسكـى . وتم بيـــع

الكراسة من اجـــل مساعدة بونين فى فترة العوز وبمناسبة بلوغه الخامسة والسبعين من العمر . كتبت مورومتسيفا – بونينا فى ذكرياتها تقول : «جرى اصدار الكراسة ببدلات الاشتراك . . . وقد اعطتنا الفرصة لتدبير امور معيشتنا لفترة من الزمن . واذكر ان احدهم تبرع بمبلغ كبير جدا ، وكان ايفان اليكسييفيتش طريح الفراش وقد ارتفعت درجة حرارته بسبب التهاب الرئتين . وحدث هذا فى ايام عيد الميلاد . وقد نصبنا شجرة العيد للاطفال . وكنا نعتزم الغاء الحفلة ، لكن ايفان اليكسييفيتش الح على اقامتها . . . وحين عرف الاطفال بان ايفان اليكسييفيتش مريض ، التزموا غاية الهدوء . . . كان ايفان اليكسييفيتش يعانى من الحمى ، ويجد صعوبة بالغة فى اعطاء التواقيع . حدث هذا فى عام ١٩٤٦ ، ٧ يناير» . وكتب بونين : «انني اشعر بشىء من الخجل لاصدار «حانة على النهر» بطبعة «فخمة» ، وفيها شىء لا بأس به عن الفولغا ، وعموما بصدد «روسيا المقدسة» ، الا انها لا تعد مع هذا من افضل «اللآلئ» فى تاجي» رغم ان هذه «الحانة» قد جلبت لي الكثير من الثناء (لقد قراتها هنا امام الكثيرين) . . . لم ازر الفولغا الا مرة واحدة فقط فى حياتى – كنت مسافرا من ساراتوف الى ياروسلافل ولم ار ابدا «الحانات النهرية» . صحيح ان تسميتها هناك مغايرة – على الارجح انها تسمى «الطوافات» – لكن هذه التسمية كريهة» .

الابريق الثانى . كتب بونين عن هذه القصة يقول : «انها خيالية كلها . فقد فكرت اكثر من مرة بكتابة شىء مثل «مذكرات رسام» وكان يومض فى خيالي هذا الشىء تارة وذاك تارة اخرى ، بصورة منفصلة .ووومضت مرة الفكرة التى اعتمدتها فى تخيل «الابريق» .

ادخل الكاتب فى القصة شخصيات واقعية . ومنها– الرسامون الروس يارتسيف (١٨٤٨–١٩١٨) وكوروفين (١٨٦١–١٩٣٩) وكوفشينيكوفا (١٨٤٧–١٩٠٧) وماليافين (١٨٦٩–١٩٤٠) ، وكذلك الصحفى والناقد الادبى والمسرحى غولوشيف (اسمه المستعار غلاغول ، ١٨٥٥–١٩٢٠) وماريا فالنتينوفنا شاليابينا ، زوجة المغنى الروسى الشهير شاليابين . وقد اثار هذا مخاوف الاشخاص الذين كانوا يعتزمون طبع القصة فى امريكا ، وكذلك شاليابينا . فكتب بونين وقد اصابه الكرب والمرارة يقول : «اما بصدد شاليابين وكوروفين فانا استغرب فحسب : فلم يمكن ان تنزعج ماريا فالنتينوفنا بسبب قصتى الخيالية البريئة القصد (رغم انها قريبة جدا من الحقيقة) ، التى يرد فيها ان شاليابين وكوروفين قد طلبا بان تقدم لهما الشاى «كاتينكا» وليس «الندل ابن الكلب» ؟ كما استغرب اكثر بسبب الخوف من الدكتور غولوشيف الذى وافاه الاجل (دون ان يخلف زوجة او يرزق باطفال) وهو شيخ طاعن فى السن قبل ٢٦ عاما خلت ! فما السيىء فى ان «كاتينكا قد

امررت على الايدى» اى اوصى بان تكون نموذجا عاريا للرسامين ؟ لا ، ان الاحوال سيئة عندكم فى امريكا بصدد ما يتعلق بالحساسية !» .

يوم السجدة . كان بونين نفسه يحب هذه القصة كثيرا . وتورد مورومتسيفا – بونينا فى مذكراتها قائلة ان ايفان اليكسييفيتش كتب عن «يوم السجدة» على قصاصة ورق فى احدى لياليه المسهدة : شكرا للرب الذى اعطاني القدرة على كتابة «يوم السجدة» .

المحتويات

ايفان بونين وكتابه «الدروب الظليلة» (بقلم انا ساكيانتس) ٥
الدروب الظليلة ٢١
القوقاز ٣١
قصة شعرية ٣٩
ستيوبا ٥١
موزا ٦٢
فى الهزيع الاخير ٧٥
روسا ٨٧
حسناء ١٠٥
انتيجونا ١٠٧
زمرد ١٢٣
ذئاب ١٢٦
بطاقات زيارة ١٣٠
زويكا وفاليريا ١٤١
تانيا ١٦٥
فى باريس ١٩٨
جاليا جانسكايا ٢١٦
هنريخ ٢٣١
ناتالي ٢٥٦
حانة على النهر ٣١١

عرابة ٣٢٤
البداية ٣٣٠
«دوبكي» ٣٣٦
«مدريد» ٣٤٥
الابريق الثانى ٣٥٧
خريف بارد ٣٦٢
الباخرة «ساراتوف» ٣٧٠
غراب ٣٧٩
كامارج ٣٩١
مائة روبية ٣٩٤
ثار ٣٩٦
الارجوحة ٤١٣
يوم السجدة ٤١٧
كنيسة صغيرة ٤٤٤
الربيع فى اليهودية ٤٤٦
التعليقات ٤٥٥

الى القراء

ان دار «رادغا» تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول موضوع الكتاب وترجمته وشكل عرضه ، وطباعته ، واعربتم لها عن رغباتكم .

العنوان : زوبوفسكى بولفار ، ١٧
موسكو – الاتحاد السوفييتى